السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

(قراءة جديدة)

محمد الصوياني

الجزء الثاني

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني

- الرياض، ١٤٢٤هـ

٢٤٨ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٠-٣٧٥-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٧-٣٧٧-٤٠-٩٩٦٠ (ج٢)

١- السيرة النبوية ٢- الحديث - مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٢٤/٢٨٧٨

ردمك: ٠-٣٧٥-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٨٧٨

٧-٣٧٧-٤٠-٩٩٦٠ (ج٢)

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩





اليهود

يحرقهم ما يحدث حولهم.. ويموتون كل يومٍ بغيظهم.. إنهم يشـــرَقون بهذا النبي وبمن معه.. مع أنه كان يتقرّب إليهم.. كان يحب هدايتهم فهـــم كغيرهم يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم إلى الحق.. بل كـــان ﷺ يشـــعرهم بأنهم أقرب من غيرهم إلى الإسلام -ومع أن القرب لا يكفي أبداً - فقـــد كان ﷺ يشعرهم بذلك و (كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيمـــا لم يؤمر فيه بشيء)[1] فـــ (كان أهل الكتاب يســـدلون شـــعورهم.. وكـــان المشركون يفرقون رؤوسهم.. فسدل النبي ﷺ ناصيته)[2] لكـــن اليهـــود لا يريدون استيعاب أي شيء من محمد ﷺ.. إنهم يفضلون البقاء في معســـكر الشيطان.. ولن يغادروه إلا إذا أرسل الله نبياً يهودياً يجدد أوراق هذه التوراة الممزقة.. وكان لليهود تعاليم سلمت من التمزيق أقرها الإسلام و لم ينكرهـــا من هذه البقايا: صيام عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر محرم:

ما هي قصة صيام
يوم عاشوراء

(يوم عاشوراء كان يصام في الجاهلية)[3] و (أهـــل الجاهليـــة كـــانوا يصومون يوم عاشوراء)[4]ومنهم (قريش.. تصوم عاشوراء في الجاهلية وكان

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).

(٢)حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام، صيام عاشوراء (١٢٠).

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٣).

رسول الله ﷺ يصومه.. فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه)[1]..

وذات يوم (ذكر عند رسول الله ﷺ يوم عاشوراء فقال رسول الله ﷺ: «كان يوماً يصومه أهل الجاهلية فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه.. ومن كره فليدع»)[2].. ويقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام يوم عاشوراء ويحثنا عليه ويتعاهدنا عنده)[3].

وليس أهل الجاهلية فقط هم من يحتفي بذلك اليوم (إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى)[4].. وكان أهل خيبر أكثر احتفاءً من غيرهم فـ (هم يصومون يوم عاشوراء.. يتخذونه عيداً ويلبسون.. نساءهم فيه حليهم وشارتهم)[5]..

لكن ما علاقة ذلك كله باليهود وهل كان رسول الله ﷺ مقلداً لأهل الجاهلية وأهل الكتاب..؟ دونما تردد الإجابة: لا.. فمحمد ﷺ جاء وحياً.. لا ينطق عن الهوى ولا يملك أن يشرع من عند نفسه.. وإذا كان سياق الحدث فيه موافقة للجاهلية ولليهود فهؤلاء القوم كالغريق بين الأمواج.. مرةً يتنفس هواءً كالحياة ومرةً.. يتنفس ماءً.. أما الثالثة فيتنفس فيها موتاً..

ومحمد ﷺ كان يتنفس هواءً نقياً.. ويتفوه وحياً وعطراً.. استغرب رسول الله ﷺ صيام اليهود لذلك اليوم فكانت هذه القصة التي سجلت كم كان ﷺ ودوداً.. كم كان محباً لإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام..

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥) ومسلم واللفظ له، الصيام (١١٨).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٤).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٠).

(٤)حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٩).

(٥)حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٦).

وكم كان محباً لنبي اليهود موسى عليه الصلاة والسلام.. فلقد (قدم ﷺ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء.. فقال لهم رسول الله ﷺ:

«ما هذا اليوم الذي تصومومه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ:

«فنحن أحق وأولى بموسى منكم»، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه)[1] لأن الله أمر بصيامه.. لا لأن يهوداً صاموه.. فالمسألة هنا مختلفة.. وليست كالحالة الأولى -حالة فرق الشعر وتسريحه - فالصوم عبادة.. وأي عبادة كانت فهي محرمة في الإسلام إلا إذا جاء دليل من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ يأمر بها أو يحث عليها.. وهكذا يبقي الإسلام العبادة جديدةً صافيةً تستقى من النبع لا من ترسبات التاريخ والأهواء والفلسفات.. وهذا ما أغاظ اليهود وجعلهم من ثقوب حصونهم يترقبون.. ويتطلعون إلى أي خطأ قد يحدث منه ﷺ أو من أحد الصحابة..

وهاهو أحدهم يجد ما يريد:

يهودي ينتقد المسلمين

فقد سمع هذا الرجل بعض الصحابة يقولون: ما شاء الله وشئت وبعضهم يقول إذا حلف: والكعبة.

فرح اليهودي بما سمع فأطلق قدميه ولسانه تجاه رسول الله ﷺ منتقداً

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الصوم ١٣٤).

هذا النوع من الشرك و (أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنـــددون[1] وإنكـــم تشركون.. تقولون: ما شاء الله وشئت.. وتقولون: والكعبة)[2].

سمع رسول الله ﷺ هذه الكلمات من اليهودي..وتأثر بها.. لكنـــه لم ينفجر في وجهه.. لم يقل له: من أنت حتى تعلمنا ديننا. لم يقل له: لماذا لا تنصحون أنفسكم أيها اليهود وأنتم تقولون (عزير ابن الله) لم يقـــل: أنت لست من أهل العلم حتى نستمع إليك.. لم يقل هذا شأن داخلـــي فيما بيننا ولا نقبل النقد سوى من جماعتنا الذين هم على ديننا.. لم يتفوه ﷺ بشيء من ذلك.. بل ضرب لأتباعه المثل الأعلى في قبول الحـــق وأن الحق يقبل من أي شخص كان..

استمع ﷺ لهذا النقد اللاذع وقبله ثم توجه نحو أصحابه مصـــححاً ذلك الانحراف الخطير و (أمرهم النبي ﷺ إذا أردوا أن يحلفوا أن يقولـــوا: ورب الكعبة)[3].

وكررها ﷺ قائلاً لهم: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فـــلان ولكـــن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[4] مهما كان فلان هذا.. وقال أيضـــاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيـــت»[5].. «لا تحلفـــوا بآبـــائكم ولا بأمهاتكم.. ولا بالأنداد.. ولا تحلفوا إلا بالله.. ولا تحلفـــوا إلا وأنـــتم صادقون»[6]

(١) تجعلون لله نداً ومثيلاً وشبيهاً.

(٢) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

(٣) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

(٤) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني).

(٥) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير).

(٦) حديث صحيح. (المصدر السابق).

وبيّن خطورة ذلك فقال:

«من حلف بغير الله فقد أشرك»[1] وامتثل المسلمون فذهبوا بالأجر.. وذهب رسول الله ﷺ بالصحابة والأجر ينسابون كالنور.. كالنهر.. يغسلون تلك الزوايا التي تخثرت فيها بقايا الشرك.. وذهب ذلك اليهودي بغيظه يجره ويجر قدميه الثقيلتين ورأسه المتحجر.. فلقد انتفع المسلمون بالحق ولم ينتفع هو بشيء.. بل أضاف إلى رصيد اليهود عناداً آخر.. أضاف مساحةً بينهم وبين المسلمين..

لقد اتضح ذلك البعد وبانت تلك المفارقة عندما كان رسول الله ﷺ مهموماً يفكر ويفكر.. ويبحث عن وسيلة ينبه بها المسلمين إلى دخول وقت الصلاة فـ:

كيف ينادي إلى الصلاة

لقد (اهتم النبي ﷺ للصلاة، كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة.. فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك، فذُكر له: القنع -يعني الشُّبُّور - شبور[2] اليهود.. فلم يعجبه ذلك وقال: هو من أمر اليهود.

فذكر له الناقوس، فقال: هو من أمر النصارى)[3] لم يترل وحي بهذا الشأن.. والحيرة تملأ الجميع.. اجتهد الرسول ﷺ اجتهاد البشر (ثم أمر

---

(١) حديث صحيح. (المصدر السابق).

(٢) الشبور: هو البوق الذي ينفخ فيه.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨)...

بالناقوس فنحت ليضرب للمسلمين)[1] في وقت الصلاة.. أمر ﷺ بذلك وهو كاره له.. عرف ذلك في وجهه أحد الأنصار الذين حضروا ذلك الحوار واسمه: عبد الله بن زيد بن عبد ربه (فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لهمِّ رسول الله ﷺ)[2] .. وكان بين حرات المدينة من يحمل الحل.. إنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. لكنه بالتأكيد لم يكن حاضراً ذلك النقاش لذلك لم يقل ما عنده ولم يقص على أحد ما رآه في منامه..

انصرف الجميع.. وخيم الليل على المدينة.. وانتثرت نجومه فوق نخيلها.. نام رسول الله ﷺ، ونام الجميع.. ونام عبد الله بن زيد.. وبينما هو منسرب في أعماق النوم وجد في تلك الأعماق رجلاً يطوف به:

رجلٌ من حلم وأذان من وحي

يقول عبد الله:

(لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة.. طاف بي وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوساً في يده.. فقلت:

يا عبد الله.. أتبيع الناقوس؟ قال:

وما تصنع به..؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة.. قال:

أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت له: بلى. قال: تقول:

الله أكبر.. الله أكبر..

الله أكبر.. الله أكبر

(١) حديث صحيح. رواه ابن إسحاق.. وهو من الطريق الصحيحة التي عند أبي داود... وابن إسحاق لم يدلس.

(٢)حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨)...

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة... حي على الصلاة

حي على الفلاح... حي على الفلاح

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

ثم استأخر عني غير بعيد.. ثم قال:

وتقول إذا أقمت الصلاة:

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة.. حي على الفلاح

قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله..

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ.. فأخبرته بما رأيت فقال ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله.. فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن.. فإنه أندى صوتاً منك»[1] ولأن عذوبة الصوت تزيد القرآن والأذان

(١) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨/٩٩).

جاذبية وجمالاً لذلك كان ﷺ يقول: «زينوا القرآن بأصواتكم»[١].. «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[٢] ولعذوبة صوت بلال فقد جعل الأذان من نصيبه رضي الله عنه.

وهاهو صوت بلال الذي ملأ شوارع مكة:.. أحدٌ.. أحدٌ.. هاهو عذباً كأنهار الحبشة.. حراً كطيورها.. ينساب في سماء المدينة يوقظ فجرها.. يوقظ شمسها وينادي المهاجرين والأنصار.. ويسحرهم بصوته:

يقول عبد الله بن زيد: (فقمت مع بلال.. فجعلت ألقيه عليه.. ويؤذن به.. فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته.. فخرج يجر رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله.. لقد رأيت مثل ما رأى.. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد»)[٣]..

لا بد أن ابن الخطاب رضي الله عنه لم يحضر تلك الآراء والاقتراحات وإلا لتكلم بما رآه.. فقد (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يوماً.. ثم أخبر النبي ﷺ فقال له:

ما منعك أن تخبرني.. فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستحييت)[٤].

إذاً لا بوق.. لا راية.. لا أجراس كأجراس النصارى.. لكنه التوحيد.. حمله طيفٌ جميل (عليه ثوبان أخضران)[٥].

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٣) هذا الحديث بقية حديث أبي داود (٩٩).

(٤) حديث صحيح. صحيح سنن أبي داود (٩٨).

(٥) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

فرحة جديدة للمؤمنين... وتميز جديد..

فرحة لعبد الله بن زيد.. فرحة لعمر.. وصوت بلال يتدفق منعشاً في شوارع المدينة وسمائها.. لم يكن هناك مئذنة للمسجد ولا منارة ولكن كانت هناك:

فرحة لامرأة من الأنصار

وشرف تتغنى به.. وتنافس به تلك الأنصارية التي بنت المنبر لرسول الله ﷺ.. امرأة من بني النجار جعلت من بيتها نبعاً للنداء الجديد.. جعلت من كل بيتها موضعاً لقدمي بلال وصوته.. تقول تلك المرأة الكريمة:

(كان بيتي من أطول بيت حول المسجد.. فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة.. فيأتي بسَحَر.. فيجلس على البيت ينتظر الفجر.. فإذا رآه تمطى[1].. ثم قال:

اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك.. ثم يؤذن.. والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة.. يعني هذه الكلمات)[2].

وتصحو المدينة.. المدينة كلها على ذلك الصوت الندي وتنتعش وتتوضأ.. المدينة كلها.. إلا بيوتاً ترتج مفزوعة الجدران والقلوب.. شاخصة الأعين.. فصوت بلال رصاص يخترق بيوت يهود.. وجدران

---

(١) أي تمطى الفجر وامتد نوره في الأفق.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢/٣٣٨) ومن طريقه أبو داود (٥١٩): حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار: وابن إسحاق لم يدلس وشيخه ثقة (التقريب ٢/١٥٠) وعروة غني عن التعريف... والمرأة صحابية من الأنصار رضي الله عنها.

عبد الله بن أبي بن سلول وأمثاله...

أما قريش فقد أدركت أن اليهود وأصحابهم من المشركين قد تورموا حقداً وترقباً.. وقد حان تفجير ذلك الورم في وجه محمد ﷺ ووجوه أصحابه.. لقد حان تحويل حرات المدينة إلى أودية من الدماء والثارات والحروب التي لا تنتهي.. وجاءت شرارة تلك الحروب كالسهم من صدور قريش.. جاءت تلك الشرارة لتجعل من:

المدينة حريقاً ومذابح

كانت تلك الشرارة حروفاً مشتعلةً.. رسالةً تتقد تهديداً ووعيداً.. رسالةً تبشر بالمقابر.. (إن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج -ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر -: إنكم آويتم صاحبنا.. وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ونستبيح نساءكم..

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي[1] ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ.. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم.. فقال:

لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ.. ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم.. تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!!

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)[2] وتفرق الشر وهدأت الأنفاس.. وسكنت الأنفس المشحونة بالشر.. وسلمت المدينة من معركة

---

(١) هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو ما يزال على شركه مجاهراً معانداً...

(٢) صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود لكن اقرأ التعقيب على هذا التصحيح في بقية الحديث عند الكلام على: غزو بني النضير.

كادت تطحن أهلها وجدرانها.. كلماتٌ بسيطة وهادئة أعادت السيوف إلى أغمادها.. أعادت العقول إلى رشدها.. وخذلت قريشاً.. وخذلت اليهود المتربصين خلف شقوق الأبواب.. وتم الحفاظ على كيان الدولة الإسلامية الوليدة من حركة عسكرية كادت تعصف بأحلامها وشبابها.. فالمدينة بحاجة إلى تلك الأحلام وإلى ذلك الشباب.. إلى ذلك النبي العظيم الحكيم ﷺ.. ولم تكن يوماً من الأيام عطشى إلى تلك الدماء التي أدمنت سفحها أياد تمسحت بالجاهلية والأصنام.. ولن تسفك قريش مهما حاولت أكثر مما سيسفكه أهل المدينة بأيدي بعضهم البعض.. الأوس يدركون ذلك جيداً.. والخزرج يدركون ذلك ويذكرونه.. وخطوات قليلة إلى مقابر ضحايا (بُعاث) تذكرهم متى ما تسلل النسيان إليهم.. إذاً فقد هدأت الأنفس بعد يوم مشحون.. نامت المدينة كطفل على تلك العبارات الحانية كصدر أم حنون..

وأشرقت الشمس من جديد.. تحمل تعليمات جادةً وأعيناً أكثر اتساعاً على المستقبل والآفاق.. فالمدينة.. المدينة وأهلها في خطر.. وتوقعات أبي بكر الصديق ورؤيته الثاقبة بدأت تتشكل على أرض الواقع.

فماذا توقع أبو بكر؟

منذ أكثر من عام.. عندما أخرج من مكة مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم المرير.. وقريش ثائرة الأنفاس مغبرة الأقدام والجياد تبحث عن محمد ﷺ وصاحبه.. (لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. ليهلكن.. فأنزل الله عز وجل: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.. قال أبو بكر

رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال)[1] صدق أبـو بكـر.. فتلك الرسالة شرارة.. والمدينة في خطر والهشيم يحيط بها من كل ناحيةٍ وفي قلوب المشركين واليهود يتكوم هشيم أخطر.. ولا بـد مـن الاحتراز والاحتياط.. لا بد من السلاح في جو مكفهر بالسلاح والشرك.. فهب الصحابة رضوان الله عليهم:

حراسة رسول الله ﷺ

ذات ليلة كانت عائشة إلى جانبه ﷺ وكان السـهر إلى جانبـهما أيضاً.. قلقت عائشة رضي الله عنها، فماذا حدث؟ تقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه.. فقلت: ما شأنك يـا رسول الله؟ قال ﷺ:

«ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة».

فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح.. فقال ﷺ:

«من هذا..» فقال: أنا سعد بن مالك.. فقال ﷺ: «ما جاء بـك..» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله.. قالت -عائشة - فسـمعت غطـيط رسول الله ﷺ في نومه)[2].. بعد أن تطوع سعد بن أبي وقاص لحراسته ﷺ.

لم يكن الخطر سهماً واحداً نحو رسول الله ﷺ بل كـان أسـهماً ورماحاً منطلقة نحو كل مؤمن.. نحو كل أنصاري ومهاجر.. ولا بد أن

---

(١) سنده صحيح. رواه الطبراني في تفسيره (١٦٠/٩) من طرق عن الأعمش عـن مسـلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ومسلم البطين هو ابن عمران وهو ثقـة مـن رجال الشيخين وشيخه إمام من أئمة التابعين ومجاهديهم... وهو على شرط الشـيخين وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٧٩/٣).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ لأحمد (١٤١/٦).

يكون الحذر دائماً.. وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة لأتباعه لذلك صار:

السلاح صباحاً.. السلاح مساءً

يقول أبي بن كعب:

(لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة.. وآوتهم الأنصار.. رمتهم العرب عن قوس واحدة.. وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح.. ولا يصبحون إلا فيه.. فقالوا:

ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟)[1].

سؤال يرتعش خوفاً من هذه الجموع التي اتجهت بخيلها ورجلها ورماحها وأوثانها نحو مدينة التوحيد الوحيدة.. سؤال مُثقل بحمل السلاح والخوف.. ونزلت الإجابة وحياً.. قرآناً وبشرى.. نزل الوحي يحمل الأرض... كل الأرض.. والدنيا.. كل الدنيا مشرعة الأبواب لمحمد ﷺ وأصحابه يقول أبي ابن كعب:

(فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ

---

(١) سنده حسن. رواه الطبراني في الأوسط (مجمع البحرين ٥٨/٦) والبيهقي في الدلائل (٦/٣) واللفظ له:... أحمد بن سعيد الدارمي، حدثنا علي بن الحسين بن واقد، حدثني أبي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: وأبو العالية تابعي ثقة (التقريب ٢٥٢/١) وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ٢٤٣/١) والحسين ثقة من رجال مسلم (التقريب ١٨٠/١) وابنه حسن الحديث (السابق ٣٥/٢) وأحمد بن سعيد ثقة حافظ (التقريب ١٥/١).

﴿ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

آيات تتنزل بالأعياد والفتوح والبشرى.. أخذها الصحابة واستبشروا بها.. أخذوها كما يأخذون سلاحهم ليل نهار.. فرسول الله ﷺ علمهم أن هناك فداءً.. وأن هناك تضحيةً وهدفاً.. والهدف لا يأتي لمترددٍ أو جبان أو خائف.. خاصةً في مثل هذه الظروف.. فالمحنة تطل كالوحش فوق رؤوس الجبال على حصن الإسلام الجديد.. لا بد من التحرك.. لا بد من عمل شيء يحمي المدينة ويعيد المظالم إلى أهلها.. ويزيح هذا الركام الهائل من الأصنام عن عقول وقلوب البشرية وأجيالها.. ولن يكون ذلك بالصلاة والدعاء والمعجزات وحدها.. لا بد من:

نشاط عسكري

فلن يمكّن الله عباده من كل أرضه ما لم يقوموا بتحويلها ومن عليها إلى حركة تلهج بـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. محمد رسول الله وخاتم النبيين.. حتى تتسق وتتناغم مع حركة الكون كله والوجود كله المسبح بحمد ربه ليل نهار..

حمل الصحابة تلك البشرى وحملوا شروطها فحولت ضعفهم قوةً.. وخوفهم أمناً..

هاهو سعد بن معاذ يتجه إلى مكة الطاهرة.. كالتحدي يتفجر بين أصنام قريش وسيوفها.. ثقةً يتحدى.. وثقةً يهدد.. فيتحول صناديد قريش حوله إلى خراف ترتجف خوفاً وتتصبب عرقاً:

(انطلق سعد بن معاذ معتمراً.. فنزل على أمية بن خلف -أبي

---

(١) المصدر السابق.

صفوان- وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد.. فقال أمية لسعد: ألا انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت.. فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل.. فقال:

من هذا الذي يطوف بالكعبة؟.. فقال سعد: أنا سعد.. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم..

فتلاحيا بينهما.. فقال أمية لسعد:

لا ترفع صوتك على أبي الحكم.. فإنه سيد أهل الوادي.. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام[١].. فجعل أمية يقول لسعد:

لا ترفع صوتك -وجعل يمسكه- فغضب سعد فقال:

دعنا عنك فإني سمعت محمد ﷺ يزعم أنه قاتلك.. قال: إياي؟ قال: نعم.. قال والله ما يكذب محمد إذا حدث..)[٢] لكن ماذا فعل بعد أن بشره سعد بالقتل.. يحدثنا سعد صاحب البشرى فيقول إنه قد (قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصبأة[٣] وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم.. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان[٤] ما رجعت إلى أهلك سالماً.. فقال له سعد -ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة.. فقال له أمية:

لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم - سيد أهل الوادي.. فقال

---

(١) طريق تجارة قريش إلى الشام وهو يمر بالمدينة أو قربها.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦٣٢).

(٣) يقصد المهاجرين الذين تركوا دين آبائهم وأجدادهم.

(٤) أبو صفوان هو أمية بن خلف.

سعد:

دعنا عنك يا أمية.. فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك..» قال: بمكة؟ قال: لا أدري..

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً.. فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان.. ألم تري ما قاله لي سعد؟ قالت:

وما قال لك؟.. قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي.. فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري.. فقال أمية والله لا أخرج من مكة)(١).

لقد شلت كلمات سعد الواثقة بالله وبرسوله ﷺ.. شلت هذا الطاغية فأمسى لا يرى سوى الموت يتربص له من منافذ مكة.. لقد جعل خوفه الأرض.. كل الأرض قبراً يحاصره ويحاصر مكة معه..

أما سعد بن معاذ فعاد إلى حبيبه ﷺ وهو أكثر قوة ويقيناً.. عاد ليجد المدينة غير المدينة.. عاد لينقل ما رآه وما سمعه من خوف يملأ طغاة مكة عندما هددهم بقطع طرق قوافلهم إلى الشام وهي شرايينهم وأوردتهم.. أما رسول الله ﷺ فكان أسبق من سعد إلى هذا التفكير.. لقد قرر ﷺ أن يجعل للمدينة قوتها التي تُشعر الآخرين بمنعتها.. وتشعر قريشاً خاصة.. أن هذا الدين الجديد صار خطراً يهدد شركها وقوافلها.. بل وسلطتها ومكانتها بين العرب..

وبدأ ﷺ رحلته إلى الأرض كلها.. بدأ بـ

غزوة العُشَيرة

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) (ص٨١٢).

وهي أول غزوة بدأها ﷺ وقادها[1].. وليس لدينا تفاصيل صحيحة عن أحداثها.. وبما أن العُشيرة قرب ينبع فهي على طريق قوافل قريش.. إذن فهي أول تهديد عملي لقريش وقوافلها.. كما غزا ﷺ:

غزوة الأبواء

ليس لدينا تفاصيل صحيحة الإسناد عنها.. ولكن وقوع المعركة ثابت في مكان يقال له الأبواء.. ذلك المكان الذي وقفت فيه المطايا بمحمد ﷺ وهو طفل صغير.. وقفت فيه المطايا تودع أمه التي فقدها هناك وغابت عن عينيه وعن الدنيا حيث دفنت هناك.. ذلك المكان الذي أبكاه ﷺ.. كان موعداً لغزوة لا نعرف أحداثها الصحيحة بعد.. لكن المكان يقع في الطريق إلى مكة.. مما يعني تهديداً آخر لقريش.. وخبرة جديدة لرسول الله ﷺ وأصحابه في الكشف عن طبيعة الأرض والأعداء المحيطين بدولة الإسلام الجديدة.. كان تلميحاً لمن تسول له نفسه غزو المدينة والغدر بأهلها.. أزعجت تلك التحركات قريشاً.. لكن رسول الله ﷺ كان يعد لهم مفاجأة.. سرية بقيادة صحابي عظيم هو أبو عبيدة والذي حاز لقباً عظيماً فيما بعد هو: أمين الأمة.. فما

---

(١) ورد أن الأبواء هي أول غزوة لرسول الله ﷺ لكن هذا غير صحيح فالرواية في ذلك ضعيفة رواها كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده... وكثير هذا ضعيف. وهناك رواية أخرى عن عروة وقد وصلها ابن عائذ لكنها من طريق ابن لهيعة.. وليس فيها أن الأبواء أول غزوة بل إن سعداً، أول من رمى سهماً في سبيل الله.. وهذا صحيح ولكنه ليس دليلاً على أن الأبواء أول الغزوات... لأن العشيرة -عند المؤرخين- لم يحدث فيها قتال ولم يرم بها بالسهام.. أما كون سعد أول من رمى بسهم فقد جاء على لسانه هو ولم يذكر رضي الله عنه متى كان ذلك... والرواية عند الشيخين وستمر معنا قريباً عند الحديث عن سرية عبد الله بن جحش.

قصة تلك السرية:

سرية نخلة

(بعث ﷺ رهطاً.. فبعث عليهم أبا عبيدة.. فلما أخذ لينطلق.. بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ.. فبعث رجلاً مكانه يقال له: عبد الله ابن جحش)[1] حرارة الشوق أبكت أبا عبيدة.. وحبه لملازمة رسول الله ﷺ جعلت رسول الله ﷺ يشفق عليه ويبقيه جواره.. ليبعث بطلاً آخر..

(بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب.. [مقفلة من بدر الأولى] وبعث معه بثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد.. وكتب له كتاباً.. وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً..

وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين.. من بني عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.. ومن بني أمية بن عبد شمس ثم من حلفائهم: عبد الله بن جحش بن رئاب -وهو أمير القوم- [وعكاشة بن محصن بن حرثان أحد بني أسد بن خزيمة].

---

(١) سنده قوي.. رواه الطبراني (١٧٤/٢) وابن أبي حاتم (ابن كثير ٣٧٠/٢): حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه، حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله وأبو السوار العدوي تابعي ثقة من رجال الشيخين واسمه حسان بن حريث (التقريب ٤٣٢/٢).

وتلميذه الحضرمي لا بأس به (التقريب ١٨٥/١) أما معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي ووالده فثقتان وهما من رجال الشيخين (التقريب ٣٢٦/١، ٢٦٣/٢) وشيخ أبي حاتم محمد بن أبي بكر المقدمي ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١٤٨/٢).

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان -حليف لهم-.

ومن بني زهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص.

ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة -حليف لهم- وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة.. [وخالد ابن البكير - أحد بني سعد بن ليث.. حليف لهم].

ومن بني الحارث بن فهر: سهل بن بيضاء.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين.. فتح الكتاب ونظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف.. فترصَّد بها قريشاً وتعلَّم لنا من أخبارهم..

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب: قال سمعاً وطاعة.. ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة فأرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر.. وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم.. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع.. فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.. (فرجع رجلان ومضى بقيتهم)[1].

فمضى ومضى معه أصحابه فلم يتخلف عنه منهم أحد.. وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: بُحران.. أضل سعد ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا عليه يعتقبانه.. فتخلفا عليه في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة.. فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارةً من تجارة قريش فيها منهم:

---

(١) هذه العبارة ليست في السياق بل هي جزء من الحديث الصحيح السابق. وفي السياق سبب رجوع هذين الصحابيين... وهو أنهما فقدا بعيرهما.

عمرو بن الحضرمي.. عثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان. والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم وقدنزلوا قريباً منهم.. فأشرف لهم عكاشة بن محصن -وقد كان حلق رأسه - فلما رأوه أمنوه وقالوا: عُمّار.. فلا بأس علينا منهم.. وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من جمادى.. فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم.. ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام.. فتردد القوم فهابوا الإقدام عليهم.. ثم شجعوا عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم.. فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان.. [وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم]..

وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة..

[وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ ما غنمتم الخمس وذلك قبل أن يفرض الخمس من الغنائم.. فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير.. وقسم سائرها على أصحابه].. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال:

[«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام».. فوقف العير والأسيرين.. وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سُقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا.. وعنفهم المسلمون فيما صنعوا وقالوا لهم:

صنعتم ما لم تؤمروا به.. وقاتلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال].. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا

فيه الدم وأخذوا فيه الأموال.. وأسروا فيه الرجال.. فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في جمادى.. [وقالت يهود تتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله.. عمرو عمرت الحرب.. والحضرمي حضرت الحرب.. واقد بن عبد الله وقدت الحرب.. فجعل الله عليهم ذلك وبهم] فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر.. وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين)[1].

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه ضمن تلك السرية يحدثنا عن ذلك ابن مسعود وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم فيقولون في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ...﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم: عبد الله بن جحش

---

(١) حديث صحيح عدا ما بين المعقوفين.. رواه الطبري تفسير (٢/٣٦٠) واللفظ له والبيهقي في الدلائل (٣/١٧-١٨) عن عروة مرسلاً وهو صحيح إلى عروة لكن لم يذكر شيخه من الصحابة... والحديث له شاهد عند الطبراني (٢/١٧٤) وابن أبي حاتم (سيرة ابن كثير ٢/٣٧٠) من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه: حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله: عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح... كما رواه الطبري في التفسير (٢/٣٦٢) وأبهم الحضرمي فقال: إنه حدثه رجل عن أبي السوار وقال الهيثمي في المجمع (٦/١٩٨)/ رجاله ثقات... وله شواهد كثيرة عند الطبري (٢/٣٦٣) عن ابن عباس... وأبي مالك الغفاري.. وعن الزهري وعثمان الجزري ومقسم مولى ابن عباس... أما ما بين معقوفين مثل تصرف ابن جحش في الغنائم وقول يهود فهو مرسل... والحديث يشهد له ما بعده.

وفيهم: عمار بن ياسر.. وأبو حذيفة بن عتبة.. وسعد بن أبي وقاص.. وعتبة بن غزوان.. وسهل بن بيضاء.. وعامر بن فهيرة.. وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب..

وكتب لابن جحش كتاباً وأمره ألا يقرأه حتى يترل بطن ملل.. فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه:

أنْ سِرْ حتى تترل بطن نخلة.. فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص فإني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ...

فسار وتخلف عنه سعد وعتبة أضلا راحلة لهما فأقاما يطلباها، وسار هو وأصحابه حتى نزل بطن نخلة.. فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان وعبد الله بن المغيرة.. فذكر قتل واقد لعمرو بن الحضرمي.. ورجعوا بالغنيمة والأسيرين.. فكانت أول غنيمة غنمها المسلمون..

وقال المشركون: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب..

وقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى)[1].

وسواء قتل ذلك المشرك في جمادى أو في رجب أو في رمضان فرسول الله ﷺ لم يأمر بذلك.. إنما هي حماسة المهاجرين المقهورين المطرودين من ديارهم وأموالهم ولا ذنب لهم سوى أن يقولوا لا إله إلا الله.. لم يتمالكوا أنفسهم -وهم بشر - عندما رأوا أموالهم التي غصبتها

---

(١) سنده قوي. رواه السدي في تفسيره (ابن كثير ٣٧٠/٢) عن أبي صالح عن ابن عباس وهذا ضعيف من أجل أبي صالح وهو (باذام) لكن السدي رواه من طريق أصح عن مرة عن ابن مسعود جماعة من الصحابة، ومُرَّة بن شراحيل الهمداني تابعي كبير ثقة. وهو صحيح بما قبله.

قريش واغتصبتها تسيل أمامهم تجارةً تنمو بين أيدي المشركين وهم الحفاة الذين تشققت أقدامهم من العوز والفقر.. وأضناهم الجوع والتعب.. إنك تبحث بين هؤلاء الرفقة.. تسألهم أين سعد بن أبي وقاص.. أين عتبة بن غزوان ألم ينطلقا معكم من المدينة..؟ فتأتيك الإجابة حسرةً..

لقد انطلق سعد وعتبة وسارا مع السرية.. لكن على جملٍ واحد جاءا.. يركب أحدهما ويترل الآخر.. ويركب الآخر فترة ليمشي صاحبه.. أما الآن فلا جمل لهما لقد ند وهرب وهما يركضان على أقدامهما المتشققة خلفه.. يذرعان بطون الأودية والشعاب ولا أحد غير الله يعلم ما سيحدث لهما.. ما هو موقف الإنسان.. أي إنسان حافي القدمين يبحث عن جمل ثم يرى جماله المسلوبة منه تتقاطر بالمال بينما تتقاطر قدماه بالدماء.. ما هو موقف من يرى حقه من اللباس والطعام والشراب.. يتجه نحو من؟ نحو خشبة ملقاة على ظهرِ الكعبة.. أو نحو كاهن من سدنة تلك الأصنام.. لا يعرِف لله قدراً ولا للتوحيد مترلةً.. ما هو شعور سعد المشرد الفقير الذي يصف الأجواء التي عاشها في مثل تلك المهمات الصعبة فيقول:

(إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله.. وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشّجر.. حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خلط)[1].

إن رجلاً لا يجد سوى ورق الشجر لمعذور أن ينهب ما يسد به رمقه ويدفع به الموت عنه.. فكيف إذا كانت تلك الأموال أمواله وأموال أصحابه..

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٢٨).

وبعد هذا كله يتنزل العذر من فوق سبع سماوات انتصاراً من الله لعباده.. وتبرئة لساحتهم البيضاء من دنس أهل الشرك.. الذين ارتكبوا الفظائع والشنائع بحق الله أولاً ثم بحق رسوله ﷺ وصحابته الكرام.. عاد الصحابة نصراً وبراءةً.. عادوا ليجدوا في المدينة خبراً.. ليجدوا في وجه رسول الله ﷺ فرحاً.. وفي وجوه يهود كدراً وظلمةً.. لقد فقدت يهود شيئاً عظيماً.. وانقطع آخر الحبال التي كانت ترى أنه قد يربطها بنبي الإسلام ﷺ.. اليهودُ حداد.. اليهود سواد بعد أن طرق ذلك الخبر أبواب حصونهم المنيعة وآذاهم المسدودة.

فما هو هذا الخبر

هذا الخبر هدية قادمة من السماء.. كان في الماضي شوقاً وأمنية تتردد في صدره ﷺ مذ كان في مكة.. مذ كان يخر ساجداً لله في بيته المحرم.. متجهاً بقلبه نحو الله.. مستقبلاً الشام.. حيث المسجد الأقصى.. لكنه كان يقوم بحركة تعبر عن ذلك الحلم الذي لا يستطيع الإفضاء به.. كان ﷺ يجعل الكعبة أمام وجهه بحيث تكون بينه وبين المسجد الأقصى.. لكن ماذا عنه الآن.. إنه ما زال ينفذ أمر ربه.. فيستقبل المسجد الأقصى.. أما الكعبة.. أما حبيبته الحزينة.. التي نشأ بالقرب منها.. وأحبها ووضع حجرها.. فالجاهلية بينهما.. حبيبته بعيدة.. لا يستطيع رؤيتها.. ولا الحديث إليها.. ولا تحسس لباسها.. ولا حتى استقبالها.. إنها هناك أسيرة.. وهو هاهنا مشتاق.. يتقلب وجهه في السماء.. ويطوف طرفه في أرجائها (كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ

﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾)[١].

إذاً فالقبلة تحولت من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة المكرمة لكن متى كان ذلك.. وما علاقة اليهود بالقبلة واتجاه المسلمين في صلاتهم.. وماذا حدث عند سماع الخبر.

أما متى فخبر ذلك عند البراء بن عازب رضي الله عنه:

يخبرنا البراء عن ذلك فيقول: (إن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً.. وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت.. وأنه صلى أول صلاة صلاها: صلاة العصر.. وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه ﷺ فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال:

أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة.. فداروا كما هم قبل البيت)[٢]. الحرام.. نفذوا.. امتثلوا دون تردد.. فالأمر وحي والتساؤل فيما بعد.. لكن إذا كان هناك تساؤل فهل هو اعتراض أو احتجاج كاحتجاج يهود.. المؤمنون أرقى من ذلك.. إن لهم قلوباً رقيقة ومشاعر طيبة.. كان تساؤلهم ذلك رحمة وإشفاقاً على إخوانٍ لهم ماتوا و لم يصلوا تجاه المسجد الحرام. البراء ينقل تلك المشاعر لنا فيقول:

(فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير، سورة البقرة ١٤٣): حدثني إسماعيل ابن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء.... وشيخ ابن إسحاق وشيخ شيخه تابعيان ثقتان ثبتان. انظر التقريب (١/٦٨)(٢/٧٣).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس)[1].

بل إن البراء رضي الله عنه كان أحد المتسائلين.. هو نفسه يقول: (وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم.. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾)[2] وهو أرحم من أن يخذل من قصده وأناخ رحله وقلبه ببابه.. ولعل تلك التساؤلات بدأت بُعيد الصلاة.. وبدت المدينة مشغولة بهذا الحدث الكبير... فتأخر وصول الخبر إلى أهل قباء ومسجد قباء.. فـ (بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليهم الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها.. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة)[3].

كما استدار أصحابهم في المدينة.. كما امتثل إخوانهم هناك خلف رسول الله ﷺ..

أما اليهود فقد استدارت قلوبهم ودروبهم عن الله وعن رسوله ﷺ وعن قبلته الجديدة.. وتطايرت من حصونهم وألسنتهم ألفاظ الاستهجان والاحتجاج.. ها هم يجوبون شوارع المدينة - في سفاهة وسماجة يقولون:

(ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها.. فأنزل الله: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾)[4] - لله المشرق والمغرب ولا شيء

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٣) ومسلم من حديث ابن عمر (المساجد ١٣).

(٤) سنده صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

لليهود.. الأمر وحي واليهود حاربوا الوحي وقتلوا حملة الـوحي مـن الأنبياء.. فكيف لا يحاربون وحياً نزل على غيرهم.. ونبياً لـيس مـن بينهم.. واكتملت الآيات وتلاها رسول الله ﷺ وتلاها أصحابه.. ومـن بعدهم سيتلوها.

سيتلوها هكذا: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ[1] مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ[2] ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ[3] لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا

---

(١) أي اليهود.

(٢) أي باتجاه المسجد الحرام.

(٣) أي اليهود.

﴿يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].. إلى ما ضلت عنه اليهود وضل عنه النصارى..

كانت تلك الأحداث بعد منتصف شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة.. وبعد عودة سَرِيَّة عبد الله بن جحش.. حدثنا بذلك سعد بن أبي وقاص ربما بعد أن وجد بعيره.. يقول رضي الله عنه (صلى رسول الله ﷺ ست عشر شهراً.. ثم حول بعد ذلك قبل المسجد الحرام قبل بدر بشهرين)[2].

إذاً فالنخل الذي كان في قبلة المسجد أصبح في مؤخرة المسجد وبما أن المسجد كان (مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل) فيكون المسجد كله مسقوفاً.. وبناء جدار في قبلته السابقة -مؤخرته الآن - أو بناء جدار في أحد زواياه قد يفي بحاجة ماسة تحطم القلب وتدمع لها العين.. حاجة تطل من منافذ المدينة كل يومٍ.. كل يوم حيث يتهادى إلى المدينة مهاجر أو مهاجرون.. بعضهم ضاق بقومه.. و البعض ضاق به قومه وضيقوا عليه وسلبوا كل شيء لديه.. أو دفع كل شيء ثمناً لهذا الهروب الحبيب.. دون مال يأتون.. البعض حفاة.. وبعضهم أشباه عراة.. وأحضان المدينة والأنصار تضمهم.. وهذه الدولة الصغيرة تستقبلهم

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٤٢-١٥٠.

(٢) سنده صحيح. رواه البيهقي في الدلائل (٥٧٣/٢):... حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا ابن فضيل، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، قال: سمعت سعد بن أبي وقاص.. وهذا السند صحيح، سعيد بن المسيب إمام التابعين... وتلميذه تابعي ثقة من رجال الشيخين (التهذيب ٢٢١/١١) أما ابن فضيل فاسمه: محمد بن فضيل بن غزوان وهو ثقة ثبت (التقريب ٢٠٠/٢) و (التهذيب ٤٠٥/٩) وسماع تلميذه للسيرة صحيح، وأبو العباس هو الإمام الثقة الثبت المعروف بالأصم.

وتحميهم.. لكن بيوت الأنصار قد امتلأت.. والهاربون والمطاردون قد كثروا.. نظر ﷺ إليهم.. تأملهم.. تأمل أبيات الأنصار الممتلئة.. وتأمل فقره وفقرهم.. نظر ﷺ إلى مسجده فجعله دار من ليس له دار.. ومأوى من ليس له مأوى.. فبنى ذلك الجدار داخل المسجد[1].. فأصبح هناك حجرة (صفة) متواضعة.. تدافع القادمون إليها.. وعاش في تلك الصفة رجال يبيت معهم الفقر حيث باتوا.. يمسي بينهم ويصبح كظلهم.. يأكل ولا يأكلون.. ويشرب ولا يشربون.. عاشوا فيها أياماً ليست كالأيام.. وميزهم الفقر بلقب كالفقر هو:

أهل الصفة

هم الذين فضلوا جوار رسول الله ﷺ رغم العوز على أن يعيشوا عيشةً أيسر بجوار طاغية أو صنم.. يصفهم أحد الصحابة فيقول:

(أهل الصفة أضياف الإسلام.. لا يأوون على أهل ولا مال)[2]

ويقول أحد الذين شاهدوهم:

(كان أصحاب الصفة الفقراء)[3] لا يملكون شيئاً.. غرباء لا يعرفون أحداً.. هذا هو أحد الفقراء.. أحد الذين عاشوا تلك المعاناة ودلفوا إلى تلك الصفة.. غريب اسمه طلحة بن عمرو رضي الله عنه يقول:

(كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل

---

(١) لا أعرف تحديداً صحيحاً لموقع الصفة وإلا لذكرته وذكرت إسناده.

(٢) متفق عليه.. انظر البخاري (٦٤٥٢) وهو حديث طويل وما ذكرته جزء منه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٠).

عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة.. وكنت فيمن نزل الصفة)[1].. لكن ماذا عن شعور رسول الله ﷺ نحو هؤلاء الضعفاء بعد أن بنى لهم تلك الصفة هل تخلى عنهم؟.. يواصل طلحة حديثه فيقول:

(وكنت فيمن نزل الصفة فوافقت رجلاً وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد من تمر بين رجلين)[2] لأن رسول الله ﷺ لا يجد لهم أكثر من مدٍ للاثنين معاً.. نصف مدٍ يملأ الكف الواحدة هو طعام الرجل من أهل الصفة من الليل إلى الليل.. نصف مد للرجل الواحد يومه وليلته.. وقد يأكل الرجل منهم وقد يأكلون جميعاً ورسول الله ﷺ لا يجد ما يأكله، وقد لا يجدون ولا يجد رسول الله ﷺ ما يأكله.. يقول أحد الصحابة:

(أهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال.. إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً.. وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها)[3].

إذاً فنصف المد لم يكن متوفراً يومياً بل ربما مر يوم أو يومان والانتظار يحرق أهل الصفة.. ينظر بعضهم إلى بعض.. وينظرون إلى باب

---

(١) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣/٢٨٧) وأبو نعيم (١/٣٣٩) واللفظ له من طريق: داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو... وهذا الإسناد صحيح. داود ثقة متقن من رجال مسلم (التقريب ١/٢٣٥) وشيخه تابعي ثقة قيل إن اسمه محجن أو عطاء (التقريب ٢/٤١٠) وطلحة صحابي رضي الله عنه.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣/٢٨٧) وأبو نعيم (١/٣٣٩) واللفظ له من طريق: داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو... وهذا الإسناد صحيح. داود ثقة متقن من رجال مسلم (التقريب ١/٢٣٥) وشيخه تابعي ثقة قيل إن اسمه محجن أو عطاء (التقريب ٢/٤١٠) وطلحة صحابي رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه قال أبو نعيم (١/٣٣٩).

الصفة.. إلى باب المسجد.. إلى باب رسول الله ﷺ يبحثون عن لقمة.. عن نصف لقمة عن أي شيء يسد جوعهم فلا يجدون سوى الجوع طعاماً وشراباً.. ويخرج رسول الله ﷺ من بيته فتتعلق أعينهم به ويحدقون بيديه فيجدونها خالية كبطونهم.. فيدركون أنه ما من طعام.. يقول أحدهم: (الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع)[1] مثل هذا كيف سيصلي وقد حان وقت الصلاة؟!

هاهو ﷺ يدخل المسجد فتقام الصلاة.. ويقوم أهل الصفة خلف رسول الله ﷺ للصلاة وهم يترنحون من الهزال والجوع.. ويصطفون بين إخوانهم المصلين.. ويكبر ﷺ فيكبرون.. وفي لحظات الخشوع الهادئة مع الله يسمع المصلون دوياً وارتطاماً بين الصفوف.. ويسمع رسول الله ﷺ خلفه حركةً وأنيناً.. وتخفق القلوب القريبة من الحدث.. ويتألم الجميع بعد انقضاء الصلاة فماذا حدث..

هذا هو فضالة بن عبيد الأنصاري.. أحد الصحابة رضي الله عنهم كان يصلي خلف رسول الله ﷺ.. سألناه:

ماذا حدث يا فضالة

فيجيب فضالة وهو عالم من الشعور والألم فيقول:

(كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم لما بهم من الخصاصية[2] وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين.. فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم فيقول:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٦٤٥٢).

(٢) الجوع.

لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة[1].. قال فضالة: فأنا مع رسول الله ﷺ يومئذٍ)[2] حيث كان يواسيهم ويدفع عنهم ما يؤلمهم بشيء يهون معه الجوع.. وتحلو معه المعاناة.. يعزيهم بشيء يحول الموت وما بعده إلى أمنية وحلم لا حدود له.. ومع هذا العزاء.. ومع هذه المواساة كان ﷺ يتألم لتألمهم.. ويتألم مثل ألمهم..

تقول حبيبته عائشة رضي الله عنها:

(كان ﷺ إذا دخل قال: هل عندكم طعام؟ فإذا قيل: لا.. قال: إني صائم)[3] لقد تحول الجوع إلى عبادة.. وتحول الشبع إلى عبادة.. قال ﷺ مبشراً إخوانه الموسرين: (الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر)[4] ويقول ﷺ مندهشاً ومبشراً:

(عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[5] (عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له)[6].. يقول ﷺ ذلك كله وهو يتمنى لو يدفع عنهم هذا الفقر وهذا الهزال لكنه لا يجد.. كانت تمر به لحظات لا يملك فيها سوى

---

(١) الفقر والحاجة.

(٢) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٧) من طريق حيوة وابن وهب: عن ابن هانئ أن أبا علي الجنبي حدثه أنه سمع فضالة بن عبيد وأبو هانئ اسمه حميد بن هانئ الخولاني وهو ثقة (التهذيب ٣/٥١) وشيخه ثقة أيضاً واسمه: عمرو بن مالك الهمداني وهو أحد التابعين (التهذيب ٨/٩٥).

(٣) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير ١/٨٦٠).

(٤) حديث ضحيح. (المصدر السابق ١/٧٣١).

(٥) حديث صحيح. (السابق ٢/٧٣٧).

(٦) حديث صحيح. (السابق ٢/٨٣٨).

المواساة.. يستمع إلى الشكوى تلو الشكوى في أجواء من الحرية والفاقة.. طلحة بن عمرو أحد أهل الصفة.

يروي لنا حواراً جرى بعد إحدى الصلوات بين رسول الله ﷺ وبين أحد الفقراء.. يقول طلحة:

(كان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدٍ من تمر بين رجلين..، فسلم ﷺ ذات يوم من الصلاة، فناداه رجلٌ منا فقال: يا رسول الله.. قد أحرق التمر بطوننا.. وتخرقت عنا الخنف..، فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده..، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ما لقي من قومه.. فقال:

مكثت أنا وصاحبي بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيه.. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم.. ولكن تدركون زماناً -أو من أدركهم منكم - تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى[1] عليكم ويراح[2] بالجفان)[3] فرح أهل الصفة بهذا الوعد الصادق.. وتأثروا لما حدث لرسول الله ﷺ وصاحبه من أذى ومعاناة حيث يمر معظم الشهر ليس عندهما ما يأكلانه سوى ثمر الأراك.. ما تعرض له أهل الصفة شديد.. ولكن ما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه كان أقسى وأشد.. وينصرف أهل الصفة إلى صفتهم.. وقد طواهم الجوع والرضى.. والاحتساب وانتظار الفرج.. ولم يكن ﷺ يواسيهم بالماضي أو بالمستقبل

---

(١) يقدم لكم في الصباح.

(٢) يقدم لكم في المساء.

(٣) سنده صحيح. رواه أبو نعيم (٣٧٤/١) من طريقين: عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب ابن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو ورواه أحمد كذلك من الطريق نفسه وقد مر معنا تخريجه.

فقط.. بل كان إذا اشتدت حاجتهم يتحرك ويحرك المدينة كلها من حولهم.. يقول أحد أبناء أبي بكر الصديق:

(إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن رسول الله ﷺ قال:

«من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث.. ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس».. بسادس.. وأن أبا بكر جاء بثلاثة.. وانطلق النبي ﷺ بعشرة)[١].

مأساة هم أهل الصفة وارتحال وقصص باكية.. تنصت لها الأجيال بإجلال.. هذا أحدهم: قرة بن إياس يقص لابنه ما جرى لهم مع رسول الله ﷺ وكان اسم ابنه معاوية.. معاوية ينصت لأبيه وهو يقول:

(لقد عمرنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان.. ثم هل تدري ما الأسودان؟ قال معاوية: قلت: لا.. قال: التمر والماء)[٢] هذا هو الطعام وهذا هو الشراب فما هي:

ملابسكم يا أهل الصفة

لو شاهدتهم لبكيت.. ولاستحيوا منك وأنت تنظر إليهم.. وتنظر إلى تلك الأشياء التي ألقوها على أجسادهم.. يسمونها ملابس وما هي بملابس.. لو استمعت إليهم وهم يستغيثون:

---

(١) متفق عليه قاله أبو نعيم ورواه في الحلية (١/٣٣٨).

(٢) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية من طريق روح بن عبادة... ورواه جعفر بن سليمان، قالا: حدثنا بسطام بن مسلم عن معاوية بن مرة قال: قال أبي... وروح وجعفر ثقتان... وشيخهما بسطام بن مسلم العوذي ثقة من رجال التقريب (١/٩٧) وشيخه هو التابعي الجليل، العالم الثقة معاوية بن قرة بن إياس المزني من رجال الشيخين (التقريب ٢/٢٦١) انظر الحلية (٢/٢٢-٣٣).

(يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا وتخرقت عنا الخنف)[1] الكتانية الغليظة الرديئة..

من يصدق أنه (كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحدٍ منهم رداء)[2].. لقد كان ذلك.. رآهم رسول الله ﷺ ورآهم أحد الصحابة وتحدث للجميع بما رآه فقال رضي الله عنه:

(رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك..، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته..)[3] فهو لا يملك غيره ولا يملك ثمن سراويل أو ملابس داخلية تستر عورته.. وفي تفصيل آخر يقول: (رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)[4].

إن من يطلع على تلك المآسي التي تلوّى منها أولئك الفقراء العظماء ليظن أن هؤلاء مجرد فقراء مساكين جاءوا يبحثون عن الطعام والشراب

---

(١) مر معنا وهو صحيح.

(٢) سنده قوي. رواه أبو نعيم -الحلية - (١/٣٣٩) حدثنا محمد بن محمد بن إسحاق حدثنا زكريا الساجي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عمي عبد الله بن وهب، عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة... وشيخ أبي نعيم هو أبو أحمد الحاكم إمام وحافظ عصره (طبقات الحفاظ ٣٣٨) وشيخه ابن يحيى الساجي ثقة فقيه من رجال التقريب (١/٢٦٢) وأحمد صدوق من رجال مسلم (التقريب ١/١٩) وعمه ثقة حافظ عابد (السابق ١/٤٦٠) وابن غزوان ثقة من رجال الشيخين (المصدر السابق ٢/١١٣) والتهذيب (٨/٢٩٧) وأبو حازم هو الأشجعي واسمه سلمان وهو تابعي ثقة من رجال الشيخين (١/٣١٥).

(٣) رواه أبو نعيم (١/٣٤١) من طريق الإمام أحمد بسند قوي وانظر ما بعده فهو هو...

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٢).

والمأوى.. وهم -والله - ما قدموا من أجل لقمة أو رغيف.. ولم يتسللوا من أجل صُفة متواضعة إذا ضربها المطر ساعة أمطرت عليهم ساعات.. وابتلت ثيابهم وجنوبهم وظهورهم والأرض التي يتوسدونها.. إن هؤلاء العظماء.. فروا من العيش الرغيد وتركوا الأهل والأموال والعشيرة وربما الخدم.. تركوا الدنيا بكل زخارفها لأنها كانت تركن إلى صنم.. لأنها كانت تلوذ بغير الله.. واتجهوا بكليتهم.. بعواطفهم ومهجهم إلى الله سبحانه وتعالى.. وتسللوا والناس نيام إلى صفة لا تقي من البرد ولا من الجوع.. لكنها صفة تستدفئ بمسجد رسول الله ﷺ وبقرب رسول الله ﷺ.. يعمرها القرآن.. ويزينها الإيمان.. تمر بها عائشة رضي الله عنها ذات ليلة فتقف عندها مأسورةً مأخوذةً.. فتبطئ الخطا وتبطئ على زوجها رسول الله ﷺ.. ثم تعود.. وعندما تصل يسألها رسول الله ﷺ:

(أين كنت..؟ قلت: يا رسول الله سمعت قراءة رجل في المسجد ما سمعت مثله قط.. فقام رسول الله ﷺ.. وتبعته.. فقال لي: ما تدرين من هذا؟.. قلت: لا.. قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة.. ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا)[1].

عبد فقير يفخر به ﷺ.. ويشكر الله سبحانه أن وهب هذه الأمة مثله.. إن أمة تفخر بالموالي والعبيد كما تفخر بالأشراف لأمة عظيمة.. وإن ديناً يتساوى فيه البشر ليستحق الخلافة في الأرض.. كل الأرض..

(١) سنده صحيح. رواه ابن المبارك وأبو نعيم في الحلية (٣٧١/١) من طريق: حنظلة بن أبي سفيان عن عبد الرحمن بن سابط عن عائشة رضي الله عنها قالت: استبطأني رسول الله ﷺ ذات ليلة، فلما جئت قال لي: أين كنت؟ هذا السند صحيح. حنظلة شيخ ابن المبارك وشيخ الوليد عند أبي نعيم ثقة حجة (التهذيب ٦٠/٣) والتقريب (٢٠٦/١) وشيخه عبد الرحمن بن سابط تابعي ثقة (التقريب (٤٨٠/١) والتهذيب (١٨٠/٦).

ويستحق أن تنقطع الأعناق في الصحاري والقفار بحثاً عنه.. في يوم من الأيام يقرر أحد المؤمنين أن يترك أهله ودياره.. يقرر أن يلتحق بتلك الصفة المتواضعة خوفاً على دينه.. أيام تمر وليالي تمضي وهو يسير مع غلامه في طريق الهجرة.. وذات يوم وعندما خيَّم الليل.. يقرر ذلك الغلام الفرار والهرب من سيده فيفعل.. ويتركه وحيداً مع الليل الخوف.. فيواصل سيده المسير دون تردد وتلك الليلة المشحونة بالهموم والوحدة والإرهاق تملأ صدره.. فيتنهد شعراً ويقول:

يا ليلة من طولها وعنائها　　على أنها من دارة الكفر نجَّت

مسافر بلا رفيق.. وليل طويل.. وطريق غير آمنة.. كل ذلك يهون لأن كل ذلك يؤدي إلى المدينة.. سكن ذلك المسافر في الصفة وتخرج منها ليكون أعظم علماء الإسلام في الحديث.. تخرج هو وغيره من تلك الصفة علماء لأنها لم تكن ملجأ فقط.. لقد تحولت إلى كتاب مفتوح منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه ﷺ على أهل الصفة وحدثهم.. عقبة بن عامر كان أحد الحاضرين سألناه ماذا قال لكم رسول الله ﷺ يا عقبة فقال:

(خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال:

«أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم».. فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك.. قال ﷺ: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، و ثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع.. ومن أعدادهن من الإبل»)[1] الإبل التي هي أنفس ما يملكه العربي.. حولها الإسلام إلى أشياء رخيصة أمام أحرف العلم..

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، صلاة المسافرين.

وحدث رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم عن العلم والمال وأمرهم أن يحفظوا هذا الحديث فقال:

(وأحدثكم حديثاً فاحفظوه.. إنما الدنيا لأربعة نفرٍ:

«عبدٍ رزقه الله مالاً وعلماً.. فهو يتقي فيه ربه.. ويصل فيه رحمه.. ويعمل لله فيه حقاً.. فهذا بأفضل المنازل.

وعبدٍ رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً.. فهو صادق النية».. يقول: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء.

وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم.. لا يتقي فيه ربه.. ولا يصل فيه رحمه.. ولا يعمل لله فيه حقاً.. فهذا بأخبث المنازل.

.. وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان.. فهو بنيته.. فوزرهما سواء»)[1].. لذلك فقد انطلق أهل الصفة نحو العلم.. وانطلق أغنياء الصحابة نحو العلم ونحو أهل الصفة وغيرهم من الفقراء..

وانطلق الأنصار.. وتفجر كرمهم من جديد.. وفاح عبيرهم.. وتوهجت شمسهم نحو أهل الصفة والفقراء..

هاهم يقومون بأعمال أشبه بالمعجزات.. أشبه بالخيال.. لأنهم ينجزونها كلها في اليوم والليلة.. وفي كل يوم وليلة.. يحدثنا عنهم أنس بن مالك فيقول: إنهم رجال (من الأنصار يقال لهم «القراء» فيهم خالي «حرام» يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع وصحيحي الترمذي وابن ماجه.

الصفة وللفقراء)[1].

ألم أقل إنه عمل أشبه بالمعجزات.. قبل شروق الشمس ينهضون.. يصلون.. ثم يستسقون لأهل المدينة.. يضعون لهم الماء في المسجد مسبلاً للعطشان وابن السبيل ولمن يمر أو يقيم في المسجد.. ثم يتوجهون كالحياة إلى خارج المدينة تهوي فؤوسهم وسواعدهم.. يحتطبون ويكدحون.. ثم يذهبون به إلى بيوتهم؟

لا.. بل إلى السوق حيث يمارسون البيع والشراء.. يبيعون الحطب ويشترون بثمنه طعاماً لأهل الصفة وللفقراء الآخرين.. هذا هو نهارهم سقاية.. وكدح.. بيع وشراء.. ثم صدقة طيبة يدخلون بها البسمة إلى قلوب إخوانهم المساكين.. فإذا جن الليل عليهم توجهوا إلى مدرسة الإسلام ومنبع ثقافته.. إلى المسجد.. يقرأون القرآن.. ويتدارسون العلم ويصلون.. لا تدري أهم علماء.. أم عمال، أم عباد، أم تجار؟... إنهم الحياة إذا رسمها القرآن ونفثت فيها السنة.. إنهم العطاء بكل أبعاده وأعماقه وآفاقه.. إنهم الأنصار.. ولا تعرف الدنيا للأنصار مثيلاً..

أما رسول الله ﷺ فقد انطلق من جديد.. يكثف الشعور بالمساكين والفقراء.

انطلق رسول الله ﷺ نحو الجميع بوحي جميلٍ وجديد.. وحي يجعل من الإحساس بالفقر والفقراء عبادةً جديدةً.. الإسلام من جديد يقدم للفقراء الهدايا والهبات والمشاعر.. فبعد أن مر شهر رجب من السنة الثانية.. وحل بعده شهر شعبان أصبح المؤمنون ينتظرون هذا الجديد الجميل الذي سيطل مع إطلالة هلال شهر رمضان القادم.. فرمضان هذه

(١) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، الإمارة.

السنة يختلف عن أي رمضان مضى.. لقد أمر الله سبحانه بـــ:

صيام شهر رمضان

وأنزل على نبيه ﷺ آيات بينات يقول فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾(1).

إذاً فالصيام كان مفروضاً على الأنبياء السابقين.. كان مفروضاً على اليهود.. وكان مفروضاً على النصارى.. لكنهم حرفوا فيه كما حرفوا الكتب التي جاء بها أنبياؤهم.. وزادوا ونقصوا كما فعلوا في التوراة والإنجيل.. فصار لكل طائفة صيام.. وتشكل الصيام وتنوع حسب أمزجة الأحبار والرهبان.. أما الآن فقد جاء محمد ﷺ.. وجاء رمضان.. وكتب الصيام من جديد.. فما هو هذا الصيام الذي ضيعه أهل الكتاب وأعاده الله طرياً بمحمد ﷺ؟.

ما هو الصيام

بدأ الصيام بـــ: ترك الطعام والشراب والجماع من بعد صلاة العشاء إلى غروب الشمس.. فكان المسلم يأكل ويشرب من بعد الغروب إلى أن يصلي العشاء.. فإذا صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب.

كما أن من نام في الليل ثم استيقظ في الليلة نفسها فلا يحل لـــه أن يأكل أو يشرب شيئاً حتى غروب شمس الغد..

(1) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٤.

هذا إذا كان المسلم سليم الجسم لا يشكو من أي مرضٍ.. وكان مقيماً في بلدته غير مسافر.. فإن كان مريضاً أو مسافراً فيجوز له أن يفطر لكن يجب عليه صيام الأيام التي أفطرها فيما بعد..

وقبل ذلك كله كان بإمكان أي مسلم سليماً كان أو مريضاً.. مقيماً كان أو مسافراً.. كان بإمكان أي مسلم أن يفطر ولا يقضي أي يومٍ أفطره لكن بشرط.. هذا الشرط هو أن يقوم المفطر بتقديم وجبة تشبع مسكيناً واحداً عن كل يوم أفطره.. لكن هذه الأحكام لم تدم.. لقد تغيرت ونسخت وجاءت بعدها:

أحكام جديدة في الصيام

وكان لهذه الأحكام الجديدة أسباب وقصص بعضها طريف وبعضها يتلوى من الجوع.. لكن الصيام لم يتغير.. ما زال هو: ترك الطعام والشراب وممارسة الزوجية.. فما هي هذه القصص:

البراء بن عازب رضي الله عنه يقص علينا إحداها ويحدثنا عن أهل بيت صاموا وصام معهم بيتهم الذي كان خالياً كبطون أهله.. ذلك البيت الذي لم يكن فيه ما يبل الريق أو يسد الجوع.. إنه باختصار صفة أخرى.. يقول البراء:

(إن أحدهم كان إذا نام قبل أن يتعشى لم يحل له أن يأكل شيئاً.. ولا يشرب ليلته ويومه من الغد حتى تغرب الشمس حتى نزلت: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ونزلت في أبي قيس بن عمرو، أتى أهله وهو صائم بعد المغرب فقال: هل من شيء؟ فقالت امرأته: ما عندنا شيء ولكن أخرج ألتمس لك

عشاء، فخرجت ووضع رأسه فنام، فرجعت إليه فوجدته نائماً، وأيقظته فلم يطعم شيئاً وبات وأصبح صائماً حتى انتصف النهار، فغشي عليه، وذلك قبل أن تنزل هذه الآية فأنزل الله فيه)[1].. وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود.. فقط ولم ينزل الله كلمة: (من الفجر) بعد قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.. في بداية الأمر مما جعل بعض الصحابة يخطئ في معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود فكانت هذه القصة الطريفة التي رواها الصحابي سهل بن سعد رضي الله عنه فقال: (أنزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.. ولم ينزل: (من الفجر)، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: (من الفجر) فعلموا أنما يعني الليل والنهار)[2].

أما القصة الأخرى فهي تتحدث عن قصر وقت الفطر وأنه مرهون بأداء صلاة العشاء.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو يتحدث عن قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.. فكان الناس على عهد النبي ﷺ إذا صلوا العتمة[3] حرم عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه فجامع امرأته وقد صلى العشاء ولم يفطر، فأراد الله أن يجعل ذلك يسراً لمن بقي ورخصة ومنفعة، فقال سبحانه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ

---

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح النسائي (٤٦٧/٢) وهو عند البخاري بلفظ آخر (١٩١٥).

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري (٤٥١١).

(٣) العشاء.

﴿أَنفُسَكُمْ﴾.. وكان هذا مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر[1] وجعل الأكل والشرب والجماع مباحاً حتى طلوع الفجر.. فيمتنع المسلم من الأكل والشرب و.. حتى يغيب قرص الشمس حيث قال ﷺ لأصحابه:

«إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[2].

أما عن الصوم الاختياري في أول الأمر فقد تغير وألغي كما قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.. كان من أراد منا أن يفطر ويفتدي فعل.. حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسختها)[3].

فما هي الآية التي بعدها والتي نسختها وغيرت كل الأحكام السابقة التي مرت معنا؟. هذه الآية هي في قوله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٤٠/٢).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١٢٧/١).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (صحيح أبي داود ٤٤١/٢).

﴿ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾(١)..

هذا هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.. والذي قال فيه ﷺ: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان.. وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان.. وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان.. وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان.. وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)(٢)..

شهر الكتب المنزلة التي ضاع بعضها.. وحرف بعضها.. ولم يبق منها سوى القرآن شاهداً لها.. شاهداً على أممها.. التي ضيعتها وحرفتها.. ورغم الصوم.. رغم الجوع والعطش لم يتحول هذا الشهر إلى شهرٍ للخمول.. ولم تتحول المدينة فيه إلى جدران يغط تحتها الصائمون..ويستندون كالكسل إليها وأعينهم إلى الشمس ينتظرون غروبها.. فالمدينة تعج بالحركة نهاراً.. وبالقيام والتهجد ليلاً.. بيوت المؤمنين في ليالي رمضان تشتعل بنور القرآن.. بالسجود والركوع والدموع.. في تلك الليالي كان هناك أنيناً صادراً من إحدى الحجرات في بيت من بيوت المدينة.. أنين قادم من الحبشة.. قادم من المعاناة.. وما كات تستقر به الأقدام بين حرات المدينة حتى كان موعده المحتوم مع المرض والآلام.. فلذة كبد رسول الله ﷺ وحشاشة جوفه هي تلك الأنين.. رقية بنت محمد ﷺ أقعدها المرض وأسهر زوجها عثمان بن

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٨٥-١٨٧.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (١/٣١٣).

عفان.. وآله..

رقية مريضة

هاجرت من مكة.. خاضت البحر فألقاها في الحبشة.. وخاضته مـــرةً ثانية فتهادى بها حتى وضعها بين يدي والدها العطوف الحنون.. وما كادت تتنشق هواء الحرية والأمن حتى أطاح بها المرض فهي طريحة الفراش والوجع في ذلك الشهر الكريم.. رسول الله ﷺ يزورها ويطمئن عليهـــا ويوصـــي زوجها الحزين بملازمتها.. رقية بضعة من رسول الله ﷺ.. والأمة أمانـــة.. والرسالة أمانة.. هموم تتداعى إلى قلبه ﷺ تتكتل أمام عينيه ولا بد لها مـــن حلول.. رقية مريضة.. وأهل الصفة جائعون.. والمهاجرون قد سُلبوا أموالهم وبيوتهم لينجوا بأنفسهم وإيمانهم من سياط الشرك وأهله.. وهنـــاك فرصـــة تلوح في الأفق لاسترجاع شيء مما سلبه الطواغيت منهم.. ترى هل يبقـــى ﷺ قرب ابنته الحبيبة.. أم سيركب إلى تلك الفرصة.. هكذا كانـــت ليـــالي رمضان الأولى في المدينة.. لكن كيف كانت ليالي رمضان في مكة.. سندع رسول الله ﷺ حتى يقرر ولنتسلل إلى مكة لنرى:

كيف كان ليل رمضان في مكة

إذا كانت أنسام الليل تحمل أنين رقية ودموعها.. فإن أنسام مكـــة تحترق بزفرات نساء ورجال مستعضفين.. يمنعهم الضعف مـــن البـــوح بتوحيدهم ودينهم وحبهم لنبيهم ﷺ.. أسرارهم كالجمر في صدورهم.. يرعبهم ليل مكة.. ويؤرقهم العيش بين الأصنام والشرك والمشركين الذي كان ليلهم خليطاً من الخمر والغطيط..

أنسام مكة تحترق بزفرات أخت رقية المريضة.. أختها الكبرى زينب

التي تتحرق شوقاً إلى أبيها.. إلى أخواتها الحبيبات.. فاطمة ورقية وأم كلثوم.. إنها لا تعلم شيئاً عنهم.. لا تدري هل ستلتقي بهم يوماً من الأيام أم لا.. ونبي الله ﷺ يشتاق إليها ويحبها ويثني عليها ويتمنى قربها وقدومها.. إنها أكبر بناته وقد عانت وعانت الكثير في سبيل الله.. إنها ابنة نبي لكنها زوجة رجل لا يزال على شركه.. رجل صادق ووفي اسمه: أبو العاص بن الربيع وهو شغوف بها ويحبها.. لكن شركه يخنق ليلها وأنفاسها.. فتاة مستضعفة مبتلاة.. وهموم تزدحم في صدر والدها عليها وعلى أختها وعلى كل مستضعف ومستضعفة.. هذا هو ليل زينب الحزينة.. وهذا هو ليل مكة المخيف الذي كان يحمل الفزع إلى إحدى البيوت.. إلى إحدى النساء التي كانت غارقة في نومها حتى انتشلها الفزع وانتشلها فارس الأحلام..

فارس الأحلام أتاها.. لا ليحملها بين ذراعيه.. بل ليدك بيوت قومها.. فارس الأحلام هذا مخيف ومرعب.. يقفز في الهواء.. فوق الكعبة والجبال.. يحرك الصخور.. يصيح بأهلها.. صوته مخيف.. يتوعد بالموت والشظايا.

تلك المرأة المفزوعة لم تكن بعيدة من زينب بنت نبي الله ﷺ.. إنها من أقرب الناس إليها... وتعيش بالقرب منها.. امرأة من صلب قريش.. إنها ابنة عبد المطلب.. وعمة رسول الله ﷺ واسمها: عاتكة بنت عبد المطلب.. فهل يا ترى ستكون رؤياها كرؤيا والدها الذي غاص في الأعماق وحفر زمزم.. أم أن فارس القمم الذي رأته في منامها سيدمدم ما تبقى لقريشٍ من آبار تنضح بالشرك..

تلك الرؤيا حولت مكة إلى غبار وضجيج ونزاع وتشاتم.. سنخيم

على بيت عاتكة لننظر ما يحدث في منامها:

رؤيا
عاتكة بنت عبد المطلب

(كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ساكنة مع أخيها العباس بن عبد المطلب.. فرأت رؤيا قبيل بدر ففزعت.. فأرسلت إلى أخيها عباس من ليلتها حين فزعت واستيقظت من نومها.. وقالت:

رأيت رؤيا وقد خشيت منها على قومك الهلكة.. قال: وما رأيت؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أن لا تذكرها.. فإنهم إن سمعوها آذونا فأسمعونا ما لا نحب.. فعاهدها عباس.. فقالت:

رأيت راكباً أقبل على راحلته من أعلى مكة يصيح بأعلى صوته:

يا آل غدر.. ويا آل فجر.. اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث.. ثم دخل المسجد على راحلته.. فصرخ في المسجد ثلاث صرخات ومال إليه من الرجال والنساء والصبيان.. وفزع الناس له أشد الفزع.. ثم أراه مَثُلَ على ظهر الكعبة على راحلته[1].. فصاح ثلاث صرخات:

يا آل غدر.. ويا آل فجر.. اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث.. حتى أسمعَ من بين الأخشبين[2] من أهل مكة.. [ثم إن بعيره مَثُلَ به على رأس أبي قبيس[3] فقال: انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث] ثم عمد لصخرة عظيمة فنزعها من أصلها.. ثم أرسلها على أهل مكة..

(١) قفز بعيره الذي يركبه على ظهر الكعبة.

(٢) جبلان يحيطان بمكة. أي سمعه الناس الذين يسكنون بين هذين الجبلين.

(٣) اسم جبل. أي قفز به بعيره على رأس ذلك الجبل.

فأقبلت الصخرة لها دوي حتى إذا كانت عند أصل الجبل أرفضت[1].. فلا أعلم بمكة بيتاً ولا داراً إلا قد دخلها فلقة من تلك الصخرة..

فقد خشيت على قومك أن يترل بهم شر.. ففزع منها عباس وخرج من عندها فلقي من آخر ليلته الوليد بن عتبة بن ربيعة -وكان خليلاً للعباس- فقص عليه رؤيا عاتكة وأمره أن لا يذكرها لأحد.. فذكرها الوليد لأبيه.. وذكرها عتبة لأخيه شيبة.. وارتفع حديثها حتى بلغ أبا جهل بن هشام واستفاضت.. فلما أصبحوا غدا عباس يطوف بالبيت حتى أصبح.. فوجد أبا جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود وأبا البختري في نفر يتحدثون.. فلما نظروا إلى العباس يطوف بالبيت ناداه أبو جهل:

يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فآتنا.. فلما قضى طوافه أتى فجلس فقال أبو جهل:

يا أبا الفضل.. ما رؤيا رأتها عاتكة؟ قال: ما رأت من شيء.. قال: بلى.. أما رضيتم يا بني هاشم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء.. إنا كنا وأنتم كفرسي رهان[2].. فاستبقنا المجد منذ حين.. فلما تحاذت الركب قلتم: منا نبي[3].. فما بقي إلا تقولوا: منا نبية.. لا أعلم في قريش أهل بيت أكذب رجلاً ولا أكذب امرأة منكم..

فآذوه يومئذٍ أشد الأذى.. وقال أبو جهل:

---

(١) تفرقت: أي تطايرت متحولة إلى حجارة صغيرة وشظايا عند أسفل الجبل.

(٢) أي كالمتسابقين إلى هدف.

(٣) يقول هذا الطاغوت: إنكم يا بني هاشم ادعيتم النبوة كذباً عندما تساوينا وإياكم في الشرف والمجد حتى تتغلبوا علينا.

زعمت عاتكة أن الراكب قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث.. فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت لقريش كذبكم وكتبنا سجلاً.. ثم علقنا بالكعبة أنكم أكذب بيت في العرب رجلاً وامرأة)[١].

يقول العباس [فوالله ما كان إليه مني من كبير إلا أني أنكرت ما قالت فقلت: ما رأت شيئاً ولا سمعت بهذا.. فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقلن:

أصبرتم لهذا الفاسق[٢] الخبيث أن يقع في رجالكم.. ثم تناول النساء وأنت تسمع فلم يكن عندك في ذلك غيرة.. فقلت:

قد والله صدقتن وما كان عندي في ذلك من غيرة إلا أني قد أنكرت ما قال.. فإن عاد[٣] لأكفينه..

فقعدت في اليوم الثالث أتعرضه ليقول شيئاً فأشاتمه.. فوالله إني لمقبل نحوه.. وكان رجلاً حديد الوجه.. حديد النظر.. حديد اللسان.. إذ ولى نحو باب المسجد يشتد.. فقلت -في نفسي-: اللهم العنه كلَّ هذا فرقاً[٤] أن أشاتمه.. وإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو وهو واقف على بعيره بالأبطح.. قد حول رحله وشق قميصه وجدع بعيره[٥] يقول:

(١) انظر تخريجه في نهاية القصة.

(٢) المقصود هو أبو جهل.

(٣) المقصود هو أبو جهل.

(٤) خوفاً.

(٥) أي قطع أنفه تعبيراً عن هول الكارثة التي حلت بقريش.

يا معشر قريش.. اللطيمة.. اللطيمة.. أموالكم مـع أبي سـفيان.. وتجارتكم قد عرض لها محمد وأصحابه.. فالغوث.. الغوث.. فشغله ذلك عني.. وشغلني عنه.. فلم يكن إلا الجهاز حتى خرجنا][1].

لقد ثارت قريش وهاج الكفر كله..

فماذا أصاب القوم حتى صاروا كالمجانين..

لقد تحققت رؤيا عاتكة.. وصدقت.. وكذب أبـو جهـل وطـار عقله..

وطار عقل أمية وصوابه.. فما الذي حدث.. وماذا فعل رسول الله ﷺ بأبي سفيان وقافلته هذه.. لقد كنا في المدينة عند رقية حيث كان بيتها ساكناً إلا من أنينها.. حيث كانت المدينة ساكنة بالإيمـان.. فما الذي كان يخطط له رسول الله ﷺ والناس نائمون.. سنعود إلى المدينة حيث ترقد رقية.. هاهي طريحة الفراش والألم.. وهذا هو عثمان بقربها

---

(١) هذا الخبر حسن بطرقه... وهو عند الطبراني (٣٤٦/٢٤): ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير... وهذا مرسل وابن لهيعة فيه ضعف.. لكن الرواية ثابتة عن عروة عند ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة.. ويزيد هو مولى لآل الزبير وهو ثقة. انظر التقريب... كما رواها ابن إسحاق بسند متصل فقال: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس:... وقد صرح ابن إسحاق باسم شيخه الذي وثقه فقال: حدثنا حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة.. عن ابن عباس.. ورغم أن رواة السند كلهم من بيت العباس بن عبد المطلب إلا أن حسيناً هذا ضعيف.. لكن روايته تتقوى بمرسل عروة.. انظر البيهقي في الدلائل (٢٩/٣) والقصة عند الطبراني أيضاً من طريق عبد العزيز ابن عمران. حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عن عاتكة... وإذا كان عبد العزيز قد توبع عند ابن منده فإن شيخه ضعيف أيضاً وبقية الرواة ثقات... والقصة حسنة بهذه الطرق...

ينظر إلى حبيبته وردة تذبل يوماً بعد يوم.. تذبل ألماً بعد ألم.. لقد عادها أبوها ﷺ قبل أيام ورأى ما بها وأوصى عثمان الحزين بالمكوث عندها ثم ودعها بعد أن ألقى عليها نظرة الوالد المحب الحاني.. وودعته بعينين حزينتين.. كأني بعينيها تغرقان بالدموع.. تتعلقان بهذا الوالد الذي لا يستطيع البقاء عندها.. ولا يملك لها سوى الدعاء.. استودعها الله وتركها.. ومرارة الوداع في حلقها وقلبها.. ومرارة الوداع في كلماته لعثمان.. وعثمان صابر محتسب.. يفوته الخروج مع حبيبه ﷺ فيصبر.. وقد تفوته رقية وترتحل عنه.. أي ليلٍ سيخيم على عثمان.. رسول الله ﷺ أكثر صبراً واحتساباً.. ابنة في مكة لا يستطيع رؤيتها.. حبيسة الشرك.. وابنة حبيسة المرض.. وأصحاب معدمون يتزاحمون في صفة مليئة بالجوع.. وقريش تسرح وتمرح وتتاجر بأموال أصحابه.. وأمة تحتاج إلى قائد يحملها إلى المستقبل.. وإلى تلك الفرصة..

قدم ﷺ حاجة أمته على حاجته.. ومصلحتها على هموم أسرته فخرج.. لكن إلى أين..؟ هذا أنس بن مالك يسير مع رسول الله ﷺ سنعرف منه ما حدث.. إنه يتكلم فلننصت إليه:

الخروج وأسبابه

يقول أنس رضي الله عنه:

(بعث رسول الله ﷺ بسيسة عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان.. فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ [١])[٢]..

(١) قال الراوي بعد هذه الكلمة: لا أدري ما استثنى بعض نسائه.. أي أن بعض نسائه كانت عنده ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

ذهب الصحابي المدعو «بسيسة» في مهمة حددها ﷺ.. وهي تحسس أخبار القافلة القرشية القادمة من الشام نحو مكة والتي يقودها أبو سفيان بن حرب.. وتحديد طريق سيرها.. وأتم بسيسة مهمته كما ينبغي.. ثم عاد إلى رسول الله ﷺ (فحدثه الحديث.. فخرج رسول الله ﷺ.. فتكلم فقال:

إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في علو المدينة، قال: لا، إلا من كان ظهره حاضراً)[1].

جاء أبو بكر.. وجاء عمر.. وجاء علي.. أما عثمان فاستبقاه رسول الله ﷺ بالمدينة وأمره بالمكوث.. وجاء بقية الصحابة من المهاجرين والأنصار.. وجاء عمر بن الخطاب بابنه الصغير عبد الله فتأمله ﷺ فوجده طفلاً فأعاده مكسور الخاطر بعد أن كان يحلم بخطوات يسيرها في دروب البطولة والشهادة..

وجاء طفل آخر اسمه البراء بن عازب.. فأعاده ﷺ أيضاً.. فراح فيما يتحدث إلى من حوله عن تلك الرفقة العظيمة ويصفها بالإيمان ويتمنى لو سار معها فيقول:

(استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر.. وكنا -أصحاب محمد- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر.. كعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر.. وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[2].

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومعه فتى صغير اسمه عمير..

إنه أخوه وهو شجاع مثله.. لكنه كان خائفاً مضطرباً..

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(٢) حديث صحيح. رواه البيهقي (٣/٣٦) وهو عند البخاري بلفظ آخر... انظر البخاري (٣٩٥٥، ٣٩٥٦، ٣٩٥٧، ٣٩٥٨، ٣٩٥٩).

بل لقد بكى.. فكيف يكون شجاعاً وكيف يرغب في الشهادة وقد انتابه الخوف والبكاء.. تلك قصة عجيبة رويت عن أخيه سعد حيث يقول:

(رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ بدر يتوارى.. فقلت:

مالك يا أخي؟ قال:

إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني، فيردني وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة..

[فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره.. فقال: ارجع.. فبكى عمير فأجازه رسول الله ﷺ] فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره)[1] كأني بسعد يعقد سيور سيفه لأخيه ويبتسم.. فيبتسم عمير لمن حوله وللجنة.. قصة مؤثرة ودموع من أجل الشهادة.. وشاب ملأت الجنة روحه وجوانحه.. إنها حال الشباب في أي زمان ومكان تحل فيهما قيادة إسلامية صافية ومخلصة.. لقد اجتاز عمير بن أبي وقاص آخر العقبات في حياته وها هو أمام بوابة مشرعة على الخلود.. عمير من ثمار الرسول ﷺ.. عمير وغيره.. انظروا إلى هذين.. إنهما صديقان يكبران عميراً بقليل.. أسدان اسم أحدهما: معاذ بن عمرو بن الجموح واسم الآخر: معاذ بن عفراء..

(١) ما أريده من هذه القصة هو ما بين المعقوفين أما ما كان خارجهما فسنده ضعيف لأنه من طريق الواقدي كما في الإصابة -ترجمة عمير- وعند ابن سعد (١٤٩/٣) وما بين المعقوفين عند الحاكم (٤٧/٣) من طريق يعقوب الزهري أخبرنا إسحاق بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن جعفر عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن عامر بن سعد عن أبيه.. وهذا السند صحيح ورجاله ثقات لولا أوهام يعقوب بن محمد الزهري وهو صدوق لكنه لم ينفرد فقد تابعه شيخ البزار في روايته (كشف الأستار ٣٥١/٢) واسمه محمد بن قيس. ولعله توبع أيضاً عند البغوي فقد روى الحديث كما قال الحافظ في الإصابة.

وعلى أحد الأبواب وفي بيت من أبيات المدينة.. كانت الدموع وكان الوداع والعناق بين شاب وأمه.. ولك أن تتخيل ما تشعر به أم وهي تفارق ابنها.. تودعه وهي لا تدري هل سيعود إليها أم أنها بعثت به إلى الموت.. وبعثت بنفسها إلى الحزن والحداد.. أم الربيع بنت النضر -عمة أنس بن مالك.. وأخت الأسد الهصور: أنس بن النضر- تودع ابنها الذي يرتع في قلبها.. تودع ابنها الحارث[1] بن سراقة وداعاً حاراً باكياً.. لكنها الجنة فليذهب الحارث إلى الجنة من أي طريق شاء..

وهناك فارس آخر.. ربما كان يشتري بعض التمر.. ربما كان قبل قليل بين النخيل يخترف منها.. وربما غير ذلك.. لكنه كان يضع بعض التمرات في جيبه.. ولما سمع النداء هب مسرعاً لنداء الله ورسوله ﷺ إنه.. عمير بن الحمام[2].. اجتمع هؤلاء وغيرهم حول نبي الله ﷺ فكانت المشورة وحرية الرأي قبل الانطلاق.

المشورة قبل الانطلاق

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لإخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى

---

(١) سيأتي الحديث عن هذين الصحابيين رضي الله عنهما فيما بعد كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

(٢) سيأتي الحديث عن هذين الصحابيين رضي الله عنهما فيما بعد كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

برك الغماد لفعلنا. فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا)[1] ولئن كانت المشورة قبل الانطلاق فقد كان هناك:

سرية في الانطلاق

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر)[2] دون ضوضاء دون أجراس وضجيج انطلـــق ﷺ وصحابته.. وسمح ﷺ بالانطلاق معه لمن ليس معه راحلة وأمر ﷺ بالاشتراك والتناوب بين الاثنين والثلاثة على الراحلة الواحدة.. فامتثل الجميع وتحركوا نحو تلك القافلة مسرعين.. يطوون الأرض طياً.. وفي طريقهم يرون راكبـــاً يسابق الريح إليهم فيلحق بهم.. ماذا حدث هل هو عثمان بن عفان جـــاء ليخبر رسول الله ﷺ أن ابنته زينب اشتد بها المرض.. أم هو رجل لم يعلم إلا متأخراً فلحق بهم بعد أن علم بالأمر؟.. ليس هـــذا ولا ذاك..إنـــه رجـــل مشرك... لكن فيه من الشهامة والرجولة الشيء الكثير... إنه يمتطي راحلته وشهامته.. ويتجه بهما نحو رسول الله ﷺ يكلمه ثم يرد عليه ويسير ﷺ.. ثم يكلمه مرة أخرى فيرد عليه ثم يسير ﷺ ويتركه.. فمن هذا الرجـــل ولمـــاذا تركه ﷺ في مكان يقال له: حرة الوبِرة: تقول عائشة رضي الله عنها:

---

(١) سنده صحيح. رواه أحمد (سيرة ابن كثير ٣٩٤/٢) وروى مسلم نحوه.. وســـند أحمـــد صحيح متصل رجاله أئمة ثقات هم... عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس.

(٢) سنده صحيح. رواه أحمد (١٥٠/٦) والنسائي وغيرهما (سيرة ابن كـــثير ٣٨٩/٢):... سعيد بن أبي عروبة وسعيد بن بشر والصواب: سعيد بن بشير عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة وقد خالفهما هشام فرواه عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة ومع احتمال التعدد إلا أن سعيداً رغم كونه مدلساً فإنه أثبت النـــاس في قتـــادة وشيوخه ثقات. التقريب (٢٥٩/١) و (٢٨٩/١).

(خرج رسول الله ﷺ قبل بدر فلما كان بحرة «الوبرة» أدركه رجل يذكر منه جرأة ونجدة.. ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ:

«جئت لأتبعك وأصيب معك».

قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟

قال: لا.

قال ﷺ: «فارجع فلن أستعين بمشرك».. ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة.. فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة.. قال: فارجع فلن أستعين بمشرك..

ثم رجع فأدركه بالبيداء.. فقال له كما قال أول مرة:

تؤمن بالله ورسوله؟

قال: نعم.

فقال له رسول الله ﷺ: فانطلق)[1] فانطلق الرجل مع النبي ﷺ وأصحابه مسلماً بعد أن دفن الشرك وأهله بالبيداء.. ورفرف مع شجاعته ونجدته في أجواء التوحيد الطاهرة الفسيحة..

وواصل المسلمون سيرهم نحو القافلة.. لكن مشكلة وقعت.. وأمراً خطيراً لم يحسب له المسلمون حساباً.. لقد علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ. لكن كيف؟

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١٨١٧).

كيف علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم:

(لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام.. ندب المسلمين وقال:

هذه عير قريش فيها أموالهم.. فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.. فانتدب الناس.. فخف بعضهم.. وثقل بعضهم.. وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً.. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك.. فحذر عن ذلك.. فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري.. فبعثه إلى مكة.. وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه.. فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة)[1] .. ووصل إلى مكة.. وسمعت قريش (صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي.. واقفاً على بعيره قد جدع بعيره.. وحول رحله.. وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش..

اللطيمة.. اللطيمة.. أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه.. لا أرى أن تدركوها.. الغوث.. الغوث..)[2].

---

(١) رواه ابن إسحاق ومن طريقه رواه الطبري (١٨٢/٦) من طريقين الأول مرسل عروة وهو صحيح إلى عروة... والثاني عن ابن عباس لكنه لم يذكر أسماء شيوخه وهم جمع... ويشهد له ما بعده.

(٢) حديث حسن. مر معنا عند الحديث عن رؤيا عاتكة وهو جزء من حديث الرؤيا.

وتجمعت قريش حول هذا المشهد الفاجعة.. وصرخت بوجه ضمضم ابن عمرو تسأله عن تفاصيل أكثر.. وثارت مكة.. وارتجت.. وتعالى الضجيج.. وسلت السيوف.. واحتقن الطواغيت.. طواغيت قريش كلهم.. كلهم إلا واحداً أذهله الخبر فأصيب بالهلع إنه لا يدري ما يفعل وكيف يتصرف.. إنه يرتجف ويرتجف.. يهرول مسرعاً إلى مترله.. وعندما يصل لا يبحث عن سلاح ولا يفتش عن درع ورمح.. إنه خائف جداً ويكاد يموت من الخوف.. لم يكن ذلك الخوف بسبب تجارة له مع أبي سفيان يخشى أن يفقدها.. الأمر أشد وأخطر.. إنه يحس بدنو أجله.. إنه يرى في كل شبر خارج مكة قبراً مشرعاً ينتظره.. إنه أمية بن خلف.. وهو لا يستطيع التفريق بين من يقول: الغوث.. الغوث.. ومن يقول: الموت.. الموت..

كأني به وهو يستمع إلى صراخ ضمضم قد تذكر صراخ سعد بن معاذ في ذلك اليوم المشئوم عندما كان سعد بن معاذ في نزاع مع أبي جهل لأن أبا جهل يرفض أن يطوف سعد بالكعبة وهو من أنصار محمد ﷺ.. وعندما حاول أمية إسكات سعد بن معاذ رضي الله عنه.

بشره سعد بنهاية تصطك لها الركب.. بشره سعد وقال له:

(دعنا منك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

إنه قاتلك.. قال أمية:

بمكة؟.. قال سعد:

لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال:

يا أم صفوان، ألم تري إلى ما قال لي سعد..؟ قالت: وما قال لك..؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلي.. فقلت له: بمكة؟.. فقال: لا أدري.. فقال أمية:

والله لا أخرج من مكة)[1].. واليوم قد حان وقت خروج قريش.. ولن يتخلف أحد.. فهل سيتخلف سيد من ساداتها.. وما هو عذره.. هل سيقول لهم: إنه خائف.. هل سيقول لهم: إن محمداً صادق في قوله ووعده.. حائر أمية .. حائر.. يلتفت إلى امرأته يحدثها..

أنه قد (جاء الصريخ.. قالت له امرأته:

أما علمت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال أمية:

فإني لا أخرج)[2].. لقد قرر أمية البقاء ففي الخروج سفر إلى الموت على يد محمد ﷺ وأصحابه.. لكن هل سيتركه أبو جهل ينعم بالبقاء.. لا أظن ذلك.. فأبو جهل الآن كالمجنون.. يجول في شوارع مكة.. يثير الغبار في أزقتها.. يطرق أبوابها.. لن يتركه أبو جهل ينعم بالطعام والشراب والرقاد وهم يواجهون الموت.. لقد (استنفر أبو جهل الناس فقال:

أدركوا عيركم.. فكره أمية أن يخرجه.. فأتاه أبو جهل.. فقال:

يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك.. فلم يزل به أبو جهل حتى قال:

أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بعيرٍ بمكة.. ثم قال أمية:

يا أم صفوان جهزيني.. فقالت له:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي (٣/٢٧).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٢٦).

يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال:

لا.. ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.. فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره فلم يزل بذلك)[1] كلما نزل منزلاً عقل بعيره السريع تأهباً للهرب.. لم يزل كذلك خائفاً يرى الموت خلف الصخور وبين الشجر.. يرى الموت يسيل في الوادي.. يرى الموت مقبلاً مع السحاب.. وفي المساء يرى الظلام عباءة يرتديها الموت.. والنجوم عيون تحدق به.

مضوا خلف أبي جهل مصطحبين المغنيات والخمر والموت حتى وصلوا إلى أرض بين مكة والمدينة يقال إنها كانت (موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام)[2] واسم هذه الأرض:

بدر

وقد قرر أبو جهل ومن معه تحويل أرضها إلى ساحة لاحتفال صاخب.. سيجعلون أرض بدر خمراً ونساءً.. ورقصاً ومقابر لمحمد وأصحابه.. سيجعل أبو جهل من تلك الأرض احتفالاً غير عادي.. احتفالاً لقريش وحدها.. في موعد هو الذي يحدده.. وقد وصف الله عز وجل ذلك الخروج وتلك الغطرسة بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[3].

مضت الجموع.. ومضى معهم أمية.. وخيم شبح الموت على كل شبرٍ يسير إليه.. إنه الآن يتوقع خروج رسول الله ﷺ أو بعض صحابته في أية لحظة ومن أي مكان ليقتلوه.. إنه ليتساءل.. ترى:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠).

(٢) تفسير الطبري (تفسير سورة الأنفال).

(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٧.

أين محمد

أجل أين رسول الله ﷺ؟

لقد (خرج رسول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلغ وادياً يقال له: «ذفران» فخرج منه.. حتى إذا كان ببعضه نزل..] وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم.. فاستشار النبي ﷺ الناس.. وأخبرهم عن قريش)[1].

لكن كيف علم ﷺ بخروج قريش.. كيف عرف عددهم.. ولماذا يستشير أصحابه مرة أخرى وهم قد وافقوا على الخروج معه عندما كانوا في المدينة.. لنبدأ بالأمر الأول.

كيف علم ﷺ بخروج قريش

يقول أحد الصحابة المشاركين بتلك الأحداث وهو أنس بن مالك:

(إن رسول الله ﷺ ندب أصحابه فانطلقوا إلى بدر.. فإذا هم بروايا قريش فيها عبد أسود لبني الحجاج.. فأخذه أصحاب رسول الله ﷺ فجعلوا يسألونه: أين أبو سفيان؟

فيقول: والله ما لي بشيء من أمره علم.. ولكن هذه قريش قد جاءت فيهم أبو جهل وعتبة بن شيبة ابنا ربيعة.. وأمية بن خلف..

فإذا قال لهم ذلك ضربوه.. فيقول: دعوني.. دعوني أخبركم.. فإذا تركوه قال: والله ما لي بأبي سفيان علم.. ولكن هذه قريش قد أقبلت..

(١) حديث حسن. دون ما بين المعقوفين. رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل وهو ضعيف إلا ما كان له شواهد تقويه.

فيهم أبو جهل.. وعتبة وشيبة ابنا ربيعة.. وأمية بن خلف قـــد أقبلـــوا.. والنبي ﷺ يصلي -وهو يسمع ذلك- فلما انصرف[1] قال:

«والذي نفسي بيده إنكم لتضـــربونه إذا صـــدقكم وتدعونـــه إذا كذبكم، هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان»[2].

هكذا علم رسول الله ﷺ بمقدم قريش وطواغيتها.. كان الأمر خطيراً وعصيباً جداً.. ولا بد لنبي الله ﷺ من أن يعيد حساباته من جديد.. لا بد من معرفة حجم الخطر القادم وهل في الإمكان مواجهته أم أن في مواجهته تهوراً ولا بد من الانسحاب للحفاظ على صفوة الأمة ونواتها.. ما غاب ذلك عن رسول الله ﷺ و لم يغب.. حوار قصير بين رسول الله ﷺ وبـــين ذلك الغلام المشرك.. دون ضرب أو تعنيف أو إكراه.. دون ســـياط أو حبال.. ثم انتهى كل شيء.

كيف عرف ﷺ عدد قريش

يتحدث عن ذلك بطل آخر من أبطال الإسلام وشبابه.. علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول:

(كان النبي ﷺ يتخبر عن بدر.. فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار الرسول ﷺ إلى بدر -وبدر بئر- فسبقنا المشركون إليها فوجـــدنا فيهـــا رجلين منهم.. رجلاً من قريش.. ومولى لعقبة بـــن أبي معـــيط.. فأمـــا القرشي فانفلت.. وأما مولى عقبة فأخذناه.. فجعلنا نقول له:

كم القوم؟ فيقول: هم -والله- كثير عددهم.. شديد بأسهم.

---

(١) انصرف من صلاته: انتهى والانصراف يعني أيضاً: التسليم.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم وأبو داود واللفظ له (صحيح أبي داود ٢٣٣٢).

فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ..

فقال له: كم القوم؟ فقال:

هم -والله- كثير عددهم.. شديد بأسهم.. فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم.. فأبى.. ثم إن النبي ﷺ سأله كم ينحرون من الجزور[1]..

فقال عشراً كل يوم..

فقال رسول الله ﷺ: القوم ألف.. كل جزور لمائة)[2].

بذكائه توصل ﷺ إلى عدد قريش.. لكن كم كان:

عدد الصحابة

إذا كانت قريش ألفاً فإن ذلك الطفل الذي منعه الرسول ﷺ من الخروج لصغر سنه.. يحدثنا عن عدد المسلمين.. البراء بن عازب رضي الله عنه يقول:

(استصغرت أنا وابن عمر يوم بدرٍ وكنا -أصحاب محمد- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشرٍ.. كعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر.. وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[3] لقد كان امتحاناً صعباً لطالوت ومن معه.. وهاهو امتحان آخر لأصحاب رسول الله ﷺ..

---

(١) الإبل.

(٢) حديث صحيح. رواه البيهقي (٣/٤٢) وحمد (٢١/٣١ الفتح الرباني): إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حارثة عن علي وهذا السند صحيح: إسرائيل ثقة وهو حفيد شيخه وسماعه منه قبل الاختلاط، وجده تابعي ثقة (التقريب ١/٦٤) وهما من رجال الشيخين... أما حارثة بن مضرب فهو تابعي كبير وهو ثقة (التقريب ١/٦٤).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣/٣٦).

إنهم ثلاثمائة وبضعة عشر فقط.. وهؤلاء الثلاثمائة إذا نظرت إليهم باحثاً عن خيل يركبونها.. لم تجد سوى فرسين.. يقول علي رضي الله عنه:

(ما كان معنا إلا فرسان.. فرس للزبير.. وفرس للمقداد بن الأسود)[1].

ثلاثمائة ليس معهم إلا فَرَسَان.. فماذا عن البقية.. إنك لو نظرت مرة أخرى إليهم.. لنظرت إلى مشهد خلاب.. رغم الفقر والحفاء والعوز.. لن تجد أحداً يسير على قدميه كلّ الطريق.. ولن تجد أحداً يركب كل الطريق.. كانت قافلةً من القلوب والمشاعر قادها ﷺ إلى بدر..

عبد الله بن مسعود أحد تلك القلوب التي تخفق بالإيمان والإيثار والنظام يقول رضي الله عنه وعنهم:

(كنا يوم بدرٍ كل ثلاثةٍ على بعير.. كان أبو لبابة وعليّ زميلي رسول الله ﷺ.. فكانت إذا حانت[2] عقبة رسول الله ﷺ يقولان له: نحن نمشي عنك.. فقال:

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي (٣/٣٩): أخبرنا أبو عبد الله، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا ابن وهب، وأخبرني أبو صخر عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال... وهذا السند حسن: أبو معاوية البجلي... صدوق من رجال مسلم (التقريب ٢/٨) واسمه: عمار بن معاوية الدهني، وأبو صخر هو: حميد بن زياد بن أبي المخارق (التهذيب ٣/...) من رجال مسلم وهو حسن الحديث إذا لم يخالف، وتلميذه ابن وهب إمام معروف وهو عبد الله بن وهب القرشي بالولاء، وتلميذه إسماعيل هو شيخ الإسلام الحافظ شيخ المالكية وعالمهم في العراق كما قال الذهبي في التذكرة (٣٢٥) وتلميذه هو مسند بغداد البغوي (التذكرة ٨٨٩).

(٢) إذا جاء دور الرسول ﷺ في المشي.

ما أنتما بأقوى مني.. ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[1].

رسول الله ﷺ يقطع المسافات مشياً رغم وجود من يبذل روحه فداءً لتلك الخطوات الشريفة.. لكن رسول الله ﷺ يعلم أصحابه.. ويطمع مثلهم بالأجر من عند الله.. يشفق على أصحابه ويرأف بهم.. ويحنو عليهم.

لقد رق لمنظرهم وهم يتعاقبون.. ورق لحالهم وهم يتساقطون من التعب والجوع وطول السفر.. فاتجه إلى أرحم الراحمين يستمطره رحمة لهؤلاء المساكين.. ابتهل... لهج بقلبه ولسانه وقال:

(اللهم إنهم عراة فاكسهم.. اللهم إنهم جياع فأشبعهم)[2].

دعاء يقطر رحمةً وشفقة.. وحالة أصحابٍ يرثى لها.. وظرف صعب يفاجئ القافلة المؤمنة.. وعدو كشر عن أنيابه وسيوفه وحقده.. ومع ذلك كله لم تخف القلة المؤمنة و لم ترتجف.. لكن هناك من كره لقاء قريش بهذا الاستعداد الضعيف.. فما للقتال خرجوا.. وما لهذه الجموع احتسبوا.. لقد خرجوا يريدون مالاً لهم في قافلة.. فصاروا أمام جيش متأهب

---

(١) إسناده حسن. رواه أحمد (١/٤١١ – ٤١٨ – ٤٢٢- ٤٢٤) من طريق حماد بن سلمة حدثنا عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود... وهذا السند صحيح لولا عاصم ابن أبي النجود فهو حسن الحديث إذا لم يخالف... التقريب (١/٣٨٣) وهو من رجال الشيخين وزر ثقة جليل مخضرم من رجال الشيخين (التقريب ١/٢٥٩).

(٢) سنده حسن. رواه البيهقي (٣/٣٨) وأبو داود (٢٧٤٧): ابن وهب حدثنا حيي عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص... ابن وهب إمام مر معنا، وحيي حسن الحديث إذا لم يخالف وهو قوي الحديث إذا روى عنه ثقة... والحبلي من رجال مسلم وهو ثقة واسمه: عبد الله بن يزيد المعافري.

لأخذهم.. لقد كرهوا ذلك خوفاً على دولتهم الفتية.. على رسولهم أن تناله أيدي المشركين ورماحهم..

لقد وصف الله سبحانه تلك المشاعر فقال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾[1].

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: (تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد)[2].

لقد رأى ﷺ في وجوه الصحابة العزم والشجاعة.. ورأى في وجوه البعض الشجاعة والكراهية معاً.. وذلك لعدم الاستعداد وقلة العدد والعدة.. رأى خوفهم عليه وعلى دينهم ودولتهم.. فتوقف ﷺ لـ:

المشورة الثانية

(خرج رسول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلغ وادياً يقال له «ذفران» فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل،] وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضوان الله عليه فقال وأحسن.. ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن.. ثم قام المقداد بن عمرو، فقال:

يا رسول الله.. امض إلى حيث أمرك الله فنحن معك والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٥، ٦.

(٢) حديث صحيح طويل. رواه البخاري (٤٤١٨).

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.. [فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه][2].. (لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ ولكن نقاتل عن يمينك.. وعن شمالك وبين يديك... وخلفك..

قال ابن مسعود: فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره)[3].

لقد تأثر ابن مسعود بما قاله المقداد وتمنى في تلك اللحظات لو كان هو صاحب تلك الكلمات.. ولم يستطع ابن مسعود أن يكتم ذلك في نفسه، لقد صرح به فيما بعد فقال:

(شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به)[4] أما رسول الله ﷺ فبعد أن رأى تلك العواطف الجياشة تمتد أمامه.. وعن يمينه وعن شماله وتحميه من خلفه.. بعد أن رأى الفداء يظلله كالحب كالغمام.. صاح مرة أخرى بالفئة المؤمنة.

---

(١) قال الراوي: مدينة الحبشة.

(٢) حسن. رواه ابن إسحاق وقد مر معنا.. وقد صرح بالسماع من شيوخه الثقات: الزهري، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان.. وهؤلاء الثقات أخذوه عن شيخهم الإمام عروة بن الزبير ورواه شيوخ غيرهم عن ابن عباس لكن هؤلاء الشيوخ غير معروفين والحديث يشهد له ما قبله من الأحاديث وما بعده عدا ما بين المعقوفين فلم أجد له شاهداً. والحديث جزء من حديث بدر الطويل وهو ضعيف إلا ما كان له شواهد.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

فتنبه أحد الأنصار لهذا النداء المتكرر.. وفهم مراد رسول الله ﷺ.. لقد تحدث أبو بكر وعمر وتحدث المقداد.. ومع ذلك كله ينتظر رسول الله ﷺ رأياً آخر له في نفسه وزن لا يقل عن تلك الآراء السابقة..

كان ﷺ (يريد الأنصار.. وذلك أنهم كانوا عدد الناس.. وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا:

يا رسول الله.. إنا براء من ذمامك[1] حتى تصل إلى ديارنا.. فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا.. نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه[2] بالمدينة من عدوه.. وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ:

لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: أجل.. قال:

فقد آمنا بك وصدقناك.. وشهدنا أن ما جئت به هو الحق.. وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة.. فامض يا رسول الله لما أردت.. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.. ما تخلف منا رجل واحد.. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً.. إنا لصُبُر عند الحرب.. صُدُق عند اللقاء.. لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك.. فسر بنا على بركة الله... فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد.. ونشطه ذلك)[3].

---

(١) الذمام: الحرمة.

(٢) هاجم المدينة.

(٣) هو بقية حديث ابن إسحاق الطويل وله شاهد عند ابن مردوديه من طريق محمد بن عمرو =

وجاءت البشرى من الله..

وأنزل الله كلامه وعداً صادقاً لا يتـــأخر.. وأمنـــاً يمـــلأ الأجـــواء والصدور.. فأزال بقايا الخوف.. وطهر به القلوب المؤمنة.. نزل جبريـــل بقوله الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾.

والشوكة هي جيش قريش.. وغير ذات الشوكة هي القافلة..

أخذ ﷺ تلك الآيات ونادى رفقة الدرب والإيمان وقال لهم:

(سيروا على بركة الله وأبشـــروا فـــإن الله قـــد وعـــدني إحـــدى الطائفتين... والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غداً)[(١)].

قال أحد الأنصار وهو أبو أيوب الأنصاري: (فلمـــا وعـــدنا إحـــدى الطائفتين إما القوم وإما العير طابت أنفسنا)[(٢)] وطاب المسير إلى بدر (فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر)[(٣)] ونزل المســـلمون بالعدوة الدنيا.. أي بحافة الوادي من جهة المدينة (وجاء المشـــركون فقـــال

=

ابن علقمة عن أبيه عن جده وجده ولد في عهد رسول الله ﷺ وروايته عن الصحابة أما عمرو فهو حسن الحديث في الشواهد والمتابعات. (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٥).

(١) المصدر السابق.

(٢) سنده قوي. رواه الطبراني (٤/٢٠٩) من طريق ابن لهيعة ورواه من الطريق نفسه الإمـــام الطبري (٦/١٨٦) لكن الراوي عن ابن لهيعة عند الطبري هو ابن المبارك فصح بذلك هذا الجزء من السند: وشيخ ابن لهيعة هو يزيد بن أبي حبيب وهو ثقة من رجال الشـــيخين (التقريب ٢/٦٣) وهو تابعي صغير وقد رواه عن التابعي الثقة: أسلم بن يزيد التجـــيبي (التقريب ١/٦٤) وأسلم رواه عن أبي طلحة رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

رسول الله ﷺ لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه)[1] وأقبل المشركون من هناك.. من الجهة الأخرى.. المسماة بالعدوة القصوى أي حافة الوادي البعيدة.. البعيدة عن المدينة جهة مكة.. وكان ذلك في:

١٦/٩/٢هـ

في السادس عشر من شهر رمضان بنى الصحابة لرسول الله ﷺ قبة.. هي أشبه بغرفة العمليات اليوم.. كان ﷺ يصلي فيها ويدعو ويوجه ويبشر.. وكان أبو بكر معه فيها.. يقول ابن عباس:

(إن النبي ﷺ قال وهو في «قبة له» يوم بدر: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك.. اللهم «إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً..»

فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك.. حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك -وهو في الدرع- فخرج وهو يقول:

سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)[2].

خرج ﷺ من القبة.. وخرج وراءه أبو بكر.. وخرجت معهما البشرى العظيمة: سيهزم الجمع ويولون الدبر.. وصار ﷺ يتمشى ويشير.. ثم يمشي ويشير.. وإذا أشار إلى موضع من الأرض تكلم.. ولهج بالبشرى للجميع.

لقد كان يشير بيده ويتحدث إلى من معه وحياً.. فإلى أي شيء كان يشير وعن أي شيء كان يتحدث:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٧٥-٤٨٧٧).

مصارع القوم

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(إن رسول الله ﷺ ليخبرنا عن مصارع القوم بالأمس:

هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً.. هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً)[1]..

يتحدث أنس بن مالك عن تلك المواقع فيقول:

(قال رسول الله ﷺ: هذا مصرع فلان غداً.. ووضع يده على الأرض.. وهذا مصرع فلان.. ووضع يده على الأرض.. وهذا مصرع فلان.. ووضع يده على الأرض)[2].

لقد ملأت هذه البشرى المؤمنين حماساً ونشاطاً.. وأيقنوا بنصر يشرق عليهم مع صباح الغد إن شاء الله.. فقضوا يومهم ذلك همة وحركةً.. يستعدون وينفذون أوامر قائدهم ﷺ.. ويدعون ربهم نصراً طال انتظاره.. ويرجونه الظفر في هذه الحرب التي قبعت في طريقهم دون موعد.. حتى تنكسر شوكة الباطل وترتفع راية التوحيد وتتطاير فلول الشرك مع الرياح.. كان ذلك اليوم مليئاً بالدعاء والعمل والأحلام.. كان يوماً مرهقاً.. وكانت ليلة مقمرة.. ليلة فرش فيها القمر بساطاً للجميع.. لكن القمر افتقد أحبابه إلا رسول الله ﷺ فلقد خلدوا إلى نوم عميق بعد يوم شاق. كان العمل فيه مرهقاً.. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الجنة) والبيهقي (٤٨/٣) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود ومن طريقه البيهقي (٤٦/٣): حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن ثابت عن أنس.. وهذا سند صحيح فموسى ثقة ثبت من رجال الشيخين والبقية أئمة ثقات.

عن تلك الليلة: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما من أحد إلا وهو نائم إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح)[1] لقد نام بعض الصحابة بعد أدائهم لصلاة العشاء ثم ناموا جميعاً.. لقد استيقظ علي فرآهم نائمين.. وهاهم الواحد تلو الآخر يهبون من نومهم العميق بعد علي بن أبي طالب فما الذي أيقظ علي وأيقظهم.. هل هو القمر.. هل هي الليل القمراء التي يحلو معها الحديث والسمر..؟ لا.. فالقمر قد اختفى.. والتعب أشد من أن يقاوم لكنه:

المطر.. المطر

تآلف السحاب.. وحجب القمر.. وتساقط المطر قطرات.. قطرات.. ثم ازدادت القطرات شيئاً قليلاً حتى تنبه الصحابة.. فإذا المطر يغسلهم.. ويخاطبهم القرآن كالمطر: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[2]..

تحرك الصحابة يستظلون من المطر.. أما رسول الله ﷺ فلم يكن نائماً ليستيقظ.. يقول علي رضي الله عنه:

(ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر فانطلقنا تحت الشجر والحجف[3] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه عز وجل ويقول:

---

(١) حديث صحيح مر معنا. رواه أحمد والبيهقي (٣/٣٩) وابن حبان (موارد ٤٠٩) من طريق شعبة أخبرنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي.. وهذا السند صحيح وقد مر معنا، رجاله رجال الشيخين عدا حارثة وهو تابعي ثقة. التقريب (١/١٤٥).

(٢) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٣) الحجفة ترس من جلد.

اللهم إن تهلك هذه الفئة لا تعبد

فلما أن طلع الفجر نادى:

الصلاة عباد الله

-الصلاة جامعة-

فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال)[1] ثم احتضنت رسول الله ﷺ إغفاءة قصيرة رأى فيها:

بشرى ومنام

ربنا سبحانه يتحدث عن ذلك المنام القصير فيقول: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2]..

وأشرقت في وجوه الصحابة شمس جديدة.. ويوم جديد.. فتنفسوا هواءً منعشاً.. وصباحاً طرياً بالصلاة والمطر.. الأرض أمامهم ساكنة ملبدة لا غبار فيها.. والأجواء تملأ صدور المؤمنين حماساً وثقة بالله ووعده.. ورسول الله ﷺ يحرضهم على القتال.. يشرع لهم أبواب الشهادة والجنة.. ويجعل من أصحابه أحباباً لله فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ

---

(١) سنده حسن. رواه ابن جرير في التفسير (١٩٣/٦): حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي.. والسند من علي إلى إسرائيل صحيح وقد مر معنا.. لكن الذي جعل السند حسناً هو أنه من رواية مصعب بن المقدام وهو حسن الحديث ومن رجال مسلم. التقريب (٢٥٢/٢) وهارون الهمداني صدوق (التقريب ٣١١/٢).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٣.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[1].. والرسول ﷺ يحب أن يكونوا كذلك.. لذلك نظمهم.. وجعلهم صفاً كأنهم بنيان مرصوص.. وصار يمشي بينهم.. يصفهم ويعدل صفهم ثم قال لهم:

(إن جمع قريش عند هذا الضلع الحمراء من الجبل)[2].. لقد بدأ المشركون بالنهوض مثقلين.. وصداع الخمر يرن في رؤوسهم.. بدأوا بالنهوض وقلوبهم شتى.. وأفكارهم شاردة.. والنظام عنهم شارد.. بعضهم لا يريد الخروج.. والبعض يرى أن من الخطأ قتال أبناء عمومتهم وإخوانهم وأبنائهم.. وهناك من خرج أشراً وبطراً وقد أغراه قلة عدد المؤمنين فضمن النصر واطمأن للنتيجة..

و (لما اطمأن القوم بعثوا عمر بن وهب الجمحي فقالوا: أحرز لنا القوم من أصحاب محمد..

فاستجال حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون.. ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد.. فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يرَ شيئاً.. فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً.. ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا.. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع.. قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم.. فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم)[3].

---

(١) سورة الصف.

(٢) رواه أحمد بسند صحيح وهو جزء من حديث علي الطويل الذي مر معنا.

(٣) أثرٌ رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري (٢/٤٢): حدثني إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار قالوا: لما اطمأن... وهذا السند صحيح إلى هؤلاء الأشياخ فابن إسحاق سمع من والده... ووالده ثقة وقد سمع من بعض الصحابة (التقريب ١/٦٢) وهؤلاء الأشياخ ربما كانوا من الصحابة فإن كانوا كذلك فالسند متصل... وإن =

سكت الجميع وهم يستمعون إلى هذا الوصف المرعب.. وتسلل من بين هذا الحشد الصامت رجلٌ حكيم.. اسمه أيضاً: حكيم..

حكيم بن حزام تأثر بكلام عمر بن وهب الجمحي وأحس بشـيء خطير تحمله نواضح يثرب..

(فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعـة فقال:

يا أبا الوليد.. إنك كبير قريش الليلة وسيدها والمطاع فيها.. [هـل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت][1].

هل لك ألا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر.. قال:

وماذا يا حكيم؟

قال: [إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضـرمي][2] ترجـع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي.. قال عتبة:

قد فعلت [أنا أتحمل بديته][3] أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعلـي عقله وما أصيب من ماله.. فأتِ ابن الحنظلية [يعني أبا جهل فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك][4] فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره. ثم قام عتبة خطيباً فقال:

لم يكن أحدهم من الصحابة فهم جمع من التابعين يقوي بعضهم بعضاً... وللأثر شاهد يقويه أيضاً انظر ما بعده.

(١) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٢/٤٠٧).

(٢) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٢/٤٠٧).

(٣) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٢/٤٠٧).

(٤) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٢/٤٠٧).

يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً.. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه.. قتل ابن عمه أو ابن خاله.. أو رجلاً من عشيرته.. فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب.. فإن أصابوه فذلك الذي أردتم.. وإن كان ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون)[1].

كان عتبة بعيد النظر.. خائفاً من مصير قومه الأسود الذي يقودهم إليه رجل طائش حاقد هو أبو جهل.. كانت عتبة على جمله الأحمر يدور بين المشركين.. يحاول ثنيهم عن عزمهم فهو يرى الموت سهاماً في نظرات أصحاب محمد ﷺ.. ويرى العار في قتل أبناء العم وقتالهم.. كان عتبة على تلك الحال يناشد ويمشي ويناشد ويحاول حقن دماءٍ توشك أن تُسفح على جنبات بدر.. يحاول ردم مقابر ومآسٍ كالهاوية..

لا بد أن أمية بن خلف كان في تلك اللحظات يستمع إليه.. ويستبشر به ويحتفي بكلماته وقلبه يرقص طرباً بما يقول.. ولسان حاله يقول: لله درك يا ابن عتبة كم أنت رائع.. أنت تنقذني من موت ينتظرني..

لم يكن من حول عتبة فقط هم الذين يثنون على رأيه.. رسول الله ﷺ كان يراقبه من بعيد.. من الجهة الأخرى كان ينظر إليه.. لم يعرف من هو.. لكنه أدرك من حركاته أنها حركات رجلٍ نصوح مشفق على قومه.

(نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة وهو على جمل أحمر فقال:

---

(١) هذا الأثر هو بقية الأثر السابق (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢ - السيرة) وشاهده عند الطبري عن حكيم بن حزام، وفيه ضعف ليس بالشديد. (٤٤٣/٢)

إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر.. إن يطيعوه يرشدوا - وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لم يزل ذلك في قلوبكم.. ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه.. فاجعلوا جبنها برأسي وارجعوا)[1].

كان عتبة يريد أن يتحمل عارها وشنارها.. ويجنب قومه جحيم الحرب ونارها..

أراد ﷺ أن يعرف من هو صاحب الجمل الأحمر (فقال النبي ﷺ للزبير: ناد بعض أصحابك فسله من صاحب الجمل الأحمر؟ قالوا: عتبة ابن ربيعة وهو ينهى عن القتال وهو يقول: يا قوم إني أرى قوماً مستميتين، والله ما أظن أن تصلوا إليهم حتى تهلكوا)[2].

والتفت ﷺ فرأى عمه حمزة في موقع قريب من المشركين فأراد أن يتحقق من قول أصحاب الزبير ويتأكد:

(فقال رسول الله ﷺ: يا علي.. ناد لي حمزة -وكان أقربهم من المشركين- منْ صاحب الجمل الأحمر؟.. وماذا يقول لهم؟

---

(١) سنده جيد وهو صحيح بالشواهد. رواه البزار (٣١٣/٢ - زوائد)... يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم، عن أخيه يزيد بن حازم، عن عكرمة عن ابن عباس..: يزيد ثقة متقن عابد (التقريب ٣٧٢/٢) وشيخه جرير ثقة لكن حديثه عن قتادة فيه ضعف وهذا ليس منها فشيخه هنا هو أخوه يزيد وهو ثقة (التقريب ١٢٧/١) (٦٣/٢) وعكرمة غني عن التعريف وقد مر معنا كثيراً.. وللحديث شواهد ترفعه إلى درجة الصحة.

(٢) سنده صحيح. رواه البزار (٣١١/٢) بالسند الصحيح الذي مر معنا كثيراً وهو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي... وتلميذ إسرائيل عند البزار هو عثمان بن عمر العبدي: ثقة من الرجال الشيخين. (التقريب ١٣/٢) وتلميذه هو شيخ البزار الثقة الثبت: محمد بن المثنى المعروف ب- (الزمن) (التهذيب ٤٢٥/٩).

فجاء حمزة فقال: هو عتبة بن ربيعة وهو ينهى عن القتال ويقول لهم: يا قوم إني أرى قوماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم)[1].. كان عتبة فوق جمله الأحمر يثير إعجاب النبي ﷺ برأيه السديد.. لكنه كان يثير حسرة لدى أحد الشباب المؤمنين خلف رسول الله ﷺ.. كأني بهذا الشاب يتطاول.. ويتطاول ليحظى بنظرة أخيرة لصاحب هذا الجمل الأحمر.. كأني به يرفع رأسه ليراه فيتحرك قلبه نحوه بالأسى والحزن.. والذكريات الحلوة المريرة.. عندما كان هذا الشاب طفلاً كان صاحب الجمل الأحمر يحمله ويداعبه.. كان يسير معه في طرقات مكة.. كان يكسوه أحسن الثياب.. ويطعمه أطيب الطعام.. كم مرة قبله.. وكم مرة عانقه.. وكم مرة تعثر فحمله.. وبكى فأسكته بما يرضيه.. ومرض فبحث له عمن يداويه.. ذكريات حلوة ومريرة.. فمن يكون هذا الشاب وما هي صلته بهذا الشيخ الكبير؟ إنه: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة..

وهذا الشيخ هو أبوه الذي رباه ورعاه وحنا عليه.. وهو اليوم عدوه.. والده اليوم أعقل وأحكم من في معسكر قريش.. فأين تلك الحكمة وأين هذا العقل قبل اليوم.. أين الحكمة في الخروج من أجل أصنام لا تستطيع الحراك من أماكنها.. أين الحكمة في عبادة حجر أو خشبة تفتقر إلى أبسط صفات السيادة ألا وهي إصدار الأمر أو النهي..؟

---

(١) حديث صحيح مر معنا. رواه أحمد (سيرة ابن كثير ٤٢٢/٢) إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي.

كان هذا الشاب يتحسر على أبيه مثلما تحسر علي بن أبي طالب على أبيه وهو يشاهد رجاءات النبي ﷺ تتحطم على صخرة العناد في قلب أبي طالب.. ويموت أبو طالب وهو كتلة من العناد.. وهاهي الصورة تتكرر على أرض بدر..

كان عتبة خائفاً أشد الخوف على مجد قريش أن يدفن في هذا الصباح الممطر الجميل.. عتبة يرى الموت يطل عليهم من فوق الجبال.. يرى الموت في السحاب وفوق نواضح يثرب.. لذلك أرسل حكيم بن حزام إلى أبي جهل لعله يتراجع عن غيه.. أرسل حكيم بن حزام إلى أبي جهل ليعرف رأيه فهو صاحب شر مستطير.. وعقل صغير.. أبو جهل سفيه متهور.. قد يثير الفتنة والمشاكل بين جيش قريش نفسه.. فيكونون غنيمةً سهلةً لمحمد وأصحابه.. غنيمة أسهل من قافلة أبي سفيان.. فلا بد من كلمة واحدة.. ورأي واحد ولو كان مراً.

توجه حكيم كما طلب منه عتبة وقال:

(فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعاً فهو يهنئها[1] فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا..

فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه)[2].

---

(١) أي يصلحها ويهيئها ويطليها بعكر الزيت.

(٢) أثر حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري (٤٤٤/٢) وهو حديث ابن إسحاق الطويل وهو ضعيف عدا ما كان له من الشواهد ما يقويه مثل هذا الجزء الذي يشهد له ما عند البزار وهو الحديث التالي.

كان أبو جهل يستخدم العواطف.. يثيرها.. يفجرها فتنةً يفجرها ثارات وسيوفاً..

هاهو يقلب الحقائق.. يجعل من رأي عتبة العاقل جبناً.. يجعله خوفاً على ابنه الذي بين صفوف المؤمنين..

ويبرر هذا الرأي الساقط بأن عتبة يرى أن محمداً ﷺ وأصحابه لا يأخذون من المشركين جهداً أكثر من جهدهم في تناول وجبة من الطعام قد طبخ فيها جمل من الجمال..

إنه يرى المسلمين جزوراً شهياً قد قدم على مائدة بدر وقد حان موعد تناولها.. وابن عتبة لقمة في هذه الوجبة الشهية.. وقد خشي عتبة على ابنه من أفواه قريش وسيوفهم المتلمظة.. المتعطشة.. أبو جهل يقول:

(انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه.. إنما محمد وأصحابه كأكلة جزور.. لو قد التقينا)[1].. ويفقد أمية بن خلف آخر آماله في الحياة.. فلقد تحرك ابن الحنظلية مفتشاً عن إثارة أكثر لهذه القلوب السوداء.. مفتشاً عن جمر يلقيه في تلك النفوس كي تتحرق للثأر.

فـ (بعث إلى عامر بن الحضرمي.. فقال:

هذا حليفك يريد أن يرجع الناس.. وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك..

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ:

واعمراه..

واعمراه..

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث البزار السابق (٢/٣١٣ - الزوائد).

فحميت الحرب وحقب أمر الناس واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فلما بلغ عتبة قول أبي جهل: انتفخ والله سحره قال:

سيعلم مصفر أسته من انتفخ سحره أنا أم هو)[١]..

لم يكتف أبو جهل ببلوغ صراخه إلى عتبة..

لقد تحرك الطاغوت نحو عتبة بن ربيعة لاستفزازه.. ليوظفه باتجاه شقهُ أبو جهلٍ.. ليحوله من نقطة ضعف وسكينة إلى بركان تتفجر منه المعركة حالاً... توجه أبو جهل إلى عتبة صارخاً بوجهه: (أنت تقول ذلك، والله لو غيرك يقوله لأعضضته قد ملأت رئتك جوفك رعباً)[٢] فثار عتبة وانفجر في وجه أبي جهل قائلاً: (إياي تعير يا مصفر أسته؟ ستعلم اليوم أينا الجبان)[٣] (ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه، فما وجد في الجيش بيضة[٤] تسعه من عظم رأسه.. فلما رأى ذلك اعتجر[٥] على رأسه ببردٍ له)[٦].

لقد نجح أبو جهل بتحريضه لغضب عتبة فأوصله إلى حالة شديدة من التوتر والتهور.. وأفلح الطاغوت في إثارة حمية أخيه وابنه (فبرز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية)[٧] يريدون الحرب..

---

(١) جزء من حديث ابن إسحاق السابق وهو حسن.

(٢) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.

(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.

(٤) الخوذة التي توضع على الرأس في الحروب.

(٥) لف البرد على رأسه كالعمامة... والبرد قماش يلتحف به.

(٦) جزء من أثر ابن إسحاق السابق وهو حسن.

(٧) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.

سمع المسلمون ذلك الضجيج فتزينوا للجنة..

وتوجه النبي ﷺ.. إلى جبار السموات والأرض يناشده.. ويناشده ويستمطره رحمةً ونصراً.. فنظر إليه الصديق فرق لحاله وأشفق عليه.. ثم تحرك نحوه بكل رفق والتف حوله وضمه ضمةً لا يجرؤ عليها إلا أبو بكر..

ومشاعر أبي بكر لا يعبر عنها إلا أبو بكر..

فكم أبكى ذلك المشهد من الصحابة عندما (نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف.. ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: اللهم أنجز لي ما وعدتني..

اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً..

فما زال يستغيث بربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده -ألقاه على منكبيه[1]- ثم التزمه من ورائه ثم قال: كفاك يا نبي الله بأبي وأمي[2] مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك.. فأنزل الله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾)[3].

---

(١) لفظ مسلم.

(٢) لفظ ابن جرير.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم وأحمد (ابن كثير ٢/٤١٧) وابن جرير في التفسير (٦/١٨٨).

لقد فعل ﷺ كلما يمكنه فعله.. فعل الأسباب كلها ثم توجه إلى الله يناشده ويدعوه.. هذا هو التوكل الصحيح الذي رسمه لأتباعه:

فعل السبب.. وجعل النتائج على الله

فعل ﷺ ذلك كله وما زال يفعل فبعد أن: شاور المهاجرين والأنصار قبل الانطلاق.

ثم قطع الأجراس من أعناق الإبل إمعاناً في السرية.

ورفض أن ينتظر أي شخص لم يكن جاهزاً وأبقى هدف المسير سراً عند انطلاقه.

ورفض أن يصحبه أي مشرك حتى ولو كان صادقاً ذا حمية وشهامة.

وسمح للقادرين على القتال فقط بمصاحبته.

وأمرهم بالتعاقب على الرواحل حتى يهون عليهم المسير قليلاً وهو ليس بهين.. واستطاع أن يعرف عدد الخارجين للقتال من قريش.

واستشار أصحابه في المضي أو العودة فوافقوا على المضي.

وبعد أن سبق ﷺ المشركين إلى العدوة الدنيا حيث الماء الآبار..

ثم بنى المسلمون لهم حوضاً يشربون منه أثناء المعركة.

بعد ذلك كله توجه إلى الله يناشده ويدعوه. يقول علي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ لما أصبح ببدر من الغد أحيى تلك الليلة كلها وهو مسافر)[1].. والسفر إرهاق ومشقة.. ومع ذلك يقول علي رضي الله عنه:

---

(١) حديث حسن. رواه أبو يعلى ومن طريقه رواه ابن حبان (موارد ٤٠٩): حدثنا الأزرق ابن علي أبو الجهم، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يوسف بن أبي إسحاق عن أبي

(لقد رأيتنا ليلة بدر وما منا أحد إلا وهو نائم إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح)[1].. عمل ودعاء.. هذا هو منهج نبي الله ﷺ وهذا هو توكله على الله.. وبعد الدعاء بدأ العمل من جديد.. فالصحابة قليلون ولا بد من خطة محكمة وتطبيق صارم كالسيف.. فالخطأ يكلف كثيراً وعدم تنفيذ الأوامر كارثة.. فالمعركة تحتاج إلى كل الجهود.. تحتاج للجميع دون استثناء.. وفي أمسّ الحاجة تلك.. وفي أحرج الظروف وأصعبها يصل صحابي ووالده للمشاركة مع نبيهم ﷺ ومع ذلك يرفض ﷺ مشاركتهما رغم صدقهما وإخلاصهما وتحملهما المشاق في السير نحوه.. ذلك الصحابي هو حذيفة بن اليمان.

لماذا يرفض ﷺ مشاركة حذيفة ووالده

سؤال بحجم المعركة.. والإجابة بحجم محمد ﷺ.. ليس هناك أزمة ثقة بحذيفة.. بل إن حذيفة فوق الشبهات.. كيف لا وقد سلمه الرسول ﷺ يوماً قائمة سرية بالأسماء والأحداث التي سيفصح عنها التاريخ..؟ سلمها ﷺ لأمانة حذيفة وأعماقه..

الأمر هنا لا يتعلق بالثقة.. الأمر يتعلق بالرسول ﷺ وبالقادة الإسلاميين والدعاة من بعده..

= إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي...: وهذا السند حسن... شيخ أبي يعلى ثقة (التقريب ١/ ٥١) وشيخه حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال الشيخين (التهذيب ٢/ ٢٤٥) ويوسف هو حفيد أبي إسحاق وهو ثقة من رجال الشيخين (التقريب ٢/ ٣٧٩) وبقية السند صحيح وقد مر معنا. وللحديث شاهد وهو ما بعده.

(١) حديث صحيح مر معنا.

حذيفة مر من هناك.. هناك حيث صادفه المشركون هو ووالده حسيل.. سألنا حذيفة عن أمر يستطيع إخبارنا به.. إنه ليس سراً.. ما الذي منعك يا حذيفة من المشاركة في غزوة بدر.. فيجيب حذيفة رضي الله عنه قائلاً:

(ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنني خرجت أنا وأبي حسيل، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرف إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال:

انصرفا.. نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم)[1] إنها إجابة بحجم محمد ﷺ.. والتزام أعيى من يهتبلون ثماراً ناضجة وغير ناضجة.. أعيى زعماء ودعاة ذوي نظرة آنية لا يرون إلا ما في رؤوسهم.. (نفي لهم بعهدهم)[2] وهم المشركون الذين يعبدون الأصنام ويحاربون الله ورسوله وقد خرجوا لطمس التوحيد وسفك دماء الموحدين.. خرجوا لذبح نبي الإسلام وتدمير دولته ومع ذلك (نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم)[3].. وإذا كان هذا هو حجم الاحترام للعلاقة - العهد مع الأعداء.. فكم هو حجمه بين المسلم وأخيه.. سؤال عرف الإجابة عليه حذيفة ووالده فانصرفا..

---

(١) إسناده حسن.. رواه ابن أبي شيبة (٣٦٣/٧): حدثنا أبو أسامة، عن الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل، حدثنا حذيفة بن اليمان... وهذا الإسناد حسن من أجل الوليد بن جميع وهو تابعي حسن الحديث ومن رجال مسلم (التقريب ٣٣٣/٢) وتلميذه هنا هو الثقة الثبت شيخ ابن أبي شيبة: حماد بن أسامة (التهذيب ٢/٣) وعامر بن واثلة صحابي صغير رضي الله عنه وهو آخر من مات من الصحابة.

(٢) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

ودع النبي ﷺ صاحبيه فانصرفا وهما ثقيلان لا يطيقان ذلك الوداع. تَوَجَّها والحزن إلى المدينة.. وتوجه ﷺ إلى صحابته بعد هذا الدرس الذي تغلغل في أعماقهم وسرى في دمائهم.. وعاد ﷺ إلى العمل من جديـــد.. فجعل ﷺ لجيشه رايةً ولواءً.. والراية هي علم الجيش.. واللواء أصغر منها و(كانت رايته ﷺ سوداء ولواؤه أبيض)[1].. ورايته (كانت سوداء مربعة من نمرة[2])[3].

وتحت هذه الراية نظم ﷺ أصحابه صفوفاً أو صفاً.. لأن الله يحب ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[4].. متماسك وقوي ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما رأى خللاً في الصف سارع إلى تقويمه.. يحدثنا أبو أيوب الأنصاري عن ذلك فيقول:

(صففنا يوم بدر فندرت منا نادرة أمام الصف، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: معي.. معي)[5].. وجعل جزءاً منهم خلف الصـــفوف وفي أماكن مناسبة تمكنهم من مراقبة تحركات الأعداء.. وتقـــديم المعلومـــات

---

(١) حديث حسن. صحيح ابن ماجة (١٣٣/٢).

(٢) بردة من صوف.

(٣) حديث صحيح. صحيح أبي داود (٤٩١/٢) عدا قوله: مربعة.

(٤) سورة الصف.

(٥) سنده قوي. رواه أحمد (٤٢٠/٥) من طريق موسى بن داود وعبد الله بن المبارك حدثنا.. وأخبرنا ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران التجيبي حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول:... وهذا السند قد خلا من علة اختلاط ابن لهيعـــة لأن أحـــد تلميذيه هو ابن المبارك.. وشيخه يزيد بن أبي حبيب المصري ثقة فقيه من رجال الشيخين (التقريب ٣٦٣/٢) وقد سمع من التابعي المصري الثقة أسلم بن يزيد التجيبي (التقريـــب ٦٤/١).

لرسول الله ﷺ.. وكان من بين هؤلاء ذلك الغلام الذي يدعى: حارثة بن سراقة وهو أنصاري من بني النجار..

وقد أدرك ﷺ أن هذه القلة المؤمنة تحتاج إلى شعار يعرف بعضهم بعضاً به إذا حمي الوطيس والتحمت السيوف بالأعناق والرؤوس فكان:

الصوف الأبيض شعاراً للمسلمين

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (كان سِيْمَا أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: الصوف الأبيض)[1].

وقد كان لبعض الصحابة علامات يعرفون بها.. فحمزة مثلاً (معلم بريشة نعامة في صدره)[2].. كان أسداً عليه ريش النعام.. أما الزبير فعلامته يحدثنا بنفسه عنها فيقول:

(كان على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها)[3].

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة (٣٥٤/٧) بالسند الصحيح الذي مر معنا كثيراً: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي.. وشيخ ابن أبي شيبة الآخذ عن إسرائيل هو الإمام الثقة وكيع بن الجراح (التقريب ٣٣١/٢).

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح (سيرة ابن كثير ٤٣٨/٢): حدثني عبد الواحد بن أبي عوف، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي أمية... وهذا السند صحيح ابن إسحاق لم يدلس، عبد الواحد ثقة وليس كما قال الحافظ صدوق يخطئ.. راجع تعليقي على التقريب. وجرح ابن حبان هناك لا يعتد به، وقد وثق من أئمة في هذا الشأن... (التقريب ٥٢٦/١) وشيخه سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف ووالده تابعيان من رجال الشيخين.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة (٣٦١/٧) من طريقين أحدهما صحيح وهو: حدثنا عبدة، عن هشام، عن عباد بن حمزة عن الزبير، وعبدة بن سليمان الكلابي ثقة ثبت (التقريب ٣٠/٢) وهشام بن عروة إمام مر معنا كثيراً.. وشيخه عباد بن حمزة بن عبد الله =

ولهذه العمامة الصفراء أصداء في السماء تنتظر الترول سنعرفها بعد قليل.. وسنعرف معها علامتين لا يراهما أحد.. علامة لأبي بكر وعلامة لعلي رضي الله عنهم أجمعين ولكن قبل ذلك كان هناك علامة للجميع.. علامة في العيون والنفوس علامة غشيت المؤمنين كلهم إنها:

النعاس وشيء آخر

يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾(١).. لقد ألقى الله النعاس على المؤمنين أمناً منه وسلاماً وثقة بنصر الله... وبث في نفوسهم شيئاً جعلهم يتحفزون للقتال (لقد شجع الله المسلمين على لقاء عدوهم وقللهم في أعينهم حتى طمعوا فيهم)(٢).. كان الصحابة مزيجاً من التحفز والنعاس الغريب.. وكان الوحي يتترل على الملائكة أن يهبطوا إلى أرض المعركة لتثبيت المؤمنين حيث يقول سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٣).

لكن أين الملائكة.. بل أين رسول الله ﷺ في هذه اللحظات الحرجة التي بدأت فيها أصوات المشركين بالارتفاع والشجار من أجل المعركة..

ابن الزبير تابعي ثقة (التقريب ٣٩١/١) وروايته عن أسماء وعائشة وجابر رضي الله عنهم وعن والده... وللحديث شواهد انظر (الموسوعة، غزوة بدر، الملائكة).

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح.. حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير... والزهري تابعي ثقة وإمام معروف وشيخه صحابي صغير (سيرة ابن كثير ٤٣٤/٢).

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٢.

أين رسول الله فهو ليس بين الصفوف.. وليس مع النظار ولـــيس عنـــد الحوض..؟

أين رسول الله وأين الملائكة

لقد ذهب قبل قليل إلى العريش.. وتبعه أبو بكر.. إنه الآن داخل العريش وهو يعاني حالة من النعاس ورأسه يخفق.. هاهو لقد أفاق من نعاسه.. وخرج والبشرى تحمله ويحملها.. إنه يبشر صاحبه أبا بكر بشيء مفرح فما هو..؟!

يقول أحد الصحابة: (خفق[1] رسول الله ﷺ خفقة في العـــريش ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعدته)[2].

(هذا جبريل آخذ رأس فرسه عليه أداة الحرب)[3].. هـــبط جبريـــل مُعْتَمَّاً.. ما لون عمامته.. وهل هبط لوحده..؟ سنعرف بعـــد قليـــل.. فرسول الله ﷺ يتجه مبشراً أصحابه بما حـــدث.. محرضـــاً شـــجاعتهم للتضحية بأرواحهم في سبيل الله.. إنه يحدثهم.. يوقظ فـــرحهم بالجنـــة والشهادة.. لقد (خرج ﷺ إلى الناس فحرضهم)[4] وعندما يحرض رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقاً.. وإذا قال.. تحرك الجميع من حوله.. يقول ﷺ

---

(١) حرك رأسه وهو ناعس.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقة الأموي (سيرة ابن كثير ٤٣٤/٢): حـــدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع مـــن شـــيخه التابعي الثقة، وعبد الله بن ثعلبة صحابي.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٤) رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديثه الطويل وهو ضعيف إلا ما كان لـــه من الشواهد ما يقويه. وهذه العبارة لها ما يقويها عند أحمد وسنده صحيح وقد مر معنا (سيرة ابـــن كثير ٤٢٢/٢).

وهو يتحدث عن الصفوف: (قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة)[1] و (الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله في الصف الأول، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يقتلوا، فأولئك يلقون في الغرف العلا من الجنة يضحك إليهم ربك، إن الله تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه)[2].. ويقول ﷺ: (موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)[3] وإن (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين من أهل بيته)[4].

إن من يسمع ذلك وغيره ليهون أمامه الموت والفناء.. بل إن الموت يهون ويسهل للشهيد حقاً.. فالموت يداعب الشهداء مداعبةً.. بشر بذلك رسول الله ﷺ فقال: (الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[5].

إن من يستمع إلى هذه الأحاديث وهو على سريره سيبحث عن أي معركة يكون فيها شهيداً.. فكيف لو سمعها رجل يحمل سلاحه وسط الصفوف.. لقد ثارت المعارك في نفوس الصحابة.. واستعر لهيبها في دمائهم.. فقال ﷺ لهم قولاً ينظم حماسهم وتوثبهم.. ويسدد رميهم وسيوفهم قولاً يفتك بأعدائهم..

---

(١) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢/٨١٥).

(٢) حديث صحيح. المصدر السابق (١/٦٩٥).

(٣) حديث صحيح. المصدر السابق (٢/١١٢٧).

(٤) حديث صحيح. السابق (٢/٩٢٠).

(٥) حديث صحيح. السابق (١/٦٩٦).

ماذا قال لكم يا أبا أسيد الساعدي فقد كنت بين الصفوف..؟ يقول أبو أسيد: قال رسول الله ﷺ حين اصطففنا يوم بدرٍ: إذا أكثبوكم يعني إذا غشوكم فارموهم بالنبل واستبقوا نبلكم)[1].

يكاد الصبر يفتك بالصف المؤمن.. وكان الصف كالبنيان المرصوص.. إلا لبنة قويةً كانت تتململ.. إنه عبد الرحمن بن عوف فماذا جرى له.. ولماذا يشعر بالإحراج وكأنه يريد أن يغير مكانه..

عبد الرحمن بن عوف يتمنى مكاناً آخر

أيتمنى ابن عوف أنه كان في بيته حتى لا يقاتل عشيرته وأبناء عمومته.. أم هو خائف..؟

الأمر ليس كذلك فليست هذه طباع عبد الرحمن بن عوف.. لكن القدر ساقه ليكون بين غلامين صغيرين في الصف.. كان ينظر يميناً فيرى غلاماً وينظر عن يساره فيرى مثل ذلك.. ماذا سيفعل ابن عوف؟ لم يمهله الغلامان لقد بادراه بالهمس.. كان همساً غريباً.. كان كل واحد منهما لا يريد أن يُسمع صاحبه ما يقول.. ما هي قصة هذين الغلامين.. سألنا عبد الرحمن بن عوف عما جرى له مع هذين الغلامين فقال:

(إني لواقف يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أظلع منهما، فغمزني أحدهما [سراً من صاحبه] فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، [عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه] والذي نفسي بيده لئن رأيته لا

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وأبو داود والبيهقي (٣/٧٠).

يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضاً [سراً من صاحبه] مثلها، [فما سرني أني بين رجلين مكانهما] فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه)[1].. سلَّ كل فتىً سيفه ليسبق صاحبه إليه.. لكننا سنسبق الفتيان إلى أبي جهل لنرى ماذا يفعل.. إنه يحرض الناس على القتال.. بل إنه يفعل أمراً عظيماً طالما كفر به.. إنه يدعو الله وحده إنه لا يدعو الأصنام.. لماذا

هل أسلم أبو جهل

هل أسلم في اللحظات الأخيرة.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم..

(إن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم [أينا كان] أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة، فكان المستفتح)[2].

لم يسلم أبو جهل كان يريد استدراج قومه أكثر فأكثر للقتال..

لا يريد أن تقع كارثة.. فزعامته لقريش مرهونة بهذه المعركة وببقاء رسول الله ﷺ حياً..

كأني بأمية بن خلف يستمع إلى دعائه فيقول: لعنة الله عليك من أفاك..
وقد أنزل الله على نبيه آيات تبشر أبا جهل بما أراد فقال سبحانه: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (سيرة ابن كثير ٢/٤٤٢) والزوائد بين المعقوفين عند البخاري أيضاً لكن في رواية أخرى.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح ومن طريقه الإمام أحمد: حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير... والزهري ثقة وشيخه صحابي والسند مر معنا من قبل.

﴿تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].. وأبو جهل ليس منهم.. إنه يحاول أن يكرس وهماً في نفوس أتباعه بأهم على حق.. لم يكتف أبو جهل بالاستفتاح والاستنصار من الله.. لقد هرع إلى عتبة بن ربيعة ليسخر منه أمام الجميع.. وليجعله أضحوكة وعبرة لمن يفكر بالتراجع عن الحرب مجرد تفكير.. وقف أبو جهل أمام عتبة (فقال: أنت تقول ذلك.. والله لو غيرك يقول لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفك رعباً)[2].. غضب عتبة من تلك الكلمات الجارحة ونجح أبو جهل في إثارته فأخذته العزة بالإثم.. التفت إلى أبي جهل وقد احتقن من الغضب فقال له شيئاً يمرغ رجولته وزعامته.. قال عتبة لأبي جهل: (إياي تعني يا مصفر أسته، ستعلم اليوم أينا الجبان)[3] (ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً..

أما ترون.. كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجوههم السيوف)[4].

تجمد الدم في عروق أمية.. وأدرك أبو جهل أن حمزة في الطريق.. وهاوت معنويات الوثنيين.. لكن عتبة أصر على الخروج ليغسل عار الجبن الذي سكبه عليه أبو جهل.. ثم صاح بعد أن لف قطعة قماش على رأسه..: يا شيبة بن ربيعة... يا وليد بن عتبة.. لقد (دعا أخاه وابنه فخرج يمشي بينهما)[5] (فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٩.

(٢) حديث صحيح مر معنا وهو جزء من حديث الإمام أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٤٢٢).

(٣) هو جزء من الحديث الصحيح السابق (سيرة ابن كثير ٢/٤٢٢).

(٤) حديث صحيح. رواه البزار (زوائد ٢/٣١٣)... يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس... وهذا السند صحيح وجرير بن حازم ضعيف الحديث إذا روى عن قتادة وهو لم يروه عنه بل عن عكرمة ويزيد ثقة (التقريب ٢/٣٧٢) وتلميذه شيخ البزار هو الثقة إبراهيم بن سعيد الجوهري (التقريب ١/٣٥) وللحديث شواهد.

(٥) جزء من حديث البزار السابق وهو صحيح (زوائد ٢/٣١٣).

مشببة)[1] (ثلاثة نفر..: عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، ورجل آخر يقال له عبد الله بن رواحة.. فقال: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار.. فقالوا: ما لنا بكم حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا)[2] و(قال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن نبارز من بني عمنا من بني عبد المطلب فقال رسول الله ﷺ:

(قم يا حمزة.. وقم يا علي.. وقم يا عبيدة)[3]

ثلاثة من بني عبد المطلب كأن وجوههم السيوف.. ثلاثة أقبلوا كأنهم الموت.. فكان عتبة الضحية لحمزة هذا اليوم وهوت حكمته وشجاعته وشركه وعناده على أرض بدر.. وهوى أخوه شيبة جثة هامدة تحت قدمي علي رضي الله عنه.. لم يستغرقا وقتاً طويلاً أمام هذين الفارسين من بني عبد المطلب.. لكن ماذا حدث لعبيدة بن الحارث رضي الله عنه.. عليٌّ يقص علينا ما حدث فيقول:

(أقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحدٍ منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة)[4].

ابتهج ﷺ بفرسانه وفرح بانتصارهم.. وتحمس المؤمنون جميعاً لعناق الموت.. فرائحة الشهادة تعطر أجواء بدر.. وتأجج حماسهم عندما ازدادت زخات المدد من السماء فبشر بها رسول الله ﷺ أصحابه.. وقال

---

(١) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا (سيرة ابن كثير ٢/٤٢٢).

(٢) جزء من حديث ابن إسحاق حسن بحديث أحمد السابق وحديث ابن إسحاق ضعيف إلا ما كان له شاهد.

(٣) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا (سيرة ابن كثير ٢/٤٢٢).

(٤) حديث صحيح. صحيح أبي داود (٢٦٦٥).

الله في ذلك: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾[1] وكانوا خير مدد.. وكانوا خير الملائكة..

هذا كبيرهم: جبريل عليه الصلاة والسلام يصفهم بنفسه.. فقد (سأل جبريل النبي ﷺ: كيف أهل بدر فيكم؟ قال ﷺ: خيارنا. قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم خيار الملائكة)[2].

أما كبار الملائكة..: ميكائيل وإسرافيل.. فقد كان في نزولهم تكريماً لأبي بكر الصديق ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم فلقد (قيل لأبي بكر الصديق وعلي يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم، يشهد القتال، أو يقف في الصف [ولا يقاتل][3].

شاهد ﷺ ذلك وأيقن بالنصر فقد استجاب الله له، فصاح بأصحابه: (قوموا إلى جنة عرضها السموات الأرض)[4].

سمع أحد الصحابة -وهو الذي كان يحمل تمراً في جيبه ربما عند خروجه من المدينة- سمع ذكر الجنة فطار قلبه وتوجه نحو رسول الله ﷺ كالفرح.. وقف أمامه وقال: (يا رسول الله.. جنة عرضها السموات والأرض؟ قال ﷺ: نعم، قال: بخٍ.. بخٍ..

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٤.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٣) والبيهقي (١٥١/٣) واللفظ له.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة واللفظ له عدا ما بين المعقوفين (٣٥٣/٧) والبيهقي (٥٥/٣) وأحمد والبزار (الزوائد ٣١٤/٢) من طرق عن مسعر بن كدام الهلالي وهو ثقة ثبت فاضل (التقريب ١٨٧/٢) عن شيخه أبي عون الثقفي وهو ثقة من رجال الشيخين (التقريب (١٨٧/٢) عن شيخه التابعي الثقة أبي صالح عبد الرحمن بن قيس الحنفي (التقريب ٤٩٥/١).

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم وأحمد (سيرة ابن كثير ٤٢١/٢).

فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قول بخٍ.. بخٍ؟

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال ﷺ: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن)[1].

ما هذا الرجل ومن هو.. يبشره ﷺ بالجنة فيأكل تمراً.. سنعرف بعد قليل.. فلنعد إلى رسول الله ﷺ حيث لا تمر في كفيه.. لكن كفه كانت مليئة بشيء غير التمر.. شيء لا يؤكل.

فما هو هذا الشيء وماذا يريد أن يفعل به؟.

لقد (أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصى بيده، ثم خرج فاستقبل القوم، فقال:

شاهت الوجوه

ثم نفحهم بها، ثم قال لأصحابه: احملوا)[2].

انطلق الصحابة كالسهام.. كالموت.. ونظر صاحب التمرات إلى تمراته ثم قال:

(لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل)[3] قتل شهيداً رضي الله عنه وأرضاه.. هذا الشهيد أنصاريٌ يدعى: عمير بن الحمام.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وأحمد (سيرة ابن كثير ٢/٤٢١).

(٢) سنده قوي. رواه الأموي (ابن كثير ٢/٤٣٤) حدثنا أبي حدثنا ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه التابعي الإمام الثقة الزهري، وشيخ الزهري صحابي رضي الله عنه، والأموي وولداه ثقتان.

(٣) هو باقي حديث مسلم السابق.

أما حمزة فقد شق صفوف الوثنيين بسيفه.. يتساقطون أمامه واحداً واحداً.. أحد الجبناء: أمية بن خلف كان ينظر إليه وينتفض وينتفض السيف في يده وتنتفض الريشة التي زين بها حمزة صدره.. أمية بن خلف كان يرتعد خوفاً ويقول لمن حوله: (ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل).. وهو لم يحدد من ذلك الشخص بعد.. لم يعرف أنه حمزة بعد.. وكان أحد ضحايا حمزة رجل من مشاهير قريش اسمه: طعيمة بن عدي وهو أخو المطعم بن عدي.. ومن مكان آخر انطلق عبد الرحمن بن عوف وانطلق الشابان من حوله.. يتسابقان نحو رأس أبي جهل.. لكن كيف والمشركون كالشجر الملتف حوله.. يحمونه من سيوف المهاجرين والأنصار.. أي سيف سيشق طريقاً نحو أبي جهل.. أي سيف سيجز ذلك الشجر الوثني الملتف حول أبي جهل.. الذين صنعوا الأحداث يتحدثون..

عبد الرحمن بن عوف يقول للغلامين وسط الموت والسيوف:

(نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه [فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين] فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال:

أيكما قتله؟ قال كل منهما: أنا قتلته، قال ﷺ: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا، فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: كلاهما قتله، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر معاذ بن عفراء)[1] هذا ما حدث باختصار.. أما التفاصيل فعند من خاض سيفه في تفاصيل أبي جهل.. التفاصيل عند معاذ بن عمرو بن الجموح.. فبعد أن أشار عبد

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وما بين المعقوفين عند البخاري (ابن كثير ٢/٤٤٢)

الرحمن بن عوف بيده إلى أبي جهل.. قال معاذ: (سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة[1] وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه.. فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربةً أطنت[2] قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني[3] القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها من خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثم مر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق)[4].

تركه يشقى بآخر أنفاسه.. تدوسه الأقدام وتدوس زعامته ويكسوه التراب الذي طالما نثره في وجوه الضعفاء والمساكين.. هوى الطاغية الشرس الذي قضى أكثر من عشر سنين في محاربة الله ورسوله ﷺ.. في اضطهاد الفقراء وقتل العجائز والمسنين من المؤمنين.. هوى هذا الكافر على يد شابين صغيرين اقتحما ثأراً لله ولرسوله وللمؤمنين.. وخيم الموت على أبي جهل والتهمت الصحراء ساقه.. خيمة من الموت ضربها الأنصاريان عليه.. فلم يبق منه سوى عينين زائغتين.. تضعفان كلما سقط طاغوت آخر..

---

(١) الشجر الملتف.

(٢) أطارت.

(٣) أي حال بينيه وبينه.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٨٤/٣) حدثني ثور بن يزيد عن عكرمة عن ابن عباس، وعكرمة تلميذ ابن عباس تابعي ثقة مر معنا وثور بن يزيد الحمصي ثقة ثبت. انظر التقريب (١٢١/١).

ها هو الطاغوت الآخر: عقبة بن أبي معيط يهوي إلى الأرض سقط سيفه.. وسقط شركه.. لكنه لم يمت ما زال حياً.. إنه يرسف في قيوده.. وأحد فرسان الإسلام يقتاده كذلٍ وديع..

وهذا هو طاغوت ثالث يرتطم بالأرض.. يرتج عند ارتطامه.. إنه أمية بن خلف وشحمه الذي يلف جسداً يتموج من الرعب.. وبالقرب منه يسقط علي ويرتجف من الخوف.. أجل عليٌّ خائف جداً فسيفه ليس بيده.. وهو يخشى طعنة من هنا أو هناك.. أو أن تدوسه الأقدام والحوافر.. فما الذي أصاب علياً.. ومن الذي أسقطه وكيف يرتجف من الخوف؟

علي خائف من الموت

أما كيف.. فلا بد أن أحد فرسان الإسلام قد أسقطه عن ظهر دابته.. وأما لماذا.. لماذا أسقط ذلك الفارس علياً عن ظهر دابته.. فالسبب بسيط.. لقد أسقطه.. لأنه علي بن أمية بن خلف وليس علي بن أبي طالب.. فعلي بن أبي طالب يصول ويجول كالأسد بين عجول الشرك.. يلتقي بمن شاء.. ويُسقط ما شاء منهم.. أما علي بن أمية فهو كالذبيحة قرب أبيه الجبان.. قرب أبيه الذي شاهد الموت عدة مرات.. لم ينفعه أبو جهل.. ولا هبل.. ولا بعيره الذي اشتراه بأغلى الأثمان.. فأبو جهل يتلبط في دمائه.. وهبل حجر تركه في مكة.. وبعيره وبعير ابنه بين غنائم المؤمنين.. والموت قادم.. قادم يا أمية.. لكن أمية -فجأة- يشعر أن الحياة قادمة.. إنه يرى من خلال الموت فرجة إلى الحياة يحملها أحد المهاجرين.. يحملها عبد الرحمن بن عوف وهو شاهر سيفه يجندل به جنود الشرك.. لكن أي أمل يحمله عبد الرحمن وسيفه يقطر دماً.. يبدو أن أمية بن خلف يحمل سراً.. فلقد تطلق وجهه واستبشر عندما رأى عبد الرحمن بن

عوف.. ويبدو أن عبد الرحمن بن عوف يحمل في ذاكرته المزيد عن تفاصيل ما حدث في بدر.. دعونا نستمع إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يحكي سر أمية.. وآخر آمال أمية.. فهو إن لم ينج الآن على يد صديقه ابن عوف فسوف ينتن على أرض بدر..

قصة أمية وعبد الرحمن بن عوف

كان أمية وعبد الرحمن صديقين في الجاهلية.. وكان بينهما تعامل تجاري بعد الإسلام.. بل وبعد الهجرة.. هذه العلاقة تخللتها قصة مثيرة.. بدأت في مكة قبل الإسلام فمتى ستنتهي..؟ يحدثنا عن بدايتها وعن نهايتها عبد الرحمن بن عوف فيقول:

(كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت: عبد الرحمن، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ فأقول: نعم هداني الله للإسلام فتسميت عبد الرحمن. قال: إني لا أعرف الرحمن)(١).. ومضت الأيام والأحداث بالاثنين.. بقي أمية في مكة على شركه وأصنامه.. وهاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة.. ومارس التجارة بعد أن دلوه على سوق المدينة فصار أحد تجارها.. ويمضي ابن عوف رضي الله عنه متحدثاً عن قصته مع أمية وهو في المدينة فيقول:

---

(١) حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٩١): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قالا: كان عبد الرحمن بن عوف يقول: وفي الطريق الثانية انقطاع بين صالح وجده لكن عباد بن عبد الله بن الزبير تابعي كبير والحديث بعد هذا حسن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو ما بعده.

(كاتبت أمية بن خلف كتاباً: بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة)[1].. (كان بيني وبين أمية بن خلف كتابٌ بأن يحفظني في ضياعي بمكة، وأحفظه في ضياعه بالمدينة، فلما ذكرت: الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبد عمرو.. فلما كان يوم بدر)[2] (مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده، ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال:

عبد عمرو.. فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك في، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك؟ قلت: نعم، ها الله.

فطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن، ثم خرجت أمشي بينهما)[3] (خرجت به إلى شعب لأحرزه حتى يأمن الناس)[4].

وتوجه الثلاثة إلى ذلك الشعب، ثم توجهوا (إلى جبل)[5].. فارتاحت نفس أمية بن خلف.. يا لها من أيام عصيبة تلك التي كانت تحمل في دقائقها الموت والحياة معاً لأمية.. اطمأن أمية فتحدث عن اللبن الذي سيشربه ابن عوف وأصحابه من نياق أمية التي سيفتدي

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١) والصاغية: الحاشية والأتباع.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣/٩٠).

(٣) حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٩١): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قالا: كان عبد الرحمن بن عوف يقول: وفي الطريق الثانية انقطاع بين صالح وجده لكن عباد بن عبد الله ابن الزبير تابعي كبير والحديث بعد هذا حسن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو ما بعده.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣/٩٠).

(٥) جزء من حديث البخاري (٢٣٠١).

نفسه وابنه بها.. واسترخت أعصابه فاسترسل في الحديث وقال لعبد الرحمن بن عوف وهو يمشي (بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله: من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: حمزة. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل)(١).

وواصلوا المشي والمسير.. وفجأة دوت صرخة مرعبة من بعيد اتسعت لها عيون أمية وابنه.. صرخة قلبت أرض بدرٍ على رأس أمية من جديد.. صرخة من أعماق مضطهد لا تزال جراحه تلتهب.. يقول عبد الرحمن بن عوف:

(فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي -وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على الإسلام- فلما رآه قال:

رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أي بلال، أسيري.

قال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته:

يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا)(٢).

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٤٣٩/٢) حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف.. وهذا السند صحيح فإبراهيم بن سعد له رؤية وابنه تابعي ثقة فاضل عابد (التقريب ٣٨/١، ٢٨٦/١) وشيخ ابن إسحاق ثقة وليس كما توحي ترجمته في التهذيب فجرح ابن حبان لا يضره.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٤٣٩/٢) حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف.. وهذا السند صحيح فإبراهيم بن سعد له رؤية وابنه تابعي ثقة فاضلٍ عابد (التقريب ٣٨/١، ٢٨٦/١)

(فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية بن خلف، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً فلما أدركونا قلت له: أبرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخللوه بالسيوف من تحتي)[1] (فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة[2]، فأنا أذب عنه، فأخلف رجل بالسيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، قلت:

انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً، فهبروهما بأسيافهما حتى فرغوا منهما)[3]..

(قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه)[4]..

يتذكر عبد الرحمن رضي الله عنه ذلك مبتسماً ويقول: (يرحم الله بلالاً فجعني بأدراعي وبأسيري)[5].

وانتهت قصة أمية الطويلة كما تنتهي قصص كثير من أمثاله الذين قضوا حياتهم في التعذيب والتنكيل بمن يقع بين أيديهم من المؤمنين والضعفاء والمساكين..

= وشيخ ابن إسحاق ثقة وليس كما توحي ترجمته في التهذيب فجرح ابن حبان لا يضره.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١).

(٢) ربما كان يعني البئر الصلبة التي لا تحتاج إلى طي.

(٣) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٤) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٥) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

انتهت حياته على يد من كان يتفنن في تعذيبه وكان يسلقه تحت شمس مكة المحرقة.. لقد (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة)[1].

دفنه أمية.. فهل سيدفن أمية بالحجارة..

لم تنته المعركة بعد.. والساحة حبلى بالمشاهد المثيرة.. المثيرة.. فهذا سعد بن أبي وقاص وقد سقط أخوه الصغير عمير شهيداً... يقاتل بضراوة وكأنه يقاتل عن اثنين.. كأنه يقاتل عن أخيه الصغير.. يشاهده عبد الله ابن مسعود فيتعجب من شجاعته..

ويقول: (كان سعد يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قتال الفارس والراجل)[2].. وفي مكان آخر كان الزبير بن العوام فارساً يقتحم قلعة من الحديد فتتهاوى بين يديه.. يقول رضي الله عنه: (لقيت يوم بدر عبيد بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش فحملت عليه بالعترة فطعنته في عينه فمات)[3].

وسقط مع من سقط من الكفار الذين ملأت جثثهم أرض بدر.. ورأى المشركون ما يحدث لقادتهم وأبطالهم.. فجمعوا شظايا عزم

---

(١) حديث صحيح مر معنا في المجلد الأول.

(٢) سنده قوي. رواه البزار (٢/٣١٥) حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود.. وهذا السند صحيح لولا الانقطاع بين إبراهيم وابن مسعود.. لكن البزار روى الحديث متصلاً. حدثنا إبراهيم بن يوسف الكوفي حدثنا أبو معاوية.. به لكنه جعل علقمة بين إبراهيم وابن مسعود... وحسب درجة إبراهيم الكوفي في التقريب فإنه صدوق له لين لكن الصواب أنه: ثقة فجرح النسائي غير مفسر انظر التهذيب (١/١٨٥).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٨).

لديهم.. فشدوا على المسلمين في محاولة يائسة.. محاولة كالانتحار.. وهي في حركتها تشبه كتلة من اللهب تهوي على الأرض فتنطفئ لكنها تؤذي من يتصدى لها.. ومع ذلك كان أشجع الناس يتقدم كالموج يطفئها.. كالموت يخمدها.. وخلفه كان سعد الذي يقاتل كرجلين.. والزبير الذي يهزم الحديد.. وعلي بن أبي طالب بشجاعته المعروفة.. وعمه حمزة الذي فعل بهم الأفاعيل.. وعمر بن الخطاب الذي تهابه كل قريش.. وأبو بكر الصديق درع رسول الله ﷺ هؤلاء الذين صنعوا الأحداث والتاريخ.. هؤلاء وغيرهم قاتلوا في ساعة من ساعات بدر خلف ذلك الشجاع فمن هو:

أشجع رجلٍ في بدر؟

إنه رسول الله ﷺ.. وأحد الذين كانوا يلوذون بشجاعة رسول الله ﷺ.. أحد الذين كانوا يلوذون بسيف رسول الله ﷺ يحدثنا بنفسه فيقول:

(لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[1] و (لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ وكان أشد الناس بأساً)[2].

وأمام هذا البأس تساقط المشركون من اليأس.. وتفتت آخر حلم وثني على أرض بدر.. وعلى سماء بدر أيضاً.. فجيش محمد ﷺ ليس على الأرض فقط.. بل وفي السماء له جيش.. أحد الذين كانوا يقاتلون

---

(١) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة (٣٥٤/٧) وانظر ما بعده.

(٢) حديث صحيح. رواه أحمد (١٢٦/١) والبيهقي (٦٩/٣) واللفظ... وسنده وسند ما قبله هو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي رضي الله عنه.. وهو سند صحيح مر معنا كثيراً.

المؤمنين.. أحد الذين أصابهم اليأس والإحباط رأى بين السماء والأرض شيئاً كالبساط.. شيئاً قادماً لمحمدٍ ولأصحاب محمد ﷺ.. فماذا رأى جبير بن مطعم.. وما هو أثره على قومه.. يقول جبير: (رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود، أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشكك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم)[1] الكافرين الذين تطايروا من جديد كالشظايا هرباً من الموت القاسي الذي يمتطي نواضح يثرب بعد أن أطلقه ﷺ في وجوه المشركين.. أطلق شباب الإسلام حماساً يفتك بأوصال الوثنية.. حماساً أوقده ﷺ عندما قال:

(من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فسارع في ذلك شبان الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات)[2].

وبين بريق الانتصار وبرق التسابق نحو رقاب الطغاة كان هناك من يسابق الشباب نحو تلك الرقاب.. هذا أحد شباب الإسلام.. واسمه الحارث ويكنونه بأبي واقد الليثي.. يشتد مسرعاً نحو أحد الطغاة فيشاهد العجب.. العجب يقول رضي الله عنه: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله)[3]..

---

(١) سنده قوي. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٦١): حدثني أبي عن جبير بن مطعم... وهذا السند قوي والد ابن إسحاق ثقة وقد روى عن معاوية ومعاوية توفي بعد جبير بن مطعم رضي الله عنهما.

(٢) حديث صحيح. وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢/٥٢٢).

(٣) سنده حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٥٦) حدثني والدي إسحاق بن يسار حدثني رجال من بني مازن عن أبي واقد الليثي.. وهذا السند حسن لأن شيوخ والد ابن إسحاق وهو ثقة جمع ووالد ابن إسحاق يروي عن الصحابة وعن كبار التابعين... فإن كانوا صحابة فالسند صحيح وإن كانوا من كبار التابعين فيقوي بعضهم بعضاً.

كان أحد الملائكة لا شك.. الملائكة التي تحز الرقـــاب.. وتلطـــم الأنوف والوجوه المشركة.. فبين السماء والأرض كان هناك صـــراخ.. كان هناك حيزوم.. ولا أدري ما هو هذا المخلوق الذي تردد اسمـــه في الفضاء.. هل هو جواد ذو أجنحة أم أن حيزوماً ملك من الملائكة.. لكنه كان مسرعاً لا شك.. يسابق أحد الفرسان نحو أحد المشركين..

فـــ (بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم..، إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً، فنظرنا إليه، فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال:

صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة)[1] ومدد السماء لم يقتصر على حز الرقاب ولطم الأنوف والوجوه وتمريغها في الذل.. مدد السماء كان يفعل شيئاً آخر.. عم رسول الله ﷺ.. العباس بن عبد المطلب كان قـــد خرج مع قريش فوقع في الأسر.. وها هو الأنصاري الذي أسره يقتـــاده نحو رسول الله ﷺ.. لكن العباس يصر على أن هذا الأنصاري القصير لم يأسره.. والأنصاري يصر على أنه أسره.. لم يكـــذب الأنصـــاري ولم يكذب العباس.. والحقيقة عند رسول الله ﷺ.. لقد (جاء رجـــل مـــن الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس:

يا رسول الله، والله إن هذا ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح مـــن أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم.. فقال الأنصاري:

أنا أسرته يا رسول الله، فقال ﷺ:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له (٣/٥٢).

اسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم)[1].. لا بشيطان رجيم.. لكن يا ترى أين الشيطان الرجيم من هذه الأحداث.. لا شك أنه بين صفوف المشركين يتلقى نصيبه من الهزيمة والذل.. أخبرنا عن ذلك ربنا وهو يقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2] لقد هرب إبليس.. رآه بعض المشركين وكل الذي أعرفه عنه في تلك المعركة أنه أغواهم ثم تبرأ منهم وفر كفأرٍ جبان من أرض المعركة وهو على صورة ذلك الرجل الذي طارد رسول الله ﷺ وطارد أبا بكر في طريق الهجرة إلى المدينة.. لقد كان إبليس في صورة «سراقة بن مالك»[3] ولما تهاوت الأجساد من حوله وشخبت الدماء منها خاف أن يلقى المصير الذي لقيته تلك الجثث ففر.. وفر المشركون قبله.. تطايروا كالشظايا في الشعاب والجبال.. وانقشعوا عن أرض بدر.. وانقشع الغبار.. وهدأت الأنفاس.. تأمل ﷺ ذلك المشهد.. وتأمل فرسانه من حوله.. فإذا الساحة صمت حزين ورهيب.. منظر لا يسر.. سبعون

---

(١) هو جزء من حديث أحمد عن علي وقد مر معنا وهو صحيح. انظر الفتح الرباني (٢١/٣٠) وسيرة ابن كثير (٢/٤٢٢).

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٧، ٤٨.

(٣) لم يأت ذلك بسند صحيح لكن هناك روايات متفرقة ضعيفة عن عروة مرسلاً عند ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢/٣٨٦) وعنده أيضاً وعند البيهقي (٣/٥٢) بسند فيه جهالة وهو متصل، وعند الطبراني بسند ضعيف (٢/٤٣٣) وعند البيهقي بسند فيه انقطاع (٣/٧٨) وعند الطبري (٦/٢٦٥) بأسانيد ضعيفة ويصح من مجموع هذه الروايات ذكر إبليس وأنه كان في صورة سراقة.

جسداً من قريش بلا حراك.. سبعون جسداً من أبناء العمومة والعشيرة.. بلا أرواح.. ما الذي أوصلهم إلى هذه المأساة.. من هو الذي قادهم إلى هذه النهاية المخيفة.. إلى الهزيمة وإلى جهنم..؟ أبو جهل قادهم.. والشيطان أجج الشرك في نفوسهم.. أما يكفيهم ثلاثة عشر عاماً من حديث رسول الله ﷺ.. من حب رسول الله ﷺ ورحمته وحرصه عليهم..؟ نهاية مخيفة تلك التي انتهى إليها أولئك السبعون.. لقد فر أصحابهم وتركوهم للشمس والغبار.. وتركوا مثل هذا العدد بين القيود والحبال.. سبعون أسيراً يغشاهم الذل وتجللهم الهزيمة.. ها هو الشرير: عقبة بن أبي معيط مأسوراً.. وها هو أبو يزيد واسمه:سهيل بن عمرو مأسوراً أيضاً..

وها هم الصحابة يستجيبون لأمر الله وأمر رسوله ﷺ فيكتفون بأسر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وأسر ابن عمه عقيل بن أبي طالب لأنهم خرجوا كارهين لقتال رسول الله ﷺ كما قال نبي الله ﷺ: «من استطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كارهين»[1] لكن لماذا لم ينه ﷺ عن قتل أمية بن خلف وقد خرج كارهاً أيضاً..؟ السبب لا يحتاج إلى كثير من التفكير.. فأمية بن خلف كان من أشرس الناس على الإسلام وأتباعه خاصة بلال بن رباح بعكس بني عبد المطلب.. ثم إن أمية لم يكن كارهاً لقتال المسلمين.. إنه يتمنى سحقهم وسحق نبيهم ﷺ.. لكنه كان خائفاً على نفسه لأنه يدرك أن رسول الله ﷺ لم ولا ولن يكذب..

(١) رواه أحمد (٨٩/١) بسند حسن من أجل أبي سعيد شيخه وهو حسن الحديث من رجال البخاري (التقريب ٤٨٧/١) قال الحافظ: صدوق ربما أخطأ، ولعل الصواب أنه ثقة ربما أخطأ. انظر التهذيب وقد قال أبو سعيد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي... وهذا السند صحيح وقد مر معنا.

وقد توعده بالموت وهو يدرك خطورة وعيده ﷺ لذلك اشترى تلك الراحلة ليهرب عندما يلوح الخطر.. لكن الذي لاح لأميه لم يكن الخطر.. إنه شيء أكثر خطورة.. إنه بلال وقد (كان هو الذي يعذب بلالاً في مكة على الإسلام)(١).

ثم إن بني عبد المطلب دافعوا عن رسول الله ﷺ.. وشاركوه في المعاناة في الشُّعب.. لم يشذ عن هؤلاء الكرام إلا شرير يُسمى (أبو لهب) وهو لم يحضر إلى أرض المعركة.. ربما كان مريضاً.. وقد أسر بالإضافة إلى العباس وعقيل زوج حبيبة رسول الله ﷺ.. زوج ابنته زينب التي كانت كارهة لخروج زوجها.. وخائفة على دينها ونبيها وأبيها ﷺ.. وقد كان من السهل أسر هؤلاء الثلاثة فهم لا يشعرون في أعماقهم بأي دافع لهذه المعركة سوى عنجهية أبي جهل وغطرسته..

أبو جهل!! أين أبو جهل يا ترى؟ إنه ليس بين القتلى ولا بين الأسرى والحبال..

أين أبو جهل

ذلك المجرم.. الذي رفض الإسلام حسداً لأن النبوة لم تكن في بيته.. أين الطاغوت الذي أخرج قريشاً وهي كارهة لترقص حوله وهو يشرب الخمر..؟ إنه ليس بين القتلى ولا بين الأسرى.. لذلك (أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى)(٢) وقال لأصحابه: (من ينظر ما صنع أبو جهل)(٣)

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن قتل أمية بن خلف.

(٢) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن انقضاض معاذ بن عمرو بن الجموح على أبي جهل.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ – ٨٧).

(من يعلم ما فعل أبو جهل)[1] فتقدم رجل نحيل الجسم.. دقيق الساقين.. كان يرعى الغنم في مكة.. وكان أبو جهل قد استضعفه ذات يوم في مكة فآذاه.. تقدم هذا الرجل النحيل الصالح وقال لرسول الله ﷺ: (أنا يا نبي الله)[2] فانطلقت تلك الساقان تنفيذاً لإرادة رسول الله ﷺ.. وبعد قليل هدأتا وتمادتا نحو جريح يترف.. قد طارت ساقه وطار صوابه.. حدق به ابن مسعود فإذا هو أبو جهل (فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل.. قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قتله قومه)[3].

فقال ابن مسعود: (قد أخزاك الله. فقال: هل أعمد من رجل قتلتموه)[4] أي حقد ينضح من جثة هذا الطاغية.. وأي روح خبيثة تلك التي بين جنبيه.. لقد كان أبو جهل جثّة.. كتلةً متورمة من العناد.. فهل سيتركه ابن مسعود ليخبر رسول الله ﷺ أم ماذا..؟

ماذا فعل ابن مسعود بأبي جهل

قال رضي الله عنه: (أدركت أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً فقلت: أي عدو الله قد أخزاك الله. قال: وبم أخزاني من رجل قتلتموه..؟!

ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحيك فيه شيء، ومعه سيف له جيد فضربت يده، فوقع السيف من يده، فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: الله الذي لا إله إلا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ – ٨٧).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٧).

هو.. قلت: الله الذي لا إله إلا هو -حتى حلفني ثلاثاً- [قال: انطلق فاستثبت، فانطلقت فأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته] فقال رسول الله ﷺ: فانطلق فأرني. فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال:

هذا فرعون هذه الأمة)[1] رأسه هنا.. ورجله هناك.. وباقيه في مكان آخر.

أبو جهل الذي جمع الشرك كله.. ورفض الحكمة كلها.. أبو جهل الذي وصف رسول الله ﷺ وأصحابه بأهم مجرد لقمة.. مجرد أكلة جزور.. أبو جهل الذي اهم عقلاء قومه بالجبن يسقط على أرض بدر دون أن يمس أحداً من المسلمين بأذى.. دون أن يشفي غليله ولو بضربة واحدة.. أما سيف أبي جهل الثمين فلم تصدر منه سوى ضربة واحدة متجهة نحو صاحبها.. نحو أبي جهل.. هلاك أبي جهل مروع.. والتاريخ يكتب للطغاة بحبر المضطهدين.. لكنهم لا يقرأون.. ولا يفيد من التاريخ سوى العقلاء.. مات أبو جهل بسيفه.. والذين مزقوه شباب صغار.. والذي أجهز عليه أحد الضعفاء الذين أخافهم وأذلهم في شوارع مكة

---

(١) سنده قوي. رواه الطبراني (٨٣/٩) حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا أبو المعافى محمد بن وهب بن أبي كريمة الحراني حدثنا محمد بن أبي تملة عن أبي عبد الرحيم عن زيد ابن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.. وهذا السند قوي لولا محمد بن أبي تملة فلم أجد له من ترجمة. والصواب محمد بن سلمة الحراني ابن أخت عبد الرحيم الحراني فهو من تلاميذ خاله ومن شيوخ محمد بن وهب بن أبي كريمة الحراني. انظر التهذيب (٥٠٦/٩) (١٩٣/٩-١٩٤) وهؤلاء ثقات كلهم، وعمرو بن ميمون مخضرم ثقة مشهور، التقريب (٨٠/٢) أما شيخ الطبراني فهو حافظ جليل. انظر سير أعلام النبلاء (٥٧/١٤) وللحديث شواهد كثيرة منها شواهد عند الطبراني (٨١/٩-٨٢-٨٣) وفيها انقطاع بين أبي عبيدة ووالده... ومنها حديث سنده قوي عند البزار.

وأزقتها.. بل وفي بيت الله الحرام.. ترى هل يتذكر ابن مسعود وهو يقضي على أبي جهل ذلك اليوم الذي كان فيه خائفاً وهو في جوار الكعبة الآمنة ينظر إلى حبيبه ويتمزق حرقة لكنه لا يستطيع فعل شيء؟ فـ (بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل:

أيكم يقوم إلى سلا جزور (بني فلان) فيأخذه فيضعه على كتِفَي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحت عنه ثم أقبلت عليهم تسبهم. فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا.. دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم عليك بقريش.. اللهم عليك بقريش.. اللهم عليك بقريش.. فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته. ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط»[1] سقط هؤلاء كلهم.. كلهم إلا عقبة بن أبي معيط؟! فأين هو..؟ هذا المجرم لا يزال حياً.. إنه بين الأسرى ولا أدري ماذا سيفعل به رسول الله ﷺ لكنه يتعذب الآن بمنظر شركائه في الإجرام وقد بدأوا ينتنون وينتن شركهم.. وقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ عندما:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم كتاب الجهاد والسير، والبيهقي (٢/٢٨٠) واللفظ له.. ومابين القوسين داخل الحديث من صحيح مسلم.

(استقبل رسول الله ﷺ البيت فدعا على نفر من قريش فيهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط. قال ابن مسعود:

فأقسم بالله لقد رأيتهم صرعى على بدر، قد غيرتهم الشمس وكان يوماً حاراً)[1] وفي اليوم الحار تنتن الجثث سريعاً.. إذاً فلا بد من دفن تلك الجثث ولو كانت جثث كفار.. فالإسلام دين صحة ونظافة.. ورسول الله ﷺ يقول لأمته: (أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدموها عليه وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه على رقابكم)[2] لذلك أمر ﷺ أن تقذف تلك الجنائز في بئر خبيث كان موجوداً على أرض بدر.. فـ (نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث)[3].. يعج برائحة الموت ونتن الشرك.. و (لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة)[4]... هلك أمية بن خلف.. لم يحفر له قبر كبقية الناس.. تفسخ لحمه فتركوه ودفنوه بالحجارة بعد أن قتله بلال.. يال انتقام الجبار لبلال.. أيتذكر بلال وهو يرى عدوه مدفوناً بالحجارة.. أيتذكر تلك الأيام العصيبة عندما كان أمية

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٣٣٥).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢/٤٤٩) حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت:... وهذا السند صحيح. يزيد بن رومان تابعي صغير ثقة، وهو أحد موالي آل الزبير (التقريب ٢/٣٦٤) وشيخه لا يسأل عنه.

يدفنه بالحجارة في مثل هذه الأيام الحارة.. وتحت هذه الشمس المحرقة؟ لقد كان بلال حتى آخر لحظات الرق مدفوناً بالحجارة..

يقول أحد الذين أدركوا تلك الأحداث: (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة) [1] وها هو أمية: الطاغوت الذي دفن بلالاً.. هاهو يدفن بالحجارة أمام عيني بلال المسكين.. سبحانك ما أعظمك.. إنها دعوة المضطهدين والمظلومين.. وقبل أن يتخلص الرسول ﷺ من تلك الجثث تهادى إلى شهداء الإسلام.. شهداء بدر فكم كان عددهم:

ثمانية عشر شهيداً

دفنهم النبي ﷺ.. وتحدث عنهم ابن مسعود بحديث كالماء البارد فقال:

(إن الثمانية عشر الذين قتلوا من أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر جعل الله أرواحهم في الجنة في طير خضر تسرح في الجنة، قال: فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك اطلاعة فقال:

يا عبادي.. ماذا تشتهون؟ قالوا: يا ربنا ما فوق هذا شيء.. قال فيقول: عبادي ماذا تشتهون؟ فيقولون في الرابعة: ترد أرواحنا في أجسادنا فنقتل كما قتلنا) [2] إنهم يبحثون عن الموت من جديد.. يريدون فعل شيء

---

(١)حديث صحيح مر معنا في المجلد الأول.

(٢) سنده صحيح. رواه الطبراني (١٠/٢٤٩): حدثنا سليمان بن الحسن العطار أبو أيوب حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شفيق، سمعت أبي: أخبرني الحسين بن واقد عن الأعمش عن شقيق أن ابن مسعود حدثه أن الثمانية: وهذا السند صحيح: شقيق بن سلمة أدرك الجاهلية والإسلام التهذيب (٤/٣٦١) وسمع منه التابعي الثقة الأعمش، قال الأعمش: قال لي أبو وائل: يا سليمان لو رأيتني ونحن هراب من خالد بن الوليد... وقال =

يجعلهم يستحقون كل ما حولهم.. ويستحقون ما هم فيه من الرفاهية والدهشة التي لا يمكن وصفها.. وماذا يساوي ألم الموت أمام عوالم السعادة والابتهاج والخلود.. ماذا يساوي الموت و (الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[1].

دفن ﷺ شهداء بدر بثيابهم ودمائهم.. وبشرهم.. وبشر أمثالهم فيما بعد فقال:

(أنا شهيد على هؤلاء، لفوهم في دمائهم، فإنه ليس جريح يجرح في الله إلا جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[2] ويقول ﷺ: (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع

=

الأعمش عن إبراهيم: عليك بشقيق، فلا تضر عنعنة الأعمش، لا سيما وهما كوفيان، وتلميذه أبي الحسن ثقة (التقريب ١/١٨٠) وعلي بن الحسن وولده ثقتان (التقريب ٢/٣٤-٢/١٩٢) وشيخ الطبراني ثقة. انظر (سؤالات السهمي كما عزاه الشيخ عبد القدوس نذير في مجمع البحرين ٦/١٤٧).

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (١/٦٩٦).

(٢) سنده حسن. رواه البيهقي (٤/١١ السنن الكبرى) وابن سعد (٣/١٣) واللفظ له: أخبرني خالد بن مخلد، حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز الأنصاري حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه وهذا سند حسن من أجل عبد الرحمن وهو حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم (التقريب ١/٤٨٩) وخالد صدوق وللحديث شاهد عند البخاري وغيره.

الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته)[1].

هذا ما سيفرح به الشهداء من المهاجرين والأنصار... وما في الجنة أجمل وأبقى.. أما ما سيلقاه قتلى قريش فشيء مخيف ومرعب.. بشرهم به ﷺ.. خاطبهم وهم أكوام محشورون في تلك البئر المقرفة.. ولكن بعد ثلاثة أيام من انقضاء المعركة..

وقد كانت سنته ﷺ إذا انتصر في معركة أن يقيم ثلاثة أيام[2] على أرض المعركة بعد انقضائها ثم يعود إلى المدينة.. ربما كان ذلك لتأكيد الانتصار والمحافظة عليه من أية محاولة -ربما- تقوم بها الفلول الخاسرة لتعويض خسارتها.. وفي تلك الأيام الثلاثة كان النبي ﷺ مشغولاً بتركة هذا الانتصار.. مشغولاً بقضايا وهموم تحتاج إلى أكثر من التفكير.. ومن هذه القضايا والهموم.

قضية الغنائم

فالغنائم بالنسبة للذين حضروا بدراً لا تعني رصيداً مادياً أبداً.. إنها أكبر من ذلك.. والصحابة مهاجرون وأنصار أكبر من هذا التفكير فالمهاجرون تركوا أموالهم لله.. والأنصار شاطروا إخوانهم وأموالهم

(١) سنده صحيح. رواه الإمام أحمد (١٣١/٤) عن شيخيه قالا: حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام رضي الله عنه... وهذا السند صحيح لرواية إسماعيل الحمصي عن شيخه بحير وهو حمصي ثقة ثبت.. التقريب (١٣/١) وخالد بن معدان تابعي وثقة عابد من رجال الشيخين (٢١٨/١ التقريب).

(٢) قال أبو طلحة: إن رسول الله ﷺ: (كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال) وهو حديث صحيح رواه البخاري وسيمر معنا.

ودورهم.. لكنها غنائم أول معركة مع رسول الله ﷺ.. وأول معركة ضد كفار قريش الذين أخرجوا رسول الله ﷺ.. وأول معركة في الإســـلام.. والمشاركة فيها والحصول على شيء من غنائمها له في النفوس أثر ينـــام ويصحو مع الإنسان ويظلله في كل مكان يسير ويخطو عليه.. أثر يتطهر معه أهل بدر من كل ذنوبهم.. لست أبالغ فرسول الله ﷺ يقول:

(لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة)[1] ثم إن الصحابة بشر.. يصيبون ويخطئون فيقـــوم ﷺ بتصـــحيح أخطائهم.. لتصحح الأمة أخطاءها وتأخذ أحكامها من هذه الأحداث.. وليس هناك أخصب من المعارك للانفعال والتأثر والخطأ.. فماذا حـــدث من الصحابة ومارأي بعضهم حول الغنائم؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه وعنهم: (إن النبي ﷺ قال من أتى مكان كذا وكذا، فله كذا وكذا، أو فعل كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع إليه الشبان، وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما فتح الله عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[2] والآية التي نزلت هي قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٨٣).

(٢) سنده صحيح. رواه ابن جرير (٦/١٧١-١٧٢) من طرق عدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس، وداود تابعي صغير وثقة متقن من رجال مسلم (التقريب ١/٢٣٥) وشيخه عكرمة مولى ابن عباس، وتلميذه تابعي عالم وثقة ثبت من رجـــال البخـــاري ومسلم وقد مر معنا (التقريب ١/٣٠).

مُّؤْمِنِينَ﴾[1] ولكي تتضح الرؤية جيداً دعونا نمشي خلف هذا الشاب الذي يحمل بيديه سيفين.. سيفه وسيف رجل من المشركين.. إنه يتوجه نحو رسول الله ﷺ.. يستأذنه ويرجوه أن يمنحه هذا السيف (فأتى به رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله نفلنيه.. فقال: ضعه.. ثم قام فقال: يا رسول الله: نفلنيه.. فقال ﷺ: ضعه.. ثم قام فقال: يا رسول الله نفلنيه.. أُجعل كمن لا غَنَاء له؟ فقال النبي ﷺ: ضعه من حيث أخذته)[2] هذا الشاب هو سعد بن أبي وقاص حيث يقول: (جئت إلى النبي ﷺ يوم بدر بسيف فقلت: يا رسول الله.. إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو فهب لي هذا السيف.. فقال ﷺ: إن هذا السيف ليس لي ولا لك، فذهبت وأنا أقول: يعطاه اليوم من لم يبل بلائي، فبينا أنا إذ جاءني الرسول فقال: أجب.. فظننت أنه قد نزل في شيءٍ من كلامي، فجئت، فقال لي النبي ﷺ: إنك سألتني هذا السيف وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي، فهو لك ثم قرأ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾)[3].. إذاً كان السيف ليس لرسول الله ﷺ ولا لسعد بن أبي وقاص وكذلك الغنائم.. فلمن كانت الغنائم في الحروب التي خاضها الأنبياء من قبل..؟ لقد كانت الغنائم تحرق..

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١.

(٢) سنده قوي. رواه جرير (١/١٧٣) والبيهقي في السنن (٦/١٩١) والحاكم (٢/١٣٢) من طرق عن: سماك بن حرب، سمعت مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه... وسماك صدوق من رجال مسلم (التقريب ٣٣٢) وروايته قوية إلا عن عكرمة، وهذه ليست منها، وهو تابعي وسمع من تابعي هو مصعب بن سعد وهو ثقة من رجال الشيخين (التقريب ٢/٢٥١).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له (٦/٢٩١ من السنن).

إحراق الغنائم

شيء غريب.. فمن هو الذي يحرق الغنائم ولماذا تحرق؟ يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (لما كان يوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم فأصابوها فقال رسول الله ﷺ: إن الغنيمة لا تحل لأحد سود الرؤوس غيركم، وكان النبي[1] ﷺ وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ونزلت نار فأكلتها فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾[2].

نزلت هذه الآيات فترك المجاهدون اجتهاداتهم لوحي السماء فليس مع الوحي الصريح اجتهاد.. وسلموا الأمر لله ولرسوله ﷺ.. وسلمت الغنائم لرسول الله ﷺ.. فوزعها على المهاجرين والأنصار ففرحوا بها.. كانت أول هدايا الله للنبي وأصحابه على أرض معركة.. وكانوا أول أمة تباح لها الغنائم..

فرح سعد بن أبي وقاص بسيفه وبشيء آخر مع سيفه.. أما علي بن أبي طالب فكان نصيبه من الإبل.. حيث يقول رضي الله عنه:

(كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ)[3] إذاً فعلي رضي الله عنه

(١) من الأنبياء السابقين.

(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود الطيالسي (١٩/٢) واللفظ له والبيهقي (٢٩٠/٦) عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وهو سند صحيح، والحديث رواه الترمذي وصححه الألباني (٥٣/٣) ورواه أيضاً ابن حبان (الموارد ٤٠٢).

(٣) رواه البخاري. كتاب فرض الخمس - باب فرض الخمس، فتح الباري (٢٤١/٦).

حصل على بعيرين بعير من نصيبه من الغنائم.. وبعير من الخمس.. فما هو الخمس الذي تحدث عنه علي بن أبي طالب هنا..؟ الإجابة بسيطة.. فقد أمر الله سبحانه بتقسيم غنائم الحرب إلى خمسة أجزاء.. أربعة أجزاء للمجاهدين المشاركين في المعركة.. أما الجزء الخامس فيقسم أيضاً إلى خمسة أجزاء:

١- جزء لله وللرسول.

٢- جزء لقرابة الرسول ﷺ.

٣- جزء ليتامى المسلمين الذين فقدوا آباءهم.

٤- جزء للمساكين المحتاجين من المسلمين.

٥- جزء للمسافرين الذين فقدوا أموالهم أو نفذت أموالهم وليس لديهم ما يسد حاجتهم للمواصلة أو الرجوع إلى ديارهم.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] ويوم الفرقان هو يوم بدر..

انتهى المسلمون من قضية الغنائم وتقسيمها وبقيت قضية أخرى لا تقل عنها.. إنها:

قضية الأسرى

أما الأسرى فقد نظر إليهم النبي ﷺ نظرة أسف.. ثم نطق بالوفاء كله

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

لأحد رجالات قريش الكرام الذين كانوا مثالاً في احترام النفس واحترام الآخرين.. رجل شهم كأبي طالب.. إنه المطعم بن عدي، ذلك الرجل الذي حمى رسول الله ﷺ في مكة يوماً من الأيام.. تذكر ﷺ موقف المطعم بن عدي فانطلقت مشاعر الوفاء منه فباح بها وقال:

(لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتن لأطلقتهم له)[1] لكن المطعم بن عدي تحت الثرى.. ولم يترل على رسول الله ﷺ وحي في أمرهم حتى الآن.. فكانت المشورة.. توجه ﷺ نحو أبي بكر وعمر وعلي يستشيرهم: ماذا يفعل بهؤلاء الأسرى..

فرسول الله ﷺ إذا لم يترل عليه الوحي لا يستبد برأيه ولا يفرضه على من حوله.. وقد قال ﷺ في أول المعركة:

أشيروا علي أيها الناس.. وها هو يتجه بالمشورة في آخر المعركة نحو أبي بكر وعمر وعلي.. فكانت الإجابة:

رأياً لأبي بكر ورأياً لعمر

فبأيهما سيأخذ.. يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

(لما أسروا الأسارى، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: أين أبو بكر وعمر وعلي؟)[2]..

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٤).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير في التفسير (٢٨٧/٦) واللفظ له.. من طريق عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل، حدثني عبد الله بن عباس وتلميذ عكرمة عند ابن جرير هو الثقة عمر بن يونس اليمامي وتلميذه شيخ ابن جرير أوثق منه وهو محمد بن بشار الشهير بـ (بندار). انظر التقريب (٦٤/٢) و (١٤٧/٢).

وجاء أبو بكر وجاء عمر وجاء علي رضي الله عنهم.. ولما وقفوا أمامه ﷺ قال لهم: (ما ترون في الأسارى؟

فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو.. ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم:

فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه.. وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه.. وتمكنني من فلان -نسيب لعمر- فأضرب عنقه.

فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت -قال عمر- فلما كان من الغد، جئت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت. فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عُرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة.. -لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ- فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا...﴾[1])[2].

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٧-٦٩.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير في التفسير (٦/٢٨٧) واللفظ له.. من طريق عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل، حدثني عبد الله بن عباس وتلميذ عكرمة عند ابن جرير هو الثقة عمر بن يونس اليمامي وتلميذه شيخ ابن جرير أوثق منه وهو محمد بن بشار الشهير بـ (بندار). انظر التقريب (٢/٦٤) و (٢/١٤٧).

بكى ﷺ وبكى صاحبه من خشية الله.. وتلا على أصحابه عتـــاب الله له.. لم يخفه عنهم.. و لم يضمر هذه الآيات في نفسه.. بل أعلنها للجميـــع.. أعلنها لأنها وحي.. وأعلنها لأنه صادق.. ولو لم يكن صادقاً لما كان نبياً.. كانت تلك الآيات تحمل كرامة لعمر وتصويباً لرأيـــه.. فهـــؤلاء الرجـــال خرجوا لحرب الله ورسوله.. صحيح أن بعضهم كاره والبعض قد استدرج واستفز من قبل أبي جهل.. لكن ألا يستطيع هؤلاء وهؤلاء أن يقولوا: لا؟!

تألم ﷺ لما حدث.. لكن الله رحيم بنبيه.. لم يتركه لآلامه ودموعه.. بعث له جبريل مرة أخرى.. يحمل بشرى بالفداء والجنة..

ها هو (جبريل نزل على النبي ﷺ في أسارى بدر فقال:

إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء واستشهد قابل منكم سبعون.. فنادى النبي ﷺ في أصحابه.. فجاءوا، أو من جاء منهم، فقال ﷺ:

هذا جبريل يخيركم بين أن تقدموهم فتقتلوهم، وبين أن تفـــادوهم واستشهد قابل منكم بعدهم.. فقالوا:

بل نفاديهم فنتقوى به علـــيهم، ويـــدخل منـــا الجنـــة ســـبعون، ففادوهم)[1].أي يستشهد منا سبعون في السنة القادمة.

---

(١) سنده صحيح. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه (سيرة ابن كثير ٢/٤٦٠) عن عبيـــدة عن علي ورواه ابن سعد (٢/٢٢) عن ابن سيرين عن عبيدة مرسلاً وهو كمـــا تـــرى موصول عند أصحاب السنن المذكورين.. وسنده صحيح وهو: سفيان الثوري عن هشام ابن حسان، عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي وهذا الســـند كالـــذهب: عبيـــدة السلماني تابعي كبير، ومخضرم ثقة ثبت، من رجال الشيخين (التقريب ١/٥٤٧) وتلميذه تابعي ثقة ثبت عابد كبير القدر لا يرى الرواية بالمعنى قال عنه تلميذه الثقة وأثبت الناس عنه هشام بن حسان: حدثني أصدق من أدركته من البشر (التهذيب ٩/٢١٥) وتلميذه ثقة (التقريب ٢/٣١٨) وسفيان ثقة وعلم من أعلام الأمة.

وهكذا (فادى النبي ﷺ بأسارى بدر، فكان فداء كل واحد منهم أربعة آلاف)[1] أي أربعة آلاف درهم..

إعدام طاغوت

فقبل أن يطلبوا من أسراهم الفداء أمر ﷺ بإخراج أحد المجرمين من بين الأسرى.. واسم هذا المجرم: عقبة بن أبي معيط.. أمر ﷺ بإخراج عقبة هذا فهو لن يقبل منه فداءً ولا مالاً.. لأنه لا يقل شراسة وإجراماً عن أبي جهل.. عقبة كان فرعوناً آخر لهذه الأمة.. إنه مجرم.. لقد عزم يوماً على قتل رسول الله ﷺ.. ليس في الطريق.. وليس في بيته ولا في الصحراء.. لقد قرر عقبة أن يقتل رسول الله ﷺ.. وهو آمن مع ربه في بيته الحرام الذي يلقى فيه الرجل قاتل أبيه فلا يتعرض له.. لكن عقبة كان كتلة من الحقد والكفر والإجرام.. سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: (حدثني بأشر شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: أقبل عقبة بن أبي معيط ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذه بمنكبيه فدفعه عن رسول الله ﷺ ثم قال:

أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[2].

---

(١) رواه عبد الرزاق (٢٠٦/٥) عن معمر بن قتادة قال: وأخبرني عثمان الجزري عن مقسم عن ابن عباس قال: وفي هذا السند إرسال قتادة لكن معمر رواه من طريق آخر وهي متصلة وفيها ضعف من أجل عثمان الجزري ففيه ضعف. انظر الجرح والتعديل. وللحديث شاهد -في مقدار الفدية- سيمر معنا بعد قليل عند الحديث عن فداء أحد المشركين واسمه... وداعة.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي من الطريق نفسه (٢٧٤/٢).

وفشلت محاولة عقبة.. أفشلها أسد من أسود الإسلام.. أحبطها أبو بكر رضي الله عنه.. فانسحب عقبة وهو يضمر شراً.. فلما خرجت قريش إلى بدر أشراً وبطراً خرج عقبة معها لينفس عن أحقاده وشروره.. لعله يحظى برأس محمد وصاحبه أبي بكر معاً.. لكنه فشل من جديد.. وها هو علي بن أبي طالب يجتره من بين الأسرى وهو يرتعد خوفاً من الموت فيحاول أن يدفع الموت عنه بكلمة يستدر بها رحمةً.. أي رحمة؟.. لكن رسول الله ﷺ يقتله بكلمة قبل أن يقول السيف كلمته.. حدث ذلك عندما (قام علي بن أبي طالب فقتله صبراً.. قال:

من للصبية يا محمد؟ قال ﷺ: النار)[1] عقبة يذكر الصبية لكنه لا يذكر الله ولا الإسلام وكأن سبب هذه المعركة ثأر قديم أو خلاف في وجهات النظر بين أفراد قبيلة واحدة.. ومع ذلك فيمكن لعقبة أن ينجو من الموت.. وأن ينجو من النار لو أنه اختار الله ورسوله.. لكنه وهو على شفير الموت يرفض ذلك.. لو تشهد لنجا من سيف علي.. لكنه يرفض أن يكون عبداً لله وحده ويرضى بأن يكون عبداً لحجر ملقى على ظهر الكعبة هو صنعه بيديه.. بل حاول قتل رسول الله ﷺ من أجل ذلك الحجر.. فكان لعقبة ما اختار من لهيب السيف والنار.. وقذف عقبة مع أصحابه في تلك القليب النتنة المحشوة عفناً وكفراً وجحيماً.. قذف عقبة باختياره.. أما رسول الله ﷺ فلم يكن يكره أن يسلم عقبة والأسرى جميعاً.. لقد نفذ أمر ربه الذي يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠﴾[2] ورسول الله ﷺ كان رحيماً فلم يكره أن يسلم عقبة ابن أبي معيط.. لم

(١) هو آخر حديث عبد الرزاق السابق (٥/٢٠٦).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

يكره أن ينجو من سيف علي.. فدخول عقبة في دار الإيمان يكفل حمايته من السيف.. ومن سيوف المؤمنين جميعاً.. ها هو أحد فرسان بدر.. المقداد بن عمرو.. يبعث برسالة إلى العالم.. من أقصاه إلى أقصاه.. من خلال حوار متحضر جداً مع رسول الله ﷺ.. قال المقداد لنبيه ﷺ: (يا رسول الله.. أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله.

أقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله. فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها؟! فقال رسول الله ﷺ:

لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمترلتك قبل أن تقتله، وإنك بمترلته قبل أن يقول كلمته التي قال)[1].

هذا هو الإسلام.. وهذا هو خطابه لأتباعه والعالم: لا شأن لكم بالنوايا.. لا شأن لكم.. ولا يعرف ما في القلوب إلا من خلقها..

وقد رفض عقبة هذا الخطاب الجميل.. فغادر إلى الجحيم غير مأسوف عليه..

بقية الأسرى في نعيم

بقية الأسرى لم يسحبوا إلى قليب.. ولم يُقتادوا إلى معسكرات تجويع وتعذيب.. ولم يؤمروا بالقيام بأعمال شاقة.. فمنذ أغمد الصحابة سيوفهم تحولت الساحة من أنهار دم إلى واحات سلام..شرب فيها الأسرى وأكلوا وناموا أكثر من الصحابة وأكثر من نبيهم عليه الصلاة

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠١٩).

والسلام.. شيء لا يصدق لأنه لم يحدث من قبل.. شيء لا يصدق.. أيعقل أن يعامل المسلمون هؤلاء المشركين الذين حملوا السيوف وطردوا الرسول ﷺ واغتصبوا المال والدار.. أيعقل أن يعاملوا معاملة المسكين.. والطفل اليتيم.. أجل يعقل إذا كان القائد هو محمد ﷺ وكان الجيش من الصحابة.. ها هم يقدمون طعاماً للأسرى أفضل من طعامهم رغم جوعهم ورغبتهم الملحة فيه.. ليس لأنهم أبناء العمومة والعشيرة.. ولا لطمعهم بفدية أكثر فإن من المشركين من لا يملك إلا سيفه.. السبب ببساطة هو وعد نزل كالمطر من السماء.. فأنبت في قلوب المؤمنين تلك الرياض وتلك الرعاية وذلك الفيض من العطاء.. وحي من الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1].

هذه هي معسكرات الأسر في الإسلام مهما كان الأسير مجرماً أو مشركاً أو حتى ملحداً.. هذا هو مفهوم الحبس في الإسلام إن كان في الإسلام حبس.. أسير مشرك خرج لسفك الدماء يخجل من كرم آسره.. وآسر يستحي أن يقدم لأسيره طعاماً أقل من طعامه أو مساوياً له.. يكتفي الصحابة بالتمر والماء.. ويقدمون الخبز واللحم -إن وجد- لأسراهم.. أخلاق زرعها ﷺ في أعماق أصحابه.. أخلاق تعادل درجات من الصلاة والصيام لا يطيقها الإنسان.. بشرهم ﷺ بذلك عندما قال لهم: (إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار)[2].. ومن هو الذي يصلي ليله كله لا يفتر.. ويصوم كل يوم ولا يفطر.. قال

(١) سورة الإنسان: الآيات ٥-٩.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (١/٣٣٤).

لهم ﷺ: (إن أقربكم مني مترلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً في الدنيا)[1] (إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً)[2] و (من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار)[3] غرس ﷺ تلك الأخلاق عندما قال لهم: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة.. والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)[4] و (أنا زعيم ببيت في.. أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[5].

سحابة عطر كان محمد ﷺ وأصحابه.. بعد أن كانوا قبل قليل عاصفة من السلاح والموت.. سحابةٌ شعر الأسرى تحتها بالارتياح.. شعروا بنسيم الإسلام البارد يغمرهم ويلطف لفح الصحراء من حولهم.. وانتشى الأنصار من جديد وتوهج كرمهم وحبهم لرسول الله ﷺ بالإيثار من جديد.. يقول أحد أبنائهم: (إن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا: إيذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه، فقال: لا والله.. لا تذرون منه درهماً)[6] وطالب رسول الله عمه العباس بالفداء.. بل كان فداء العباس أكثر من فداء غيره..

مكث ﷺ على أرض المعركة ثلاثة أيام كان فيها مشغولاً بأصحابه.. يعالج قضاياهم وجرحاهم ويتلقى الوحي من الله سبحانه في علاجه ذلك.. لم يكن ﷺ مشغولاً بمن معه فقط بل كان يعيش بقلبه وشعوره مع أحباب لا يراهم حوله.. كان بقلبه وشعوره بين حرات المدينة.. يتذكر

(١) حديث حسن. صحيح الجامع (٣٢٧/١).
(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (٤٣٨/١).
(٣) حديث صحيح. صحيح الجامع (١١٠٥/٢).
(٤) حديث صحيح. صحيح الجامع (٣١٠/١).
(٥) حديث حسن. صحيح الجامع (٣٠٦/١).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠١٨).

أصحابه.. وأهله.. وحبيبته التي لا يدري ما فعل المرض بها.. لا يدري أي حالة تعيشها ابنته رقية.. ترى هل تعافت من مرضها أم أن الأوجاع تداعت على شبابها.. تذكر ﷺ المدينة ومن فيها فأرسل ابنه زيد -زيد بن حارثة[1]- ليبشر المدينة بنصر الله.. والقضاء على طواغيت قريش.. يبشر بأسر أشرافهم في يوم الإسلام العظيم.. يوم الفرقان.. وقد كان ابنه أسامة ابن زيد ملازماً لعثمان ورقية في مرضها.. وكان مع أول من استقبل والده وأخباره..

أسامة يحدثنا عن ذلك فيقول: (إن النبي ﷺ خلف عثمان بن عفان، وأسامة بن زيد على رقية بنت رسول الله ﷺ أيام بدر، فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، قال أسامة: فسمعت الهيعة، فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة، فوالله ما صدقت حتى رأيت الأسارى، فضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه)[2] وهذا يعني أن عثمان كان يريد الخروج مع رسول الله ﷺ لكن رسول الله ﷺ أمره بالبقاء لتمريض زوجته رقية.. قال عبد الله بن عمر بن الخطاب إن عثمان بن عفان (كانت تحته

---

(١) كان يسمى في ذلك الوقت زيد بن محمد.

(٢) سنده حسن. رواه البيهقي (٣/١٣٠) أخبرنا أبو الحسن المقرئ وهو إمام حافظ ناقد. انظر السير للذهبي (١٧/٣٠٥) وشيخه الحسن الدقاق صحيح السماع من أهل القرآن والصلاح. المصدر السابق (١٥/٥٣٥) وتاريخ بغداد (٧/٤٢٢) وشيخه هو الثقة يوسف ابن يعقوب القاضي. تاريخ بغداد (١٤/٣١٠) وشيخه أحد رجال الشيخين: الثقة محمد ابن أبي بكر المقدمي. التقريب (٢/١٤٨) وشيخه حسن الحديث فهو صدوق في حفظه شيء. التهذيب (٨/٥٨) والتقريب (٢/٧٢) وهو من رجال الستة واسمه عمرو بن عاصم الكلابي وشيخه ومن فوقه أئمة ثقات: حماد عن هشام عن عروة عن أسامة بن زيد. وللحديث شاهد يأتي ص١٩٦.

ابنة رسول الله ﷺ وإنها مرضت، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه)[1].

لكن أين رقية.. أين حبيبتك يا عثمان.. أين حبيبة رسول الله ﷺ وريحانته..؟ الإجابة حزن على وجه عثمان وعلى وجه أسامة.

ماتت رقية ووالدها بعيد عنها.. ماتت قبل أن ترى والدها وتطمئن على سلامته.. دون أن ترى أختها الحزينة زينب.. ها هو الحزن من جديد يخيم على بيت النبي ﷺ.. فاطمة تبكي وأم كلثوم تبكي حزناً على رقية.. زهرة تذبل وشباب يختفي أمام عينيهما.. كم لعبوا سوياً.. كم ضحكوا وتراكضوا وتسابقوا إلى حضن خديجة.. كم تواثبوا وتزاحموا ليركبوا على ظهر محمد.. ما أحوج فاطمة وأم كلثوم إلى أبيهما.. ما أحوجهما إلى خديجة.. ما أحوجهما إلى أختهما الكبيرة زينب.. ينثران على صدرها شيئاً من الدموع.. فزينب بعيدة هناك.. حزينة هناك.. في مكة لا يعلمان عنها شيئاً... ولا تعلم عنهم شيئاً..

ماتت رقية قبل أن يصل زيد بالخبر.. فقد (وافق زيد بن الحارثة ابنه أسامة حين سوى التراب على رقية بنت رسول الله، فقيل له: ذاك أبوك حين قدم، قال أسامة فجئت وهو واقف للناس يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، ونبيه ومنبه وأمية بن خلف، فقلت: يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم والله يا بني)[2] ويختلط الحزن في أجواء المدينة بالفرح، ويبتهج بقية المهاجرين والأنصار بالخبر الذي لا يصدقه إلا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٦٦).

(٢) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٢١٧/٣): حدثني عبد الله بن أبي بكر، وصالح بن أبي أمة عن أبيه.. وهذان طريقان يقوي بعضهما بعضاً لأن صالحاً لم يوثقه إلا ابن حبان. ويشهد للحديث حديث أسامة السابق.

مؤمن.. ويخفف النصر من الحزن والدموع المنثورة على رحيل رقية.. ويخيم الليل والوجد على عثمان.. إنه يعود إلى مترله فلا يجد فيه رقية.. كم هو مشتاق إليها.. كم هو وحيد دون رقية.. وكم هو وحيد وقد انقطع نسبه مع النبي ﷺ.. يا له من ليل حزين لا تبدده إلا الصلاة.. هذا ما يحدث في المدينة أما على أرض المعركة فتتسلل خيوط الفجر إلى سماء بدر.. ويشرق بلالٌ بالأذان.. ويستيقظ من كان نائماً.. ويصلي الجميع خلف رسول الله ﷺ.. إنه فجر اليوم الثالث بعد انقضاء المعركة.. حيث يأمر ﷺ بالاستعداد للعودة إلى المدينة.. ويطلب تهيئة راحلته.. ويفرغ الجميع مما أمروا به.. وينطلق ﷺ إلى غير ما توقع الصحابة.. فهذا ليس بطريق المدينة.. إنه يتوقف ويتحدث إلى أقوام بشيء مفزع ومخيف جعل أحد الصحابة يستفسره عن ذلك.. أنس بن مالك يحدثنا عن ذلك المسير وعن ذلك التساؤل فيقول: (فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشدت عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفى الركى[1] فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم [يا أبا جهل بن هشام.. يا أمية بن خلف.. يا عتبة بن ربيعة.. يا شيبة بن ربيعة.. أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟] يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان.. أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً.. فقال عمر: يا رسول الله.. ما تكلم من أجساد لا أرواح لها. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم [ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا[2]][1] ولا يقدرون على أن يعودوا فيتوبوا.. مصير أسود رسموه

---

(١) حافة البئر.

(٢) أي أهم يستمعون لقوله ﷺ حقاً أثناء خطابه لهم.

لأنفسهم.. وجحيم مرعب تسابقوا إليه وهم يحملون أصنامهم.. أما رسول الله ﷺ فقد تركهم وما تسابقوا إليه.. وانعطف براحلته نحو عواطف جياشة تنتظره في طيبة الطيبة..

ليت شعري كيف استقبله أحبابه هناك.. أيهنئون أنفسهم به ويهنئونه بنصر الله.. أم يعزونه في رقية..؟

كيف استقبله عثمان هناك.. كيف كانت حالته ﷺ عندما زاحم الحزن فرحاً يزين صدره..

كيف كانت حالته عندما التقت عيناه بعيني فاطمة وعيني أم كلثوم..

وكيف شكتا له الوجد على أختهما الحبيبة..؟

هذه الحياة لم تصفُ لمحمد ﷺ.. لم تصفُ لحبيب الله.. فالحزن والمعاناة جزء من حياته.. يفقد ابنته الشابة ويصبر ويحتسب.. ويتوهج بوعد الله فيخفف عن غيره مصيبته ولوعته رغم ما هو فيه..

ويقول لعثمان: (لك أجر رجل شهد بدراً وسهمه)[٢]

أما حارثة.. ذلك الشاب المكلف بالمراقبة والرصد والذي استشهد هناك في بدر.. فأمه هنا في المدينة تتلقى الركب تسأل عن حبيبها... فيقع الخبر عليها كالموت.. فيحملها الحزن والسؤال إلى نبي الله ﷺ.. لقد (أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع..

=

(١) حديث صحيح. رواه البخاري عن أنس (٣٩٧٦) وما بين المعقوفين عند مسلم عن أنس.

(٢) حديث صحيح مر معنا وهو عند البخاري (٤٠٦٦).

فقال ﷺ: ويحك.. أَوَهبلت؟ أَوَجنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس)[1] و(الفردوس ربوة الجنة وأعلاها وأوسطها، ومنها تفجر أنهار الجنة)[2].

سافر حارثة إلى الفردوس.. وعادت أمه إلى بيتها صابرة محتسبة.. لقد حول الإسلام الحزن إلى مبعث للسعادة.. واختلطت دموع الحزن بالفرح عند المؤمنين فـ (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[3]..

وعجباً لهذا النبي ما أرحمه.. إنه يتجاوز أحزانه إلى الآخرين ليخفف عنهم.. ليحثهم على الإبحار مع شهدائهم في أنهار الجنة.. وأهل بيت النبي ﷺ كانوا مثله.. يواسون تلك البيوت الحزينة.. كهذا البيت الذي تنوح فيه عفراء رضي الله عنها:

عفراء حزينة تنوح

عفراء حزينة على صغيريها.. عاد الرجال من القتال.. عادوا بالأسرى والجمال ولم يعودوا بالصغار.. لم يعودوا بعوف ولا بمعوذ.. ولن تراهما عفراء بعد الآن.. ولن تناديهما لقضاء حوائجها بعد اليوم.. لن تبحث عن عروس لعوف أو لأخيه ولن تسعد مع نساء المدينة بزفاف بهيج لهما.. عفراء مشتاقة إلى صغيريها.. يحترق جوفها من الحزن.. وتحمر عيناها من البكاء عليهما.. ولا يدرك وجد الأم إلا الأم.. خيمة حزن

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري - المغازي.

(٢) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير ٢/٧٨٩).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (صحيح الجامع ٢/٧٣٧).

بيت عفراء.. أما بيت النبي ﷺ فكان غيمةً من المشاعر.. تمتد إلى الجميع.. ها هي سودة وقد سمعت بما حدث لعوف وأخيه تتوجه إلى بيت أمهما.. تواسيها وتعزيها وتخفف أحزانها ببشرى الشهادة..

فصغيراها قد اجتثا فرعون الأمة وعدو الله ورسوله.. وهو أمر يسر أهل السماوات والأرض.. ويُخلد ذكرهما وذكر أمهما.. مكثت سودة رضي الله عنها وقتاً عند عفراء لكن مفاجأةً أخرجتها فعادت إلى بيت زوجها ﷺ متأثرةً بحال تلك الأم الوالهة الجريحة.. وتأثرت كذلك بوقع تلك المفاجأة فتحولت مشاعر سودة إلى كلمات عاتبها الرسول ﷺ عليها فـ:

ماذا قالت سودة

هذه هي القصة كما رواها صحابي اسمه: عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنهما:

(قُدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء -وذلك قبل أن يضرب الحجاب- قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذ أُتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتي بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً.. فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين، فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما

ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت)[1]..

لقد غمرت سودة أجواءٌ مشحونة بالأحزان والأحداث والمفاجآت.. تتدافع نحوها.. تتهاوى عليها وكأن العالم يتقوض فوق رأسها.. فتنفلت منها تلك الكلمات دون أن تشعر.. موت رقية.. ومناحة عفراء.. وأسير من سادات قريش وكرمائها في حجرتها.. خطيب قريش وحكيمها مجموعة يداه إلى عنقه.. متكوم كالذل في زاوية الحجرة.. منظر يثير الشفقة والرأفة.. وامرأة رقيقة المشاعر زادها الإيمان شفافية تشهد ذلك كله.. لكن رسول الله ﷺ لم يعنفها.. لم يكفرها بتلك الحروف الشاردة.. كان ﷺ مربياً.

أشعرها دون أن يخدش مشاعرها.. وأعادها دون أن يجرحها.. سألها سؤالاً.. سأل إيماناً متجذراً في كل أعماقها.. فأفاقت واعتذرت لله ولرسوله ﷺ.. وأفاقت المدينة كلها على وقع الحوافر والخفاف.. الجمال والخيول والأحمال تملأ شوارع المدينة.. والحقد والغيظ يملأ قلوب اليهود والمنافقين.. فقد استجاب الله لرسوله (حين خرج فقال: اللهم إنهم عراة فاكسهم.. اللهم إنهم جياع فأشبعهم، ففتح الله لهم يوم بدر، فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا)[2] فرح وعناق في الشوارع وعلى الأبواب وخلف الأبواب.. ورغم هذا الفرح المتدفق في الشوارع والقلوب كان ﷺ مأخوذاً بهموم وهموم.. الدعوة والقيادة

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣/٢٢): حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن جده.. وشيخ ابن إسحاق ثقة (التقريب ١/٤٠٥) ويحيى تابعي ثقة (التقريب ٢/٣٥٢) وجده صحابي.

(٢) حديث حسن مر معنا وقد حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢/٥٢٥).

والأسرى.. وبيته الحزين على رقية.. وعلى زينب البعيدة بين جبال مكة.. يا له من شوق حمله ﷺ إلى زوجها وابن خالتها أبي العاص بن الربيع.. إنه الآن بين الأسرى ولا أدري في أي حجرة هو.. لكن شوق النبي ﷺ إلى ريحانته زينب يأخذه إلى حيث يقبع أبو العاص ليحدثه في شأن زينب فلا يتركه حتى (أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه)[1] ولكن هذا لا يعني أن يعفى زوج ابنة رسول الله ﷺ من الفداء.. فهو أحد الأسرى ولا فرق بينه وبينهم.. وما طلبه الرسول ﷺ منه كان طلباً شخصياً لا علاقة له بالحرب.. فزينب هي ابنة خديجة بنت خويلد.. وأبو العاص هو ابن هالة بنت خويلد.. هالة التي كان تحلق برسول الله ﷺ في أجواء من الذكريات الحبيبة.. فتثير الغيرة في قلب الشابة عائشة رضي الله عنها.. تحدثنا أم المؤمنين عن غيرتها فتقول:

(استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة.. فارتاع.. فقال: اللهم هالة! فغرت)[2]..

وسوف ينقذ أبو العاص ويفي بوعده.. فهو رجل كريم حسن الخلق وإلا لما زوجه رسول الله ﷺ ابنته وريحانته..

غادر ﷺ أبا العاص بن الربيع إلى أصحابه.. وتحدث معهم ذات يوم عن الأسرى.. فجرى الحديث على ذكر أحد شيوخ قريش في الأسر.. فكانت:

---

(١) حديث حسن. رواه أبو داود وحسنه الإمام الألباني (٥١٢/٢).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم (سيرة ابن كثير ١٣٤/٢).

المعجزة

لقد قيل إن (في الأسرى أبو وداعة بن صبرة السهمي، فقال رسول الله ﷺ: إن له بمكة ابناً تاجراً كيساً ذا مال كأنكم به قد جاءكم في فداء أبيه)[1] وابنه هذا اسمه: المطلب بن أبي وداعة.. معجزة ينطق بها ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى.. لكن ما هو السبب الذي جعل المطلب ينهض مسرعاً نحو المدينة.. دعونا ننتقل إلى أجواء كئيبة بين منازل مكة وجبالها.. حيث أصاب الحجر الذي رأته عاتكة بنت عبد المطلب في منامها كل مترل من منازل قريش.. وشظايا ذلك الحجر الآن نزيف في كل قلب يسكن مكة.. امتلأت البيوت والأخبية بالبكاء والعويل.. وشقت الثياب وارتفع النواح ونثر التراب على الرؤوس.. فأبو سفيان الذي نجا بالقافلة لم ينج من جراح بدر.. فقد أثخنته في أعماقه.. ها هي هند زوجته تنوح وتنوح.. وقد أصيب بما لم يصب به غيرها.

التهمت الصحراء والدها عتبة وعمها شيبة وأخاها الوليد.. وهم شجعان العرب، لكن حمزة وعلي وعبيدة رضي الله عنهم كانوا أشجع وأشد بأساً.. ترى ماذا فعلت هند بثيابها.. وإلى أي مدى ارتفع نشيجها ونواحها.. وهناك أم جميل.. حمالة الحطب المجرمة.. لا بد أنها احترقت بما سمعت.. وزوجة أبي جهل ماذا فعلت عندما أخبرها عكرمة بقصة هلاك والده.. وزوجة أمية بن خلف لا بد أنه قد جن جنونها عندما علمت بتلف زوجها وابنها علي.. أبو لهب هل طار صوابه ودوي انتصار ابن أخيه يطرق المدى والآفاق.. مناخ بائس.. ومكة تكاد تحترق بأنفاس أهلها اليائسين الحانقين.. الذهول تجده في كل زاوية وعلى كل وجه..

---

(١) تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

لكن هناك من اختلطت في نفسه مشاعر البهجة بالأسى.. عاتكة بنت عبد المطلب تفرح بتحقق رؤياها وهلاك طواغيتها لكن العباس وعقيلاً قد وقعوا في الأسر.

وفي بيت عقبة بن أبي معيط كانت ابنته المحبوسة أم كلثوم لا بد أنها حزنت كثيراً لموت أبيها مشركاً.

.. فإذا تخطينا عدة أبيات ثم توقفنا ودلفنا البيت وجدنا زينب ابنة النبي ﷺ والوجوم يلفها.. زوجها أسير ووالدها وأخواتها بعيدون عنها. وبعض أهل مكة يقتلونها بنظراتهم الحاقدة.. لكنها تصبر وتحتسب المرارة والحزن عند الله.. وتسمع عن الفداء فترفع يديها خلف رقبتها وتحل رباط قلادة لها.. وتبحث عن أمين يبعث بهذه القلادة إلى والدها لعل هذه القلادة تحرر أسيرها وحبيبها.. أما المطلب بن أبي وداعة والذي تنبأ الرسول ﷺ بقدومه إلى المدينة ليفك أسر أبيه.. فها هو يسير نحو مجلس لبعض رجالات قريش الذين ندموا على كثرة النواح والعويل على من التهمتهم الصحراء في بدر.. فماذا قال المطلب في ذلك المجلس.. لقد (كانت قريش ناحت على قتلاها ثم ندمت، وقالوا: لا تنوحوا عليهم، فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم،...، فلما قالت قريش في الفداء ما قالت، قال المطلب: صدقتم والله لئن فعلتم ليثأرن عليكم، ثم انسل في الليل، فقدم المدينة ففدى أباه بأربعة آلاف درهم)[1] واصطحبه معه إلى

---

(١) إسناده حسن. رواه الطبراني من طريقين:.. وهب بن جرير و... عبيد بن عقيل قالا: حدثنا جرير بن حازم، حدثنا ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير.. وهذا السند حسن من أجل ابن إسحاق وقد صرح بالسماع من التابعي يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير هو ثقة (التقريب ٢/٣٥٠) وأبوه تابعي ثقة كان قاضي مكة =

مكة ورأى الصحابة معجزة نبوية أخرى.. وتتابع المشـركون يفـدون أسراهم بأموالهم، لكن هناك من يحلم بـ:

إطلاق الأسرى دون مقابل

أحدهم كان يحمل طموحاً أكبر.. فهو يطمح إلى إطـلاق جميـع الأسرى.. إنه الذي رأى الملائكة على أرض بدر وهو أحد وجهاء قريش: جبير بن مطعم بن عدي.. ابن ذلك الشهم الكريم.. «المطعم بن عدي».. يمتطي راحلته متجهاً نحو المدينة.. ليجتمع برسول الله ﷺ في محاولة منـه لإطلاق سراح الأسارى من قومه.. لكنه يقع في الأسر.. لم يأسره أحـد من الصحابة.. ولا حتى من قطاع الطرق.. أسره القرآن وهو يمشي بهدوء بمحاذاة جدار مسجد النبي ﷺ في سويعات هادئة بعد الغروب.. يقـول جبير إنه (جاء في فداء أسارى أهل بدر، قال: فوافقت رسول الله ﷺ يقرأ في صـلاة المغـرب: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ فأخذني من قراءته فكان ذلك أول ما سمعت من أمر الإسلام)[1] (فسمعته وهو يقرأ وقد خرج صوته من المسـجد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ فكأنما صدع قلبي)[2]..

زمن أبيه (التقريب ٣٩٢/١) وجرير بن حازم ثقة إلا في حديثه عن قتادة وهذا ليس منه (التقريب ١٢٧/١) ووالده أوثق منه (٣٣٨/٢).

(١) حديث حسن من أجل أسامة بن زيد الليثي وهو حسن الحديث إذا لم يخالف ويشـهد لـه ما بعده عند البخاري.. والحديث رواه الطبراني (١١٧/٢).

(٢) حسن. رواه الطبراني (١١٧/٢-١١٨) من طريقين عن هشيم وعزاه لأبي يعلى وهشـيم رواه من طريقين: حدثنا سفيان بن حسين عن الزهري عن محمد بن جبير عـن أبيـه.. وأخبرنا إبراهيم بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده.. وقد صرح هشيم بالسماع مـن شيخيه، وسفيان ثقة في غير الزهري، فهذه الطريق ضعيفة وأما الطريق الثانية فلم أجـد

(وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)[1] فاستجاب جبير بن مطعم لقلبه الذي تعلق بهذا الصوت المنساب من المسجد.. فتوقف يستمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا

=

ترجمة له لكن هشيماً ذكر أنه سمعه من الزهري ومع ذلك فهو معلول لأن هشيماً كتب عن الزهري فطيرت الريح أوراقه بعد خروجه من عنده فأصبح معلول الحديث إذا روى عن الزهري.. وهذان الطريقان يقوي بعضهما البعض بالإضافة إلى حديث البخاري.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

يقول جبير: (فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾. كاد قلبي أن يطير)[2].

كان جبير خلف الجدار يشقى بقلبه بينما كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة ينعمون بالقرآن والصلاة.. حتى أتموا صلاتهم.. ثم سلم النبي ﷺ وسلم الصحابة من خلفه وبعد قليل انصرفوا وانصرف النبي ﷺ.. فتوجه إليه جبير بن مطعم.. فاستقبله النبي ﷺ بكل الوفاء والعرفان مذكراً إياه بكرم أبيه «المطعم بن عدي».. قدَّم جبير للنبي ﷺ التماساً يطلب فيه إطلاق الأسرى من قريش.. لكن إجابة الرسول ﷺ كانت مخرسة.. لقد قال له: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[3].. فهِمَ جبير بن مطعم إجابة النبي ﷺ.. فانصرف بغير القلب الذي جاء به.. يحمل إيماناً يصارع كفراً.. يحمل همَّ عمه الذي قتله حمزة.. ويحمل تقديراً للنبي ﷺ وإجلالاً بعد أن سمع ما يسر من ثناء على أبيه واحتفاظ بالجميل.. عاد جبير إلى مكة ولم يعد الأسرى.. وما زال أبو العاص بن الربيع بينهم.. وذات يوم يصل إلى المدينة رجل يحمل مالاً ويحمل قلادة إلى رسول الله ﷺ، فيأخذ عليه السلام تلك القلادة.. وتهتز نياط قلبه وهو يقلبها.. وتتعلق عيناه بها

---

(١) سورة الطور: الآيات ٧-٣٧.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

فتحمله بعيداً.. بعيداً حيث خديجة.. حيث زينب وحيث مكة الحبيبة.. فينضح قلبه بالحزن.. ولسانه بالرجاء لأصحابه أن يخففوا أحزانه وأحزان حبيبته.. فيتأثر من حوله بمشهد الحرمان والشوق.. والغربة الذي يحيط بهذا النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم جميعاً..

تقول عائشة رضي الله عنها: (لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال:

إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا.. فقالوا: نعم يا رسول الله.. فأطلقوه وردوا عليها الذي لها)[1] وقبل أن ينطلق أبو العاص إلى زينب أكد لرسول الله ﷺ أنه سيبعث بزينب وذلك بتحديد مكان تلاقي فيه من سيرسله رسول الله ﷺ لمرافقتها في طريق هجرتها..

هذا المكان هو أحد بطون الأودية واسمه (بطن يأجج) وهو قريب من مكة.. ثم توجه أبو العاص إلى مكة.. ولما وصل إلى زينب فرحت به وفرح بها وسلمها قلادتها وحريتها.. فاختارت الله ورسوله وتوجهت إلى (بطن يأجج) أما في المدينة فقد (بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: (كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها، فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر أو

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢/٤٨٤): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة.. وهذا السند قد مر معنا فيحيى ثقة (التقريب ٢/٣٥٠) ووالده أوثق منه (التقريب ١/٣٩٢) وهو تابعي تولى القضاء زمن أبيه والحديث عند أحمد (٦/٢٧٦).

شيعة.. فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت جهرة)[1] بعد أن سلمها أبو العاص قلادها وحريتها وأبقى لنفسه الهواجس والحرمان.. ورافقها أخوها زيد وصاحبه إلى أبيها.. إلى المدينة المنورة بالإسلام.. فرح بها رسول الله ﷺ.. فرحت بها فاطمة وفرحت بها أم كلثوم.. لكن وصولها لامس جرحاً في أعماقهن على رقية الراحلة.. الراقدة تحت أطباق الثرى.. ذكرى رقية وما أصابها في سبيل الله من غربة وآلام.. آذاها المشركون في مكة فهاجرت مع عثمان إلى الحبشة ثم عادت إلى مكة ثم هاجرت إلى المدينة.. ولم يطل بقاؤها في المدينة حتى اجتاحتها أوجاع خطفتها وخطفت شبابها.. لقد كان ذلك كله في سبيل الله.. وهذا ما يهون من الحرقة عليها فهي راحلة إلى النعيم الخالد.. هذه هي قصة زينب وأسيرها فـ:

ماذا عن بقية الأسرى

غادر الأسرى إلى مكة بعد أن دفعوا الفدية ولكن بقي أناس منهم لا يملكون فداءً ولا مالاً.. استخفهم أبو جهل فأطاعوه.. وقد ذهب أبو جهل إلى النار وتركهم بين القيود.. وهناك آخرون رفض أهلهم دفع الفداء.. فماذا سيفعل بهم الرسول ﷺ هل سيقتلهم أم سيكون الأسر مصيرهم حتى تجمع لهم قريش مالاً.. لا هذا ولا ذاك.. إن رسول الله ﷺ

---

(١) هذه الزيادة هي آخر الحديث السابق وبالسند نفسه عند الطبراني (٢٢/٢٨) وأبي داود (٢٦٩٢) وهي زيادة قوية صرح فيها ابن إسحاق بالسماع من شيخه يحيى، وتلميذ ابن إسحاق هو محمد بن سلمة الباهلي وهو ثقة من رجال مسلم (التهذيب ٩/١٩٤) وتلميذ ابن سلمة الذي هو شيخ أبي داود هو الثقة الحافظ عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل (التقريب ١/٤٤٨) وتلميذ النفيلي - شيخ الطبراني هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب وهو ثقة كما قال الدار قطني (بلغة القاصي ٨٨).

أكبر من أن يكلفهم ما لا يطيقون.. والإسلام ما جاء ليصادر الحريات بل ليدعمها.. ويطلقها في طرقات البناء والإسلام..

نزل القرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾[1] كلمات تسقي بذور الخير في قلوب هؤلاء الأسرى.. وتجعلهم أصحاب أفق أبعد وتفكير أرقى.. كلمات تقدم المغفرة والجنة.. فمن أراد الإسلام فلا حاجة لأسره فليعش بين أهل المدينة على الرحب والإيمان والسعة.. أما من يأبى ذلك فلا حاجة للمسلمين في حبس حريته.. أبواب الحرية أمامه مشرعة.. لكن عليه قبل ذلك أن يؤدي.

الخدمة الاجتماعية بدلاً من الحبس

وبذلك يستفاد منه ومن بقائه بين أظهر المسلمين بدلاً من إرهاق ميزانية الدولة المسلمة الفقيرة بالإنفاق عليهم رغم أن هذا الإنفاق فيه أجر عظيم وعظيم جداً.. كما قال تعالى في وصف أصحابه أنهم: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا..﴾[2] لذلك أمروا بالخدمة الاجتماعية. فما هي الخدمة التي أداها هؤلاء مقابل حريتهم؟ يقول ابن عباس رضي الله عنهما:

(كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)[3] وقد حدثت قصة طريفة بين

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٣) سنده قوي. رواه أحمد (٢٤٧/١) والحاكم (١٤٠/٢) من طريق شيخ أحمد: علي بن عاصم حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.. وهذا سند صحيح لولا أخطاء =

أحد هؤلاء الأسارى وبين والد أحد أولئك الأطفال.. عندما (جاء غلام من أولاد الأنصار إلى أبيه فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي. قال: الخبيث يطلب بذحل بدر؟ والله لا تأتيه أبداً) أي يأخذ ثأره مما حدث له في غزوة بدر بضرب ذلك الطفل. وبذلك يؤكد الرسول ﷺ مبدأ العلم وأنه (فريضة على كل مسلم)[1] كما يفتح ﷺ باب خدمة المجتمع كبديل للحبس.

فتعلم جزء كبير من أبناء الأنصار القراءة والكتابة.. وتفوق المسلمون على عدوهم حرباً وعلماً.. وعاد بقية الأسرى إلى مكة بعد أن أدوا تلك الوظيفة الاجتماعية.. أصابت الدهشة جزيرة العرب لهذه النتيجة.. وتفاقم الحقد في نفوس اليهود وضاقوا بما جرى.. ولا أدري لماذا كل هذا الحقد والحسد والأمر كوجه الشمس.. إنه النبي الذي جاء ليحررهم من الاضطهاد والطغيان ويخفف عنهم بعض الأحكام التي عوقبوا بها لتمردهم.. لا أدري لماذا كل هذا التبرم والعناد وهم يعرفون أنه ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[2].. وقد استطاع الأحبار والرهبان بعد موت موسى ورفع عيسى عليهما الصلاة والسلام أن يحذفوا اسم محمد ﷺ من التوراة والإنجيل.. لكنهم لم يتمتعوا

علي بن عاصم فهو صدوق يخطئ (التقريب ٣٩/٢) وجل من لا يخطئ لكنه يصر.. وهو هنا لم يخطئ فقد تابعه الثقة خالد بن عبد الله الطحان وهو ثقة ثبت من رجال الشيخين (التهذيب ١٠٠/٣).

(١) حديث صحيح. (صحيح الجامع ٧٢٧/٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

بقدر من الذكاء يمكنهم من طمس كل شيء يتعلق بمحمد في التوراة والإنجيل.. لقد كانوا من الغباء بحيث أبقوا على وصف أحداث وأماكن لا يمكن أن تنطبق إلا على محمد ﷺ فمثلاً غفلوا عن هذه الكلمات في التوراة (هذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال:

أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبل ساعير وتجلى من جبل فاران)[1] حذف المغفلون اسم محمد ونسوا كلمة فاران.. فجبال فاران هي جبال مكة.. وموسى وعيسى وكل أنبياء بني إسرائيل ليس لهم علاقة بجبال فاران أي جبال مكة حسب التوراة والإنجيل. فمن هو النبي الذي أوحي إليه وهو فوق جبال فاران.. كما أوحي إلى موسى بين جبال سيناء.. هل هناك غير محمد ﷺ؟! شيء آخر إنه حادث الهجرة.. وحتى غزوة بدر أيضاً كان لهما إشارة في التوراة.. وقد حذف الأحبار اسم محمد ﷺ لكنهم نسوا أن الاسم وحده ليس كل شيء فالأحداث مفصلة على محمد ﷺ وحده.. هكذا تقول توراهم: (وحي على بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدّدانيين، هاتوا ماءً للعطشان يا سكان تيماء استقبلوا الهارب الجائع بالخبز[2].

هم هاربون من أمام السيوف، ومن أمام القوس المشدودة وويلات الحرب، وهذا ما قاله لي الرب. بعد سنة يفنى كل مجد قيدار (عدنان)، ولا يبقى من أصحاب الأقواس من جبابرة بني (عدنان) قيدار غير القليل)[3].

---

(١) الكتاب المقدس ٨٧٥ وانظر محمد...

(٢) أي رسول الله ﷺ ومن معه... وتيماء واحة عربية والدّدانيين شعب عربي.

(٣) الكتاب المقدس، إصحاح إشعيا، ٢١، ص٨٧٥.

هذه هي النبوءة التي غفل عنها الأحبار وتعسف في تأويلها الشراح هل تنطبق على نبي غير محمد ﷺ.. من هو الذي جاء بالوحي من جهة بلاد العرب.. من هو الذي هرب وأصحابه من شدة العذاب ولظى السيوف؟

من هو النبي الذي هرب من قومه (بني عدنان) ثم حاربهم بعد عام وأفنى جبابرتهم و لم يبق من جبابرتهم سوى القليل..؟

من هو النبي الذي أفنى هيبة قريش وهم بنو عدنان.. بعد سنة من هجرته وهروبه.. ثم إن هناك حقيقة كالشمس تزداد سطوعاً كلما حاول اليهود إخفاءها.

هذه الحقيقة هي أن التوراة تخاطب اليهود.. اليهود وحدهم.. وهي تطلب منهم أن يستقبلوا حامل الوحي القادم من بلاد العرب بالترحاب والخبز وأن ينصروه فهو هارب من السيوف المسلولة والأقواس المشدودة.. فلماذا انتقل اليهود من أرض الشام إلى المدينة (يثرب) لماذا تركوا الديار المقدسة الباردة إلى يثرب ذات المناخ الحار والحمى القاتلة..؟ السبب بسيط: هو أن التوراة كانت فيها تفاصيل أكثر عن هذا النبي وعن مكان هجرته وعن وقت خروجه.. وإلا فما الذي حشر اليهود وجعلهم يزاحمون العرب في (يثرب) ذات الحمى والجبال الوعرة.. مالذي جعلهم يتحملون كل هذه المعاناة.. إلا لأنهم كانوا يريدون أن يوافوا الهارب بالخبز ويحطموا به العرب والعالم.. لكن ويا لأسفهم.. هذا الهارب عربي من بني عدنان (قيدار).. إنها كارثة كيف ينقاد بنو إسرائيل لنبي عربي بعد ذلك التاريخ الحافل بالكتب والوحي.. بعد تلك السلسلة الطويلة من الأنبياء العظام من اليهود..؟

كيف ينقاد اليهود المثقفون إلى نبي من هؤلاء العرب الذين تغلب عليهم الأمية وتتغلغل في نفوسهم الوثنية.. كيف يرضى اليهود بنبي عربي من بني إسماعيل..؟ إنه ليس يهودياً.. ليس من بني إسرائيل (يعقوب) لا ولا حتى من بني إسحاق.. أمر صعب وحقيقة مرة يرفضها اليهود.. إنها تعني في نظرهم أن يبقى اليهود وكتبهم وتاريخهم على الأرفف وفي الخزائن لإفساح المجال لهذا الجديد الذي يحمله محمد ﷺ..

هذه قصة عجيبة تبين لنا سبب قدوم يهود إلى يثرب.. وهي تتفق مع ما ورد قبل قليل في التوراة.. دعونا نستمع إلى رجال تأثروا بالتوراة أكثر مما تأثر بها اليهود أنفسهم.. يقول هؤلاء الرجال:

(إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا: أن كنا نسمع من رجل من اليهود وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا:

إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾)[1] إذاً فهم في الحقيقة لا ينتظرون

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ١/٢٩١) فقال: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن رجال من قومه قالوا: وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي وقد سمع من هؤلاء الصحابة... (التقريب ١/٣٨٥).

نبياً يهديهم إلى الحق وينقلهم من الظلمات والشرك إلى التوحيد والنور.. لقد كانوا ينتظرون ملكاً يبيدون به الجيوش ويتحكمون به في العالم.. نبياً يريدونه من نسل يعقوب وإسحاق لا من أبناء العمومة - أبناء إسماعيل.. وهذا أحد اليهود يتلفظ قبل وفاته بهذه الأمنية.. ويبين لمن حول فراشه وهو يموت سبب قدومه إلى يثرب التي يسميها أرض البؤس والجوع.. تاركاً وراءه أرض الخضرة والخمر والأنهار.. يروي لنا هذه القصة رجل من يهود بني قريظة هداه الله للإسلام.. ويحدث من نقل لنا هذه الرواية فيقول:

(هل تدري عمَّ كان إسلام ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعية، وأسد ابن عبيد -وهم نفر من بني هذل إخوة بني قريظة- كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قلت: لا. قال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له ابن الهيِّبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه. فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيِّبان فاستسق لنا. فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدين من شعير.

قال:فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً. ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال:

يا معشر يهود.. ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قلنا: أنت أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف

خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مُهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه وقد أظلكم زمانه، فلا تُسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه)[1] لكن ماذا فعل بنو قريظة بعد بعثة النبي ﷺ.. لقد ظلوا على يهوديتهم المحرفة ولم يسلم إلا القليل.. القليل منهم.. لكن بعض اليهود لم يكتفوا بالكفر بمحمد ﷺ.. بل حاولوا نقض المصالحة وهدم الجسر الذي شيده ﷺ بعد وصوله للمدينة بين أهلها جميعاً كفاراً ويهوداً ومسلمين.. وكان أحد هؤلاء وأبرزهم يهودي حاقد.. يهودي شرير أطلق لسانه بالشتم والسباب.. ووظف موهبته الشعرية في الهجاء والسخرية من الله ورسوله وكتابه ودينه ومن دولة الإسلام وأهلها.. ومع ذلك يأمر الله نبيه ﷺ بالعفو والصفح والتحمل وعدم فتح جبهة مع هذا الخائن أو ذاك.. صالحهم ﷺ وأمرهم بأن يعيشوا في دولة واحدة متعاونين على أعدائها متناسين ما بينهم من خلاف.. لكنهم خانوا العهد والميثاق.. وتنكروا لحسن الجوار والأخلاق.. وكان رأس الفتنة هذا يسمى:

كعب بن الأشرف

يحدثنا عنه وعن شعره أعلم الناس بشعره.. شاعر الأنصار كعب بن مالك يتحدث عن كعب بن الأشرف فيقول: (إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاطاً: منهم

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ١/ ٢٩٤) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال لي.. وهذا الشيخ صحابي وتلميذه تابعي ثقة سبق الحديث عنه في الحديث السابق.

المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان.. ومنهم اليهود وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ المدينة يؤذونه أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر والعفو، فقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فأمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوا كعباً.. فبعث إليه سعد محمد بن مسلمة وأبا عبس والحارث ابن أخي سعد بن معاذ في خمسة رهط)[1] فقال ﷺ: (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأذن لي رسول الله أن أقول شيئاً. قال ﷺ: قل)[2] أي سمح له ببعض الكلمات التي يمس فيها رسول الله ﷺ لكي يخدع بها

(١) سنده صحيح. أرسله البيهقي (١٩٧/٣) ووصله أبو داود (٣٠٠٠) ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠) فالزهري وعبد الرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري (التهذيب ٣٥١/٤: وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين (التقريب ١٩٣/١) وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (١٩٥/٣).

كعب بن الأشرف ويتمكن من استدراجه حتى يجهز عليه ويتخلص منه ومن خيانته. وجاءت ساعة التنفيذ فـ (مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال:

انطلقوا على اسم الله.. اللهم أعنهم)(١).

إذاً فقد (بعث إليه سعدُ؛ محمدَ بن مسلمة وأبا عبس والحارث ابن أخي سعد بن معاذ في خمسة رهط أتوه عشية، وهو في مجلسهم بالعوالي، فلما رآهم كعب أنكرهم وكاد يذعر منهم، فقال لهم: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءت بنا إليك الحاجة. قال: فليدن إلي بعضكم فليحدثني بها. فدنا إليه بعضهم، فقال: جئناك لنبيعك أدراعاً لنا لنستنفق أثمانها. فقال: والله لئن فعلتم ذلك لقد جهدتم، قد نزل بكم هذا الرجل. فواعدهم أن يأتوه عشاءً حين يهدأ عنهم الناس، فجاءوا، فناداه رجل منهم، فقام ليخرج فقالت امرأته: ما طرقوك ساعتهم هذه لشيء مما تحب، فقال: بلى إنهم قد حدثوني حديثهم، فاعتنقه أبو عبس وضربه محمد بن مسلمة بالسيف، وطعنه بعضهم بالسيف في خاصرته)(٢) فغرق الحاقد بدمائه.. وكان لهذا الغرق تفاصيل أخرى يرويها أحد الأنصار وهو جابر بن عبد الله فيقول: (قام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فَأْذَنْ لي يا رسول الله أن أقول شيئاً. قال: قل. فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٠٠): حدثني ثور بن زيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس.. وفي هذا السند صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه ثور الديلي وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب (١/١٢٠) وشيخ زيد هو الإمام الثقة تلميذ ابن عباس رحمه الله.

(٢) جزء من حديث أبي داود والبيهقي السابق.

أستسلفك. قال كعب: وأيضاً والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين..

فقال كعب: نعم أرهنوني.. قالوا: أي شيء تريد؟ قال: أرهنوني نساءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: أرهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك اللامة[١].

فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة -وهو أخو كعب من الرضاعة- فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة..

قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب....

فقال محمد: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليه متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت اليوم ريحاً أطيب. قال كعب: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب. فقال محمد: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه، ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه)[٢].. وبشروه بالقضاء على هذا اليهودي.. أحد سادات يهود بني النضير.. هذا الحدث لم يكن بسيطاً.. كان أثره عميقاً في نفوس يهود بني النضير بل إنه قد هز أعماق

---

(١) أي الدروع أو السلاح.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣/١٩٥-١٩٦).

المشركين من عبدة الأوثان أتباع الوثني المسمى بـ (عبد الله بن أُبي بن سلول).. لقد اختفى ذلك اليهودي الشرير و(لما قتلوه فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا فقتل، فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[1].

إذاً فقد تحول العهد والميثاق الشفهي إلى:

وثيقة مكتوبة بين النبي والمسلمين واليهود

وها هو أحد الصحابة يحدثنا بتفاصيل أدق لتلك العملية فيقول: (مشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله.. اللهم أعنهم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته وهو في ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا يترلون في هذه الساعة، قال لها كعب لو دعي الفتى لطعنة أجاب، فترل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم.

(١) جزء من حديث أبي داود والبيهقي. السابق وهو صحيح.

فخرجوا، فمشوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط. ثم مشى ساعةً ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ثم قال:

اضربوا عدو الله. فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً، قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولاً في سيفي فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، فوضعته في ثنته، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه أصابه بعض سيوفنا، فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ثم على بني قريظة ثم على بعاث حتى أسندنا في حرة العريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة، ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه)[1] بعد أن رأوا مصير هذا المتآمر.. لا سيما وهو أحد زعماء يهود بني النضير وساداتهم..

وملأ الخوف نفوس مشركي المدينة أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وغيره.. اهتزت حصون اليهود وأوثان المشركين فعقدوا اجتماعاً خائفاً وقصيراً.. فيدُ الموت أصبحت طويلة تمتد نحو كل خائن.. حتى ولو كان زعيماً ككعب بن الأشرف فماذا حدث بعد ذلك الاجتماع.. (فزعت

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير) وروى البيهقي أوله (٣/٢٠٠) من طريق ابن إسحاق: حدثني ثور بن زيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه... وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب (١،١٢٠) وعكرمة تابعي وإمام معروف.

اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا، فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا فقتل، فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[1].

وتحول بذلك العهد والميثاق الشفهي إلى وثيقة مكتوبة تحد من خيانة هؤلاء اليهود ومن يتعاون معهم من المشركين أمثال عبد الله بن أُبي بن سلول وغيره من عباد الأوثان.. لقد أفحم رسول الله ﷺ قوم كعب بن الأشرف وأتباعه من يهود بني النضير وأذنابهم من المشركين حينما هرولوا يحتجون على اغتيال ذلك الخائن.. لقد أسمعهم ﷺ قصائده التي تنخر في عظام المدينة كلها.. وكانت تلك القصائد تحرض على انفجار حرب أهلية تلون جدران المدينة بالموت والدماء.. تلك القصائد كانت تحرض قريشاً على التحالف مع اليهود ضد هذه الدولة الفتية.. ولا أعرف سبباً واحداً يجعل كعباً وغيره يقدمون على إثارة الفتن والدماء.. لقد عاملهم ﷺ بكل لطف واحترام.. وجاء من أجل إنقاذهم من الكفر والشرك.. كان ﷺ حليماً حكيماً في التصرف معهم رغم إساءاتهم المتكررة له ولدينه ولأصحابه.. لقد سكت اليهود، عندما سمعوا تلك القصائد وكان في سكوتهم إدانة لهم.. لكن النبي ﷺ لم يشملهم بالعقاب إنما دعاهم إلى كتابة وثيقة عهد وصلح بينهم يأمن بعضهم شر بعض على أساسها.. ويُلزم كل طرف بعدم التعاون مع أطراف خارجية ضد أحد أطراف تلك الوثيقة ولو بالشعر فالشعر آنذاك هو الإعلام.. وافق بنو النضير على

---

(١) حديث صحيح مر معنا وقد رواه أبو داود والبيهقي (١٩٨/٣).

ذلك.. لكن دماء الحقد المتجمدة الآن في عروق كعب بن الأشرف لا تزال حارةً متدفقة في شرايين بني النضير وغيرهم.. لم يمر سوى زمن يسير حتى:

أعلن يهود النضير وقريظة الحرب

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: (إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[1] لكن ما هي:

قصة إجلاء بني النضير

وكيف خانوا وحاربوا، وكيف تصرف رسول ﷺ معهم ومع خيانة بني قريظة عندما نقضوا تلك الصحيفة التي أجمع عليها يهود المدينة كلهم..؟ يحدثنا أحد أصحاب النبي ﷺ فيقول رضي الله عنه:

(إن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبي بن سلول ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورسول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة- قبل وقعة «بدر» يقولون:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنستعن عليكم العرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك ابن أبي ومن معه من عبدة الأوثان تراسلوا فاجتمعوا، وأرسلوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فلقيهم في جماعة فقال:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبهقي (١٨٣/٣).

لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة «بدر» فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء -هو الخلاخل- فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلت إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز[1] من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه:

كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه. واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها -وهو رجل مسلم من الأنصار- فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً، حتى أدرك النبي ﷺ فسارَّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحاصرهم وقال لهم:

---

(١) في مكان مرتفع.

إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة -والحلقة: السلاح- فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام، وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاء، فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ، فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا كما عذبت بنو قريظة، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)﴾ وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة فأعطاه الله إياها وخصه بها فقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ

أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما)[1].

هذه هي قصة يهود بني النضير.. قدموا إلى المدينة بحثاً عن النبي المنتظر فلما بعث هذا النبي وجدوه عربياً وليس من بني إسرائيل.. كرهوه.. وعاهدوه على مضض ولما حانت لهم الفرصة خانوه ونقضوا كل عهودهم ومواثيقهم معه فعاقبهم الله بالشتات فاستأنفوا رحلة الضياع من جديد بعد أن حاصرهم المسلمون.. فصاروا يخربون بيوهم غيظاً وحسداً حتى لا يستفيد منها المسلمون.. من بعدهم.. لكن الغيظ القاتل جلل اليهود. ورافقهم عندما وجدوا المسلمين أنفسهم يخربون تلك البيوت ولا يكترثون.. فالمسلمون لم يحاصروا بني النضير من أجل بيوقم وأموالهم.. بل لأهم خونة.. وإذا كان اليهود يرون في تلك البيوت ثروة للمسلمين فالمسلمون لا يريدون تلك الثروة ولا يقبلون بقاء الخونة بينهم أو في جوارهم.. بل لقد أقدم المسلمون على تصرف يحرقون به آثار اليهود.. يخبرنا عن ذلك (أحد الصحابة رضي الله عنه في قوله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

---

(١) صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه ،صحيح سنن أبي داود ٥٨٢/٢) حديث (٣٠٠٤) فقد قال: صحيح الإسناد... وليس كما قال حفظه الله.. فإسناده عند أبي داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ... وهذا الإسناد ضعيف لأن شيخ أبي داود مجهول الحال وهذه هي ترجمته في التهذيب (١٥٤/٩): روى عن عبد الرزاق ويحيى بن حسان، وعنه أبو داود ثم إنه أخطأ في سند هذا الحديث فقد ذكر أن شيخ الزهري هو عبد الرحمن بن كعب والذي عند عبد الرزاق (٣٥٧/٥) هو: عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك.. وهذا الراوي قال عنه الحافظ: فيه نظر (التعجيل ٢٢٧) أما عبد الرحمن فثقة مع احتمال الانقلاب في الاسم ولمزيد من التفصيل راجع موسوعة السيرة.

قال: يستترلوهم من حصوهم، وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً، تركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾[1] أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله.. هذا هو الإسلام.. وهؤلاء هم المسلمون.. وهذه هي التربية الإسلامية التي لا تنحصر بين أروقة المساجد وجدران البيوت.. تربية تنتشر في كل اتجاه وتصاحب المؤمن في كل مكان وتحت أي ظرف.. في أوج الحروب وبين بريق السيوف والدماء يتوقف المسلمون ليسألوا رسول الله ﷺ عن صحة تصرفهم مع سحوق أو فسيلة نخل.. الإسلام يربي أصحابه في التعامل مع كل شيء حتى مع جذوع النخل بعد أن أرشدهم إلى التعامل مع جذوع الخيانة وجذورها اليهودية.

غادر اليهود من بني النضير إلى الشام.. إلى غير رجعة.. غادروا يبحثون عن نبي غير عربي يأتيهم حسب رغباهم ويأتيهم بما يرغبون.. وبقي منهم في المدينة من اختار الله ورسوله ودخل في الإسلام مكرماً بين حفاوة المؤمنين.. غادر اليهود فهدأت المدينة.. وعاد إليها المؤمنون بنصر جديد وفرح جديد.. وعاد عثمان إلى بيته فعاد الحنين إلى رقية.. شعر ﷺ بشوق عثمان وحزنه.. لا بد أنه شعر.. ونبي الله ﷺ لا يكتفي بالشعور لمواساة المحتاجين إلى المواساة.. إنه يشع كالحب في المكان والإنسان..

---

(١) رواه النسائي (تفسير ابن كثير - سورة الحشر): أخبرنا الحسن بن محمد بن عفان، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا حبيب بن أبي عمر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.. وسعيد ابن جبير تابعي مجاهد وثقة معروف وحبيب وحفص بن غياث ثقتان من رجال الشيخين، التقريب (١/١٥٠-١٨٩) أما الحسن بن محمد بن عفان فالصواب هو: الحسن بن محمد عن عفان لأنه لا يوجد شيخ للنسائي بهذا الاسم.. وعفان ثقة وهو من شيوخ الحسن بن محمد الزعفراني والحسن هذا ثقة من شيوخ النسائي. انظر التهذيب (٧/٢٣٠، ٢/٣١٨-٤١٥).

ها هو يواسي عثمان.. وها هو يواسي عمر وعلياً أيضاً.. يجعل منهم نسيجاً وأوشاجاً بارعة الجمال.. تعال معي إلى البداية.. إلى بيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم.. فقد كان لعمر بن الخطاب ابنة سماها حفصة.. زوَّجها من أحد أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم وكان اسم هذا الصحابي: (خنيس بن حذافة السهمي) وكان أحد المهاجرين إلى الله ورسوله.. لم يعش خنيس مع حفصة طويلاً لقد توفي في المدينة رضي الله عنه.. وبعد فترة من الزمن حدثت هذه القصة التي يرويها عبد الله بن عمر يحدث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تأيمت حفصة[1] بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفي بالمدينة فقال عمر: أتيت عثمان فعرضت عليه حفصة بنت عمر فقلت: إن شئت أنكحتك. فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر. فصمت أبو بكر فلم يرجع إلي شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: نعم. قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها)[2].

---

(١) يعني مات زوجها.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٢٢) والبيهقي (١٥٨/٣) واللفظ له.

فرح عمر بمصاهرة رسول الله ﷺ، وفازت حفصة بنبي الأمة عليه السلام وقبل عمر اعتذار أبي بكر.. أما عثمان بن عفان فعذره لا يحتاج إلى بيان.. وحزنه يملأ حياته.. لكن الله ورسوله أرحم بقلب عثمان من أن تذهب به الهموم أبعد من هذا.. لقد زوجه رسول الله ﷺ من ابنته أم كلثوم رضي الله عنها.. فعاد النبض والحياة إلى النسب بين عثمان وبيت النبوة الكريم.. ابتهج عثمان وابتهجت أم كلثوم وابتهجت المدينة بهذا العرس الجميل.. فشع في صدر أبي بكر طمع مباح وطموح كالأماني.. رغب أبو بكر بقرب أكثر من رسول الله ﷺ وكانت عيناه وقلبه باتجاه آخر أمل في ذلك.. إنها فاطمة بنت محمد ﷺ خير نساء العالمين وريحانة النبي ﷺ وأصغر بناته.. ولم يكن أبو بكر وحيداً في حلمه كان هناك من ينافسه فمن سيفوز بفاطمة من بين هؤلاء الأفذاذ.

أبو بكر وعمر وعلي يريدون فاطمة

تقدم أبو بكر إلى النبي ﷺ خاطباً فاطمة.. لم يرده النبي ﷺ لكنه اعتذر منه بأسلوب نبوي مدهش وكذلك فعل عمر.. فاعتذر ﷺ بالأسلوب نفسه فماذا قال ﷺ لصاحبيه وصهريه.. الإجابة عند أحد الصحابة رضي الله عنه واسمه: بريدة حيث يقول:

(خطب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فاطمة فقال رسول الله ﷺ: إنها صغيرة)[1] إنه اعتذار مؤدب.. لم يكذب ﷺ عندما قال: إنها صغيرة..

---

(١) سنده صحيح. رواه النسائي (٦/٦٢) حدثنا الحسين بن حريث، حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه: وعبد الله تابعي وثقة معروف وتلميذه الحسين ثقة من رجال مسلم (التقريب ١/١٨٠) والفضل ثقة ثبت من رجال البخاري ومسلم (التقريب ٢/١١١) وشيخ النسائي ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١/١٧٥).

ففاطمة صغيرة حقاً لكن ليس على الزواج.. فعائشة بنت أبي بكر الصديق أصغر منها بسنوات وهي الآن زوجة لرسول الله ﷺ.. ورسول الله ﷺ أكبر وأسن من أبي بكر ومن عمر أيضاً..

إذاً فالأمر غير ذلك.. ثم إن أبا بكر وعمر هما أفضل الأمة.. وهما أفضل من عثمان رضي الله عنه ومع ذلك اعتذر لهما وزوج عثمان ابنتيه: رقية وأم كلثوم بل إن ابنته الكبرى زينب متزوجة من رجل مشرك حتى الآن[1] وهو أبو العاص بن الربيع.. إذاً فالأمر لله من قبل ومن بعد..

انصرف أبو بكر وانصرف عمر رضي الله عنهما وقد رضيا بما رضيه الله ورسوله ﷺ.. وتسربت أخبارهما إلى مسامع امرأة فأقلقها ما سمعت فهبت مسرعة إلى سيدها تحرضه وتحرضه على الزواج من سيدة نساء العالم.. ماذا فعل هذا السيد وماذا قال عندما سمع الخبر.. يحدثنا بنفسه عن ذلك فيقول: (خُطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: فقد خطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك، فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ)[2].

لكن لماذا كل هذا التردد في خطبة فاطمة والقلب ميال إليها.. أسباب كثيرة جعلت علي بن أبي طالب يتردد في خطبة فاطمة وهي

---

(١) أقصد وقت خطبة أبي بكر وعمر لفاطمة رضي الله عنها وعنهم.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/١٦٠): حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن علي وشيخ ابن إسحاق ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١/٤٥٦) وهذا ليس من التفسير فهو لم يسمعه من مجاهد أما ما عداه فقد قال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: ابن أبي نجيح عن مجاهد أو خصيف؟ قال: ابن أبي نجيح. التهذيب (٦/٥٤).

بنت ابن عمه.. لعل أحدها كونه معدماً لا يملك ما يقدمه مهراً لهـذه الوردة الطاهرة.. وهي التي تستحق الكثير الكثير.. لكن كيف أصبح علي معدماً وهو يملك شارفين من غنائم بدر..؟ لقد ذهب كل شيء.. واختفت الناقتان.. ذهبتا مع الريح والخمر.. وبقي علي وحيداً يملؤه الهم.. وتفيض عيناه من الحزن.. لقد رأى شيئاً مكدراً.. رأى ناقتيه قد بقرت بطونهما وسال دمهما واقتطعت أسنمتهما وهو لم يرتكب خطأ في حق أحد.. والذي زاد في حزن علي وكدره أن الذي فعل ذلك بمهر فاطمة كان عمه وعمها حمزة بن عبد المطلب.. ذلك الأسد الهصور والفاتك الجسور.. لقد شق بطني الناقتين وقطع سناميها وانتزع كبديهما.. فـ:

هل وقع شجار بين حمزة وعلي

هذا ما سنعرفه من علي نفسه حيث يقول: (كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ وأعدت رجلاً صواغاً من بني «قينقاع» يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين[1] فأستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، وجمعت حين جمعت ما جمعت، فإذا شارفاي قد اجتبت أسنمتهما، وبقرت خواصرهما، وأخذت من أكبادهما، فلم أملك عينيَّ حين رأيت ذلك المنظر منهما، قلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن

(١) الذين يعملون في صياغة الذهب والفضة.

عبد المطلب، وهو في هذا البيت في شَرْب[1] من الأنصار، غنته قينةٌ وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزة للشرف النواء

فقام حمزة بالسيف، فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، فأخذ من أكبادهما. قال علي: فانطلقت حتى أدخل على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فعرف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقيت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟ قلت: يا رسول الله، والله ما رأيت كاليوم قط، عدا حمزة على ناقتي فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيتٍ معه شَرْب. قال: فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء الباب الذي فيه حمزة، فاستأذن، فأذنوا له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة محمرةٌ عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ، ثم صعد النظر إلى ركبتيه، ثم صعد النظر فنظر إلى سرته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، فقال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى، وخرج وخرجنا معه)[2]. فلا فائدة من العتاب واللوم إذا لم تذهب الخمرة من رأس شاربها..

فالانسحاب هو أفضل قرار في مثل هذا الظرف.. انسحب رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة وانسحب علي وسحب معه حزناً أفاض عينيه.. إنها الخمر وما زالت حتى اليوم مباحة.. ولعلي مع الخمر قصة أخرى لا تقل فداحة عن هذه.. يحدثنا عنها فيقول: (صنع لنا عبد الرحمن بن عوف

---

(١) الشرب: هم الجماعة الذين اجتمعوا على شرب الخمر.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٠٣) ومسلم.

طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ونحن نعبد ما تعبدون. فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾)[1] فالصلاة حضور كامل والخمرة غياب كامل.. لذلك بدأ الإسلام يفتح القلوب والعيون على قوائم الفواجع التي يحدثها ذلك الغياب وترتكبها الخمرة باسم النشوة.. لكن هذه الآية لم تشر إلى تحريم الخمر إنما تنهى عن الصلاة في حالة السكر.. مما جعل عمر بن الخطاب يبتهل إلى الله قائلاً:

(اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً)[2] فهناك من يشربها في الأوقات الطويلة التي لا صلاة فيها.. كالوقت بين العشاء والفجر أو بين الفجر والظهر.. لكن أثر الخمرة لم يقتصر على إفساد الصلاة.. إنها تنتهك العقل.. تغيبه فينطلق الإنسان متحرراً من كل قيد.. من كل شيء.. تمحي أمامه الفواصل.. وتنهار في طريقه الأخلاق والآداب.. يذوب الخطأ بالصواب والجريمة بالفضيلة.. الخمرة تنطلق بالإنسان من الإنسان.. تمسخه حيواناً لا يفكر بشيء ولا يعبأ بشيء.. جسداً يدوس كل شيء حتى ولو كان هذا الشيء أباً.. وينتهك كل شيء حتى ولو كان هذا الشيء أماً.. عمر بن الخطاب يبحث عن بيان شاف.. وعلي بن أبي طالب يبحث عن مهرٍ لفاطمة فهذا المهر قد ضاع.. يبحث عليٌ فلا يجد سوى ما يسد به رمقه.. ويواصل بحثه فلا يجد شيئاً.. لكنه يجد مولاةً له تشعر بتجوال فاطمة بين أضلاعه.. فتقول له: (هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول

(١) حديث صحيح. صححه الألباني (صحيح الترمذي ٣/٣٩).

(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود وصححه الإمام الألباني (٢/٦٩٩).

الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به! فقالت: إنك إذا جئت رسول الله ﷺ زوجك. قال: فوالله ما زالت ترجيني، حتى دخلت على رسول الله ﷺ، وكان لرسول الله ﷺ جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله مااستطعت أن أتكلم، فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت. فقال: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقلت: نعم. فقال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا، والله يا رسول الله. فقال: ما فعلت درع سلحتكها؟ -فوالذي نفس عليٍّ بيده إنها لحطمية ما ثمنها أربعة دراهم- فقلت: عندي. فقال ﷺ: قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها به.

فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ)[1] وريحانة حبيب الله وخير نساء الدنيا والآخرة.. وتغادر الفتاة بيت أبيها إلى بيت ليس فيه شيء سوى الحب وأحلام الشباب.. بيت لو تجولت فيه عيناك لفاضت بدموع كما فاضت عينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رأى بيتاً شبيهاً ببيت فاطمة وعلي.. يقول عمر رضي الله عنه:

(دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست، فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ[2] في ناحيةٍ في الغرفة، وإذا إهاب[3] معلق،

---

(١) سند قوي. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (١٦٠/٣) حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن علي رضي الله عنه، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه الثقة عبد الله بن أبي نجيح (التقريب ٤٥٦/١) وشيخه هو الإمام والتابعي الثقة مجاهد بن جبر المخزومي بالولاء. (التقريب ٢٢٩/٢) وسماع عبد الله بن مجاهد صحيح في غير التفسير.

(٢) القرظ: شيء يدبغ به الجلد.

(٣) الإهاب: هو الجلد قبل دبغه، قال ﷺ: «إذا دبغ الإهاب فقد طهر» رواه مسلم.

فابتدرت عيناي[1]، فقال ﷺ: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزانتك، قال ﷺ: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى)[2] فالدنيا عند رسول الله ﷺ (سجن المؤمن وجنة الكافر)[3] سجن المؤمن عن الجنة.. الدنيا معاناة نحو الجنة.. وجنة عند الكافر إذا أدخل إلى النار يوم القيامة يتمنى الرجوع إليها.. الدنيا سجن المؤمن وإلا لما (كان ضجاع[4] رسول الله ﷺ أدماً[5] حشوة ليف)[6].. الدنيا سجن المؤمن وإلا لما عاشت فاطمة في ذلك البيت المتواضع ومهرها درع بأربعة دراهم.. وبنات كسرى وقيصر بين الوصيفات والخادمات في مروج وقصور مبحرة عبر الأنغام والأوتار..

أما أثاث بيت فاطمة فكان يثير الشفقة.. قدمه ﷺ هدية إلى حبيبه.. لقد (جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أدم حشوها إذخر)[7] أثاثها رضي الله عنها: كساء من الصوف.. وقربة للماء..

---

(١) سالت الدموع.

(٢) حديث حسن. حسنه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/٤٠١).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم وغيره (صحيح الجامع ٦٤١/١).

(٤) فراش.

(٥) جلد.

(٦) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/٤٠١).

(٧) سنده قوي. رواه ابن ماجة (٤١٥٢) بسند ضعيف من أجل عطاء بن السائب رحمه الله وقد اختلط، والراوي عنه هو محمد بن فضيل، قال أبو حاتم، وما روى عنه ابن فضيل ففيه غلط واضطراب (التهذيب ٢٠٥/٧) لكنه قد توبع عند البيهقي (١٦١/٣) تابعة زائدة وقد قال الطبراني رحمه الله: ما رواه عنه المتقدمون فهو صحيح مثل: سفيان وشعبة وزهير وزائدة (التهذيب ٢٠٧/٧).

ووسادة من الجلد محشوة بحشيشة الإذخر.. فقر تصعب معه الحياة إلا إذا كان الحب والإيمان عميقاً وفسيحاً كما هو في قلبي فاطمة وعلي رضـــي الله عنهما..

فرح علي بفاطمة.. وفرحت المدينة بعلي وفاطمة..

وفي مثل هذا الفرح الغامر يقول ﷺ: (أعلنوا النكـــاح)[1] فـــإعلان الزواج ابتهاج بالجميل.. وابتهاج بالاجتماع والمصاهرة والحلال ولذلك يقول ﷺ لأمته: (فصل ما بين الحلال والحـــرام الـــدف، والصـــوت في النكاح)[2].. وها هو ﷺ يستمع إلى الدف والصـــوت.. أي الغنـــاء في مناسبة كهذه فيعلن الحب لهؤلاء الذين يضربون الدف ويحلف بالله علـــى حبه لهؤلاء الذين يغنون.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوار يضربن بالدفوف يقلن:

نحن جَوار من بـــني النجـــار　　　يا حبذا محمـــد مـــن جـــار

فقال رسول الله ﷺ يعلم الله أن قلبي يحبكم)[3] ويقـــول رضـــي الله عنه:

(أبصر النبي ﷺ نساءً وصبياناً مقبلين من عرس فقام ممتناً فقال: اللهم أنت من أحب الناس إلي)[4].. وها هو عامر بن سعد بن أبي وقاص وهو

---

(١) حديث حسن. (صحيح الجامع ١/٢٤٣).

(٢) حديث حسن. (صحيح سنن النسائي ٢/٧٠٩).

(٣) سنده صحيح. رواه البيهقي (٢/٥٠٨) وابن ماجة (الصحيح للألباني ١/٣٢٠).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٨٠).

ليس بصحابي يستنكر جلوس اثنين من الصحابة عند الدف والغناء وهما من أهل بدر فماذا قالا له؟ يقول عامر رحمه الله:

(دخلت على قريظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس، وإذا جوار يغنين، فقلت: أنتما صاحبا رسول الله ﷺ، ومن أهل بدر، يفعل هذا عندكم؟ فقال:

اجلس إن شئت، فاسمع معنا، وإن شئت اذهب، قد رخص لنا في اللهو عند العرس)[1].. وغمرت المدينة فرحة.. وغمرت بيت النبوة التهاني من المهاجرين والأنصار.. وقدم المحبون للمشاركة في أفراح الزهراء..

وتسلسل بين القادمين رجال يبتسمون في وجه النبي ﷺ ووجوه أصحابه.. بينما كانت قلوبهم جامحة مولية.. تكاد تميز -تتقطع- غيظاً كلما تمادى سرور إلى قلبه أو بيته ﷺ.. كانت قلوب هؤلاء تتلمظ كالحيات.. أحد هؤلاء المزعجين المخيفين.. رجل يدعى: عبد الله بن أبي بن سلول.. تحت عباءة هذا الرجل يختبئ عشرات المشركين الذين يرون المدينة سجناً لا يطاق بمحمد وصحبه.. يرون المدينة غريبة دون أصنام دون شرك دون سحر وشعوذة.. وبعد تفكير قرر عبد الله بن أبي بن سلول أن يحمل أقدامه إلى حيث محمد ليبايعه وخلفه تثاقل عشرات الحاقدين فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ومدوا أيديهم المسمومة إلى يده الطاهرة مصافحين معلنين الولاء.. فقد أدرك عبد الله بن أبي ومن معه أنه لا مكان لهم في قلوب الناس ولا بين حرات المدينة وهم على شركهم.. أدركوا ذلك بالتحديد بعد انتصار المسلمين في بدر.. لذلك

---

(١) حديث حسن. (سنن النسائي ٢/٧١٢).

كونوا صفاً من الخفافيش.. تشرك في الظلام وتتظاهر بالإيمان تحت الشمس.. كونوا صفاً خطيراً عرف فيما بعد باسم المنافقين:

مولد النفاق

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنه: (لما غزا رسول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا)[1] بألسنتهم وخوفاً ممن حولهم من المؤمنين.. وإلا فهم ما زالوا على كفرهم.. يتمنون القضاء على هذا النبي ومن معه.. وينتظرون يوماً تثأر فيه قريش لصرعاها في بدر.. أو تنفجر يهود أو تثور هذه الجبال المحيطة بالمدينة فتدك هذا الإسلام وأهله.. ومرت الأيام والمنافقون ينتظرون شيئاً من هذا أو ذاك.. وفي يوم من الأيام لاح أمل للمنافقين.. وفركوا أيديهم فرحاً بخبر قادم من مكة.. فرح المنافقون بخطر قادم من قريش لعله يجسد أحلامهم.. سننتقل إلى مكة لنعرف ذلك الخبر.. ها هو أبو سفيان بن حرب وقد حصل على زعامة مكة بعد أبي جهل وأمية. ها هو وبعد مشاورات وندوات واجتماعات يقرر الثأر لطواغيت قريش.. ولأصنام قريش.. إنه يحشد الرجال والجمال والأموال.. والنفوس.. وبعد أن توافر له جيش ضخم يفوق جيش الشرك في بدر عزم على التحرك به نحو المدينة للإجهاز على دولة الإسلام هناك.. فتحركت قلوب المنافقين واليهود فرحاً به.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم.

النبي ﷺ يأمر بالانتفاع بالخمر

وبيعها بعد تلك الأحداث التي تسببت فيها الخمرة.. وبعد ذلك النكد الذي أحدثته - قام ﷺ على منبره.. يخاطب أصحابه وهو يتوجس أمراً سيحدث في المستقبل.. يقول أحد الصحابة وهو أبو سعيد الخدريّ:

(سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة، قال: يا أيها الناس.. إن الله تعالى يعرض بالخمر، ولعل الله سيترل فيها أمراً، فمن كان عنده منها شيء فليبعه، ولينتفع به)[1].

كان للخمر تأثير على مهر فاطمة.. وكان للخمر تأثير أشد على بيت أنس بن مالك.. لقد فرق بين أمه وأبيه.. بل لقد فرق بين أبيه والمدينة.. فبعد نزول قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[2]، وبعد خطبة النبي ﷺ تلك أحس مالك بن النضر والد أنس بضيق الإسلام ورسوله ﷺ من الخمر.. وهو مدمن خمر لا يصبر عنها - لم يحرم الإسلام الخمر حتى الآن.. لكن مالك لا يشعر بالتفاؤل تجاه هذا الموضوع.. ولذلك استدعى زوجته «أم سليم بنت ملحان» وهي أم أنس.. وصارحها بما في نفسه.. وأنه يرفض تحريم الخمر إن حرم.. وأن حبّه للسكر أكثر من حبه لزوجته وابنه الوحيد الصغير أنس.. لكن الله لم يترك أم سليم ولا ابنها.. فالله أرحم بالمؤمنين من أنفسهم.. هذه هي قصة أم سليم مع الخمر وزوجها.. يقصّها ابنها أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٥٧٨) تحريم بيع الخمر.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

(قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم -وهي أم أنس-: إن هذا الرجل يعني النبي ﷺ يحرم الخمر، فانطلق حتى أتى الشام فهلك هناك)[1].

وبقيت أم سليم وابنها في المدينة صابرين مؤمنين.. حتى علم رجل مشرك من أهل المدينة بما حدث فمال قلبه إلى أم سليم ورغب في الزواج منها.. وكان هذا الرجل يدعى «أبو طلحة».. فهل لديه قدرة على تقديم أغلى مهر تطلبه امرأة؟

أبو طلحة ومهر أم سليم الغالي

يقول أنس رضي الله عنه: (جاء أبو طلحة فخطب أم سليم، فكلمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة.. ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لي أن أتزوجك، فقال: ما ذاك مهرك؟ قالت: وما مهري؟ قال: الصفراء والبيضاء، قالت: فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء.. أريد منك الإسلام [أتزوجك وأنت تعبد خشبة نجرها عبدي فلان؟] «فإن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره». قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ، فانطلق أبو طلحة يريد النبي ﷺ -ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه- فلمّا رآه قال:

جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه.

فأخبر رسول الله ﷺ بما قالت أم سليم، فتزوجها على ذلك[2]،

---

(١) سنده صحيح رواه أبو داود الطيالسي (٢/١٥٩): حدثنا سليمان بن المغيرة وحماد بن سلمة وجعفر بن سليمان كلهم عن ثابت، عن أنس، وثابت تابعي ثقة سمع مع أنس بن مالك. انظر: التقريب (١/١١٥) وللحديث بقية تأتي فانظر ما بعده. وبعض الحديث عند الشيخين.

(٢) بعد هذه الكلمة قال ثابت البناني - مرت ترجمته في الحديث السابق - : (فما بلغنا أن =

وكانت امرأة مليحة العينين، فيها صغر، فكانت معه حتى ولد له بني، وكان يحبه أبو طلحة حباً شديداً، ومرض الصبي «مرضاً شديداً» وتواضع أبو طلحة لمرضه أو تضعضع له، «فكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي ﷺ فيصلي معه، ويكون معه إلى قريب من نصف النهار، ويجيء ويقيل ويأكل، فإذا صلى الظهر تهيّأ وذهب، فلم يجئ إلى صلاة العتمة».

فانطلق أبو طلحة عشية إلى النبي ﷺ، ومات الصبي، فقالت أم سليم: لا ينعينّ إلى أبي طلحة أحد ابنه حتى أكون أنا الذي أنعاه له، فهيأت الصبي «فسجت عليه» ووضعته «في جانب البيت»، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ حتى دخل عليها، «ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه»[1]. فقال: كيف ابني؟ فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة، «وأرجو أن يكون قد استراح»، فأتته بعشائه «فقربته إليهم فتعشوا، وخرج القوم»، «فقام إلى فراشه فوضع رأسه» ثم قامت فتطيبت «وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك»، «ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل مع أهله»، «فلما كان آخر الليل» قالت: يا أبا طلحة.. أرأيت لو أن قوماً أعاروا قوماً عارية لهم، فسألوهم إياها، أكان لهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا. قالت: فإن الله عزّ وجلّ كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب واصبر. فغضب ثم قال:

= مهراً كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهراً، فتزوجها) وقد فصلت هذه العبارة لأنها من كلامه لا من كلام أنس.

(١) هم أهل الصفة وهم أهل المسجد.. جاء بهم ليطعمهم.

تركتني حتى إذا وقعت بما وقعت به نعيت إليَّ ابني، «فاسترجع وحمد الله»، «فلما أصبح اغتسل»، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ «فصلى معه» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما»، فثقلت من ذلك الحمل، وكانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ، تخرج إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ: إذا ولدت فأتوني بالصبي، فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه)[1].

أم سليم الآن بصحبة رسول الله ﷺ.. ومعها زوجها ومعهم رجال كثيرون ونساء أيضاً.. ولكن إلى أين.. المكان الذي يقصدونه ليس ببعيد لكنه خطير جداً.. وسبب السفر أخطر وله قصة مثيرة.. فهل لديكم وقت للسفر مع رسول الله ﷺ وأم سليم وأبي طلحة وأصحابهم رضي الله عنهم.

هيا بنا.. ولكن قبل ذلك أستأذنكم للّحاق بهذا الرجل المهموم بالإيمان والكفر وأشياء ثقيلة تملأ رأسه وقلبه.. إنه

جبير بن مطعم والهموم

عاد جبير بن مطعم منكسراً إلى مكة.. يحمل الحسرة والهزيمة.. تاركاً طواغيت قريش في تلك البئر المنتنة.. تاركاً عمه «طعيمة» مجندلاً على أرض بدر تحرقه السوافع.. بعد أن أحرقه حمزة بسيفه الملتهب.. ثم عاد جبير إلى المدينة مرة أخرى يطلب إطلاق الأسرى دون مقابل.. لكن النبي ﷺ

(١) هو حديث أبي داود الطيالسي السابق وما بين المعقوفين عند البزار بسند صحيح (زوائد - ٢٤٦/٣)، والزيادة الأولى للنسائي والزيادة الرابعة لابن سعد (٤٣٢/٨) والسادسة والثامنة والثالثة عشر للبخاري ولتفصيل أكثر انظر كتاب الجنائز للشيخ الألباني حفظه الله (٢٤).

أجابه تلك الإجابة العظيمة التي يعترف بها ﷺ بمعروف والده المطعم ابن عدي.. فقال له: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[1].. فانكسر جبير بن المطعم بن عدي مرة أخرى.. ومضى إلى مكة كالحيرة بين الاحترام لوالده والاحتراق لعمه.. عاد يحمل إيماناً يرزح تحت أطنان من العادات والتقاليد والأصنام.. وكان أشدّ هذه الموروثات على نفسه شيطان كالجحيم.. شيطان اسمه: الثأر.

حوصر جبير بن مطعم بعد وصوله إلى مكة بالنواح على عمه.. بشقّ الجيوب ولطم الخدود.. حوصر بالاستفزاز الجاهلي حتى غلى الثأر في رأسه وعروقه.. جمع أبو سفيان الكفر وأهله متجهاً بهم نحو المدينة.. فأحسّ جبير بوخز الثأر.. فنادى عبداً مملوكاً له اسمه «وحشي».. وكان أمهر الناس برمي الحربة فهو نادراً ما يخطئ هدفه.. نادى جبير «وحشياً» ليفتح له باباً للعتق من الذل.. ناداه ليخلصه من هذا الرق والحصار الكريه.. ناداه وأغراه بأحلام كل العبيد.. أغراه بـ:

حمزة باباً للحرية

يقول وحشي: (كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أُحُد قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً «حبشياً» أقذف بالحربة قذف الحبشة قلَّ ما أخطئ بها شيئاً)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٣).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير - ٣/٣٥): حدثني عبد الله بن الفضل بن عياش بن ربيعة بن الحارث عن سليمان بن يسار، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشي مباشرة... وهذا السند صحيح: عبد بن الفضل بن عباس وليس عياشاً كما =

خرج وحشي لا يبحث عن شيء سوى الحرية.. لا يبحث سوى عن حمزة.. ليس لديه ثأر مع أحد.. كان يبحث عن ثأر من قيود العبودية والرقّ الذليل التي طوّقته بها قريش.. كان وحشي مشركاً.. لا يفرّق بين الوسائل نحو الحرية.. ولا يهمّه سواها.. حتى ولو خاض في دماء طاهرة كدماء حمزة..

كان جيش الثأر المشرك يسير في اتجاه.. وكان وحشي معهم لكنه يسير في اتجاه آخر.. اتجاه من الأحلام والوعود المخضبة بالدماء.. حتى وصلوا إلى مكان قريب من جبل أُحد حول المدينة.. التي أفاقت على هول الخبر ومفاجأته.. وأفاق رسول الله ﷺ من نومه ورؤياه.

رؤيا النبي ﷺ

كان ﷺ نائماً.. والنبي ﷺ يقول: (تنام عيناي ولا ينام قلبي)[1]، وفي نومه ذلك رأى رؤيا قال عنها: (إني رأيت أني في درع حصينة، فأوّلتها: المدينة، وأني مردف كبشاً فأوّلته كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فُلّ، فأوّلته: فلا فيكم، ورأيت بقراً تذبح، فبقرٌ والله خير.. فبقرٌ والله خير)[2].

جاء عند ابن كثير.. ثقة وتابعي من رجال الشيخين (التقريب - ١/٤٤٠) وشيخه أحد الفقهاء السبعة وهو تابعي ثقة (التقريب - ١/٣٣١) وجعفر تابعي أيضاً وثقة أيضاً (التقريب - ١/١٣١).

(١) حديث صحيح - صحيح الجامع (٥٧٦/١٢).

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٢٧١/١) والبيهقي من طريق ابن وهب أخبرنا ابن أبي الزناد، عن أبيه، عبيد الله بن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس، وابن أبي الزناد ووالده ثقتان - التقريب (٤١٣/١ - ٤٨٦١) وعبيد الله تابعي ثقة فقيه - التقريب (٥٣٥/١).

نهض ﷺ من نومه.. وهبّ لجمع أصحابه.. لا ليقرّر.. ولا ليأمر بل:

دعاهم ليستشيرهم

وبعدما اجتمعوا شاورهم جميعاً دون استثناء.. وكان رأيه ﷺ ورأي بعض الصحابة أن يقاتلوا داخل المدينة.. وقص عليهم ﷺ رؤياه.. لكن أناساً منهم لم يحضروا غزوة بدر.. غمرهم الحماس وأصرّوا على الخروج لتأديب أولئك الوثنيّين.. لعل أحدهم عمّ أنس بن مالك واسمه أنس بن النضر.. يقول أنس عن عمّه رضي الله عنهما: (عمي أنس -سمّيت به- ولم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشقّ عليه، وقال: أول مشهد[1] شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، ولئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع..)[2] قال أنس بن مالك: إن عمه (هاب أن يقول غيرها)[3].. إن رجالاً بهذه المعنويات لا يمكن أن يقنعوا بقتال الشوارع والمدن.. إنهم يريدون ساحات ومساحات يعانقون فيها الخلود.. وينتشون فيها ببريق الشهادة والسيوف.

لكن الحماس لا يعني الانتصار.. والمعنويات لا تكفي.. فخارج هذه المدينة يربض عدو استعدّ وأعدّ وكشّر.. عدو حمل كل ما يمكن حمله للانتقام والثأر.. فالبقاء في المدينة أحكم وأسلم عسكرياً في ظلّ عدم الاستعداد والمفاجأة التي لم تكن في الحسبان.. لدرجة أن رسول الله ﷺ يحدّث أصحابه وهو في ثيابه العادية حتى الآن..

قال رسول الله ﷺ قوله.. وأبدى رأيه وترك الاختيار لأصحابه رضي

---

(١) يقصد رضي الله عنه غزوة بدر.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم وأحمد واللفظ له (سيرة ابن كثير – ٦٢/٣).

(٣) سنده صحيح وهو جزء من حديث أحمد والبيهقي السابق.

الله عنهم.. (فقال لـــه ناسٌ لم يكونوا شهدوا بدراً: يخرج بنا رسول الله ﷺ إليهم نقاتلهم - ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ.. حتى لبس أداته[1]، ثم ندموا وقالوا: يا رســـول الله.. أقـــم فالرأي رأيك. فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه).. وقبل أن ينطلق ﷺ إلى أرض المعركة أحب أن يستعرض جيشه الذي تداعى من كل مكان في المدينة متلهفاً.. فأجاز من يستطيع القتال وردّ صغار السن.. هذا أحدهم: البراء بن عازب يقول رضي الله عنه: (عرضت أنا وابن عمر يوم بدر فاستصغرنا وشهدنا أُحداً)[2]، لكن ابن عمر أرجع لأنه لم يتجاوز الخامسة عشر.

يقول ابن عمر رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أُحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه)[3] للخروج مع الجيش..

عاد ابن عمر مكسور الخاطر بعد أن ودّع والده الحبيب.. لكنـــه لم يكن أكثر انكساراً ولا حماساً من ذلك الشيخ الكبير الذي يحاصره أبناؤه الأربعة وتحاصره الإعاقة.. إنه: (عمرو بن الجموح.. أعرج شديد العرج، وكان لـــه أربعة بنون «مثل الأُســـد يشـــهدون مـــع رســـول الله ﷺ المشاهد».. يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما أراد رسول الله ﷺ أن

---

(١) أي أداة الحرب.

(٢) سنده حسن، رواه الطبراني (٢/٨) حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثني عمي أبـــو بكـــر، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن مطوف، عن أبي إسحاق عن البراء... وشيخ الطبراني ثقة من أوعية العلم قال عنه الإمام الألباني: فيه كلام، لا يترل حديثه عـــن رتبـــة الحســـن (الصحيحة - (٤/١٥٦)) وشيخه أبو بكر بن أبي شيبة صـــاحب المصـــنف والإمـــام المعروف، وعبد الله بن إدريس ثقة فقيه عابد - التقريب (١/٤٠١) ومطوف ثقة فاضل - التقريب (٢/٢٥٣) وأبو إسحاق تابعي علم مر معنا كثيراً.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

يتوجه إلى أُحد «أرادوا حبسه»، قال لـــه بنوه: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال له: إن بني هـــؤلاء «يريـــدون أن يحبسوني».. يمنعوني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد معك، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال لـــه رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد، وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعلّ الله عـــزّ وجـــلّ يرزقه الشهادة)[١].

كان رضي الله عنه يحلم بشوارع الجنّة تلامسها تلك العرجة وتتدلّى من شرفاها وتخوض في مياهها العذبة.. لذلك توجّه بسؤال ينبض بالشوق إلى رسول الله ﷺ.. لقد (أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ -وكانت رجله عرجاء- فقال رسول الله ﷺ: نعم)[٢].

إجابة ملأت صدر عمرو بن الجموح بالنهار.. إجابة ألجمـــت الأســـود الأربعة.. فخرجوا كالأشبال حول هذا الشيخ الجســـور.. خرجـــوا دون أن يودعوا أمّهم فاطمة.. فهي ليست في البيت الآن.. لأنها تسير مع رفيق دربهـــا وحبيبها.. أخرجها الشوق إلى الجنّة مثلما أخرج زوجها وأبناءهـــا.. وكـــان لفاطمة العظيمة هذه أخ اسمه: عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري.. وعبـــد

(١) رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٦) والزوائد عند ابن كثير: حدثني والـــدي عن أشياخ من بني سلمة: ووالد ابن إسحاق تابعي ثقة يروي عن الصحابة ولعل هـــؤلاء منهم - وهو الأرجح - لأنه يروي بهذه الصيغة عن الصحابة، وهؤلاء جمع ومـــن بـــني سلمة - وهم قوم جابر وعمرو بن الجموح... وإلا فالسند مرسل...

(٢) سنده حسن رواه أحمد (٥/٢٩٩) وابن أبي شيبة (الإصابة - ٧/٩٦).. حدثنا أبو صخر ابن زياد أن يحيى بن النضر حدثه عن أبي قتادة... وأبو صخر حسن الحديث إذا لم يخالف (التهذيب - ٣/٤١) وشيخه تابعي ثقة (التقريب - ٢/٣٥٩).

الله هذا صديق حميم لزوجها عمرو بن الجموح.. لكن أحوال عبد الله بن عمرو بن حرام مختلفة عن أحوال صديقه.. كان لعمرو بن الجموح أربعة أبناء يحاولون إبقاءه في بيته.. أما عبد الله فله ولد وحيد اسمه جابر.. وهو يمنعه الآن من الخروج.. إنه يأمره بالبقاء في المدينة.. فظروف بيت عبد الله تستدعي أن يبقى أحد الاثنين.. ولابد للابن من أن يطيع والده.. لكن لماذا لا يخرج الاثنان إلى المعركة كما خرج عمرو وأبناؤه وأمّهم جميعاً..؟ دعونا نتوجّه إلى بيت جابر بن عبد الله إنه ليس ببعيد.. ها هو البيت.. بيت جميل بالإيمان والأحلام والفتيات.. بيت يغرق بالمشاعر والدموع والرجاء.. في عالم بين:

البنات والمعركة

حديث حزين يدور بين جابر بن عبد الله ووالده الذي يصرّ على الخروج.. فيخاطب رجولة ابنه وبرّه وإيمانه فيقول: (يا جابر.. لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي)[1]..

جابر ووالده لهف على الموت في سبيل الله.. لكن الدموع التي تفيض من العيون البريئة.. وتلك النظرات الخائفة التي تعصف بقلب هذا الشيخ الكبير.. تتعلّق به وتريد الاحتفاظ به.. تتغلغل كالجروح..

تسع فتيات حزينات.. يتساءلن هل سيعود والدنا من المعركة أم أنه الوداع الأخير لهذا الشيخ الحبيب.

عناق ونظرات ودموع تحاصر هذا الشيخ.. فيتفطر قلبه ويحسّ بدبيب الموت يسري في عروقه.. ويشعر بخطوات اليتم المخيفة تتجه نحو

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

حبيباته الصغيرات.. اللواتي طالما انتظرنه في البيت وعلى عتبة الباب.. فإذا ما رأينه مقبلاً تراكضن نحوه كالزهرات.. أيهنّ تحظى بقبلة قبل أخواتها.. يتزاحمن على ما يحمله بيديه.. كلهنّ يردن التخفيف عنه ورؤية ما أحضر لهنّ.. كلهنّ يردن خدمته.. طالما أعددن شرابه وطعامه.. وغسلن ثيابه.. وغطّينه وهو نائم.. ولطالما مرّضنه من حمى المدينة القاسية.. تسع زهرات.. كم حملهن على ظهره.. ولاعبهن وضاحكهن وقصّ عليهن.. كم ألححن عليه ليشتري لهن الملابس والحلي.. فيستجيب مهزوماً بالحب..

ذكريات وهموم تثقل الشيخ العطوف وتملأ قلبه.. فتخرج الكلمات منه بصوت متهدّج بالحزن.. ويقول لابنه جابر: (ما أراني إلاّ مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ ديناً فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيراً)[1].

لكن الكلمات لا تطفئ هذه النار المستعرّة بين أضلاع هذا الشيخ.. لا تكفي لمقاومة ألم الفراق واليتم القادم.. فيتّجه به الحزن إلى شيء لا يزال حلالاً حتى الآن.. يتجه به الحزن إلى شيء قد ينسيه بعض الحزن.. قد ينسيه ذلك الشوق المنبعث من تلك العيون البريئة التي لا تُنسى.

والد جابر يشرب خمراً قبل المعركة

يتجه رضي الله عنه إلى الخمر فيحتسي شيئاً منها علّها تخرجه مما هو فيه.. علّها تسليه حتى تحين ساعة العراك حيث تذوب الخمر ويشتدّ

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٥١).

الأمر.. ويذهل عبد الله عن كل شيء سوى الشهادة.. يقول جابر رضي الله عنه: (اصطبح -والله- أبي يوم أحد الخمر ثم غدا فقاتل)[1]، ولم يكن والد جابر هو الوحيد الذي شرب خمراً ذلك الصباح.. فلقد (صبح أناس غداة أحد الخمر)[2].. فهل كانت أحزانهم كأحزان عبد الله الذي يغادر بيته وبناته.. ويترك لابنه جابر من الهموم والمسؤوليات الشيء الكثير.. لكن جابراً أهلٌ لتحمّلها.. لأن الإسلام جعل من جابر بن عبد الله إحساساً مرهفاً.. غيمة تهمي حناناً وربيعاً على أخواته المسكينات.. يقول جابر رضي الله عنه إن والده (ترك عليه ديناً)[3] و(ترك تسع بنات كن لي تسع أخوات)[4] مسؤولية جسيمة لا تنقضي. يقول ﷺ: (من عالَ جاريتين حتى يدركا، دخلت أنا وهو الجنّة كهاتين)[5]، أي كالأصبعين المتجاورين.. هذا إذا عال الرجل فتاتين.. فكيف إذا كان تحت رعايته تسع بنات..؟

كم يحب الإسلام البنات ويعتني بهن.. ويطالب بحبهنّ والعناية بهنّ.. هنيئاً لجابر.. وهنيئاً له موقعه بين نظاري المدينة الذين يحرسون ثغورها.. ويسهرون حمايةً لها.. بشَّرهم ﷺ وبشَّر غيرهم عندما قال: (عينان لا تصيبهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[6].

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٢٠٢/٣): حدثني وهب بن كيسان عن جابر، ووهب تابعي ثقة سمع من جابر انظر: التهذيب (١٦٦/١١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٨).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٣).

(٥) حديث صحيح: صحيح الجامع (١٠٩٢/٢).

(٦) حديث صحيح... صحيح الجامع (٧٥٦/٢).

بقي جابر على ثغور المدينة.. وغادر والده عبد الله بصحبة رفيقه عمرو بن الجموح وأبنائه وأخته فاطمة.. غادروا المدينة صاخبة.. مزدحمة بالعناق والدموع.. ها هو حذيفة بن اليمان ووالده «حسيل» اللذان أرغمهما المشركون على أن يقسما ألا يشاركا رسول الله ﷺ في غزوة بدر.. ها هما اليوم على أُهبة الاستعداد والإعداد للفتك بالشرك.. لكن الأمر جاء على غير ما يحبّان.. إن حذيفة يودع والده الآن.. لكن الذي سيبقى هذه المرة هو الوالد والذي سيغادر هو حذيفة رضي الله عنهما.. فلقد أمر ﷺ حسيلاً بالبقاء لحراسة المدينة، كما أمر شيخاً آخر بالبقاء مع حسيل.. واسم هذا الشيخ: «ثابت بن وقش»، فبقيا كارهين أن تفوهما الشهادة.

انظروا إلى هذا المترل العظيم.. ففيه تستعرّ نار الفراق والوجد.. إنه مترل الكريم.. الكريم سعد بن الربيع الذي عرض نصف ماله وإحدى زوجاته على عبد الرحمن بن عوف.. تناثرت الدموع دموع ابنتيه الوحيدتين ودموع زوجته التي بقيت معه.. إن حاله كحال والد جابر.. لقد خرج سعد وخرجنا معه إلى ناحية أخرى.. إنها الناحية التي انزوى فيها صحابيان عن الناس.. ماذا يفعلان؟ إنهما يدعوان.. يبوحان فيبحر الدعاء بهما.. دعونا نبحر معهما إلى جزيرة هذا وجزيرة ذاك.. ولكن قبل ذلك نودّ التعرف إليهما..

إنهما من الأوائل

أمّا الأول، فأوّل من رمى بسهم في سبيل الله.. وهو سعد بن أبي وقاص.. أمهر من رمى السهام.

وأمّا الآخر.. فأوّل من قاد سرية لرسول الله ﷺ ولدولة الإسلام

الجديدة.. إنه عبد الله بن جحش رضي الله عنهما.. ها هو سعد يحدّثنا عما جرى في تلك الناحية.. فيقول:

(إن عبد الله بن جحش، قال له يوم أُحد: ألا تدعو الله، فخلوا في ناحية، فدعا سعد فقال:

يا ربّ إذا لقيت العدو، فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه.. فأمَّن عبد الله بن جحش ثم قال:

اللّهمّ ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد فِيمَ جدع أنفك وأذنك؟ من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت)[1].

يا لهذه الجزر الحالمة الساحرة.. يا لهذه الأنفس ما أعظمها.. ترى هل سيجيب الله هذه الابتهالات.. ستبوح بالإجابة أرض المعركة.. وجبل عينين وجبل أُحد سيشهدان على ذلك.. لماذا كل هذه الحرقة

---

(١) سنده قوي: رواه الحاكم (٨٦/٢) وأبو نعيم في الحلية (١٠٨/١) من طرق عن ابن وهب حدثني أبو صخر عن يزيد بن قسيط الليثي عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، وأبو صخر هو حميد بن زياد بن أبي المخارق (التهذيب - ٤١/٣) وهو حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ: (صدوق يهم) (التقريب - ٢٠٢/١) وشيخه يزيد تابعي ثقة: التقريب (٣٦٧/٢) وأما إسحاق ابن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص فهو ثقة.. وثقة الإمام العجلي في ثقاته توثيقاً لفظياً فقال: مدني تابعي ثقة (٦٠) ووثقه ابن حبان.
وللحديث شاهد عند ابن سعد بسند ضعيف مرسلاً عن سعيد بن المسيب، وعن المطلب ابن حنطب مرسلاً أيضاً (٩٠/٣ - ٩١)

على الموت.. كل هذا الاحتفاء والعشق الذي يحرق الأكبـــاد.. إنهـــا الجنّة.

وهؤلاء الرجال يحتقرون أعمارهم وأعمالهم وفداءهم إذا ما قارنوها بثوابها عند الله.. إنهم مسافرون إلى الخلود.. فلو ضرب المؤمن سنين عمره في عدد حبات الرمال المنثورة على وجه الأرض لما حصل علـــى عـــدد يقارب سنين عمره في الجنّة.. فكيف يلام شيوخ كعمرو بـــن الجمـــوح وعبد الله بن عمرو بن حرام وحسيل.. كيف يلام هؤلاء الشيب إذا مـــا نافسوا الشباب على ظهور الخيل والموت وهم يسمعون رســـول الله ﷺ يقول: (يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جرداً، مرداً، كأنّهم مكحلون، أبناء ثلاث وثلاثين)[1] (لا يسقمون ولا يبولون، ولا يتغوّطـــون، ولا يتفلـــون، ولا يمتخطون)[2]، قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: (فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك)[3]، (ينادي منادي: إن لكـــم أن تصـــحوا فـــلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فـــلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً)[4] فـــ (إذا دخل أهـــل الجنة الجنّة وأهل النارِ النارَ يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنّة والنار، فيقال:

يا أهل الجنّة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون، فينظرون، ويقولـــون: نعم.. هذا الموت. وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون، فيقولون: نعم.. هذا الموت.. وكلّهم قد رآه، فيؤمر

(١) حديث صحيح انظر: صحيح الجامع (٣٤١/٢).
(٢) حديث صحيح متفق عليه – المشكاة (١٥٦٤/٣).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم – المشكاة (١٥٦٤/٣).
(٤) حديث صحيح رواه مسلم – المشكاة (١٥٦٤/٣).

به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنّة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت)[1].

وقد خطف ﷺ أرواحهم وعقولهم وقلوبهم عندما تحدّث عن الجهاد في سبيل الله، فقال: (غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنّة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها)[2]، كل هذا السحر.. كل هذا الجمال.. كل هذه الفتنة لنساء الجنّة من المؤمنات ومن الحور.. فلا عجب أن نرى ضمن الجيش نساءً خرجن للمشاركة في المعركة.. يداوين الجرحى ويسقين العطشى.. كان في مقدمتهن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوجته عائشة بنت أبي بكر الصديق.. وصفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وأخت حمزة رضي الله عنهم.. وأم سليم بنت ملحان المشهورة بـ (الرميصاء) وهي أم أنس بن مالك رضي الله عنهما.. وهنّ من الأنصار.. كما شاركت أنصاريات أُخر منهنّ: أم سليط رضي الله عنها وفاطمة[3] بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله وعمّة جابر وزوجة عمرو بن الجموح ونساء أخريات من المهاجرين والأنصار..

ولئن استطاع بعض النساء أن يخرجن مع رسول الله ﷺ في حروبه فإن هناك من الرجال من لا يقدر على الخروج.. والحرج يحاصرهم بعد نزول هذه الآيات:

---

(١) حديث صحيح، صحيح الجامع (١٥٢/١).

(٢) حديث صحيح: رواه البخاري (المشكاة - ١٥٦٢/٣).

(٣) سيأتي ذكرهن أثناء المعركة وبعدها في أحاديث صحيحة إن شاء الله.

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر)[1]، وكانت الآيات قد نزلت كما يحدثنا أول من سمعها وأوّل من كتبها: زيد بن ثابت رضي الله عنه.. فيقول: (إن النبي ﷺ أملى عليه ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علي، قال: يا رسول الله.. والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت -وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله ﷺ -وفخذه على فخذي- فثقلت عليَّ حتى أن تُرضَّ فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾)[2]، فصارت الآية تقرأ هكذا: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾[3]، لكن ماذا عن أجر القاعدين المعذورين؟ يقول ﷺ:

(لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونــــون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر)[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٩٥).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٩٢).

(٣) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري وأحمد وأبو داود واللفظ له (تفسير ابن كثير -النســـاء- ٩٥) (٢/٣٣٩).

فلم يحبس عنهم الأجر.. فالمسلم ليس بأعماله فقط.. بل بنواياه أيضاً.. وإذا كان ابن أم مكتوم قد حبسه العمى.. فإن هناك رجالاً حبسهم عن الجهاد رسول الله ﷺ.. رغم أنهم لا يشكون من شيء في أجسادهم.. ولا يشكّ ﷺ في إيمانهم.. وإنما حبسهم عليه الصّلاة والسّلام ليكلفهم بمهمة جهادية داخل المدينة هي الرباط والحفاظ على المدينة من أي عدو.. سواءً كان غدر يهودي أو منافق.. أو كرّ مشرك من خارج المدينة..

المرابطون

على الآطام[1] والحصون.. هم رجال شجعان أوكل إليهم ﷺ حراسة المدينة والرباط فيها.. وبشّر المرابطين بأجر عظيم، فقال ﷺ:

(رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات مرابطاً جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان)[2] و(رباط شهر خير من صيام دهر، ومن مات مرابطاً في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر، وغدي عليه برزقه، وريح من الجنّة، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله)[3]..

وكان من بين الذين حظوا بهذا الأجر والأمر والد حذيفة بن اليمان ذلك الرجل الذي منعه العهد والوعد من مشاركة النبي ﷺ في معركة بدر.. وصحابي آخر اسمه: ثابت بن وقش بن زعوراء رضي الله عنهما.. فـ (لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد وقع اليمان بن جابر -أبو حذيفة- وثابت بن وقش بن زعوراء في الآطام مع النساء والصبيان)[4].

(١) الحصون.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (انظر: صحيح الجامع - ٦٥٥).

(٣) حديث صحيح رواه الطبراني (انظر: صحيح الجامع - ٦٥٥).

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣/٢٠٢): حدثني عاصم بن عمر بن =

استعدّ الجميع.. وتأهبوا للخروج إلاّ رجلين.. الأول لا حاجة به إلى الاستعداد.. فهو لا يملك من هذه الدنيا شيئاً يحتاج إلى وداع أو وصية.. فأملاكه كلّها بين يديه وفي صدره.. مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف.. ابن الأم الثرية.. الشاب المنعم أيام شركه.. لا يملك الآن إلاّ سيفه وقرآناً يملأ صدره ويملأ بيوت المدينة بعد أن سافر في بيوت الأنصار.. وزرع فيها العلم والإيمان.. هذا هو مصعب بن عمير الذي لقبه الأنصار بـ«المعلم»..

أمّا الآخر فهو شاب يتمتّع بأحلى أيام عرسه.. إنه الآن مع عروسه.. يتبادلان عذب الكلام والأحلام.. صفو المشاعر والغرام.. وفجأة يدوي في المدينة داعي الجهاد فينسل حنظلة بن أبي عامر من فراشه ويتحول العاشق إلى محارب يودع عروسه بحرارة المحبِّ الذي لن يعود.. فتهمي دموع حبيبته وتستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه.. فهو أغلى ما تملكه.. ويغيب حنظلة عن عينيها.. وتغيب في همومها وأحزانها التي لا تدري متى تنتهي.. أحزانها التي لا يخفّفها سوى الإيمان.

خرج ﷺ من المدينة متوجهاً نحو أُحد.. حاملاً سيفه «ذا الفقار» الذي غنمه من غزوة بدر.. ولم يكتف ﷺ بلبس درعه.. بل لبس عليه درعاً آخر.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رسول الله ﷺ ظاهر يوم أُحد بين درعين -أو لبس درعين-)[1]. وإذا كان النبي ﷺ الذي يحفظه الله من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله ومن فوقه ومن

=

قتادة عن محمود بن لبيد، وعاصم تابعي ثقة من علماء المغازي... ومحمود بن لبيد صحابي رضي الله عنه.

(١) حديث صحيح انظر: صحيح أبي داود (٢/٤٩١).

تحته يحتاط كل هذا الاحتياط.. فصحابته أولى.. يقول الزبير رضـي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ قد ظاهر بين درعين يومئذٍ)[1].

انطلق ﷺ لملاقاة حشود الشرك المحتقنة.. كانت رايته ترفـرف في الهواء (كانت سوداء من نمرة)[2] صوف.. أما لواؤه ﷺ فكـان لـواؤه (أبيض)[3].. كان كل شيء في هذا الجيش يرفـرف للجنّـة وعوالمهـا الساحرة.

كان الرجال يتجمّلون للشهادة.. إلاّ أشباه رجال خرجوا بأجساد نخرة.. وبمعنويات يجرّونها خلفهم كالذلّ.. رجال يرتجفون من كل شيء حولهم.. يحسبون كل صيحة عليهم.. خوفاً خرجوا.. خوفاً صـحبوه ﷺ.. لكن هلعهم تفاقم عندما اقتربوا من الحقيقة -المعركة.. تحركت الخيانة في دمائهم.. ونهضت كالشيطان تشير بأصبعها إلى الوراء.. تأمرهم بالعودة إلى المدينة وترك محمد ﷺ وأصحابه.. فاسـتجابوا ورجعـوا.. صـدم الصحابة بما حدث ولم يصدم ﷺ لأنه يعرفهم.. صـعق الصـحابة بمـا يجري.. هل هؤلاء مسلمون.. هب أنهم غير مسلمين هل هذا التصرّف- العار من شيم العرب وأخلاق العروبة.. أين الرجولة.. أين النخـوة؟.. هباء.. كل شيء داخل هؤلاء الخونة هباء.. إلاّ الكفر والحقـد.. لكـن الصحابة لم يسكتوا.. ولم يتحمّلوا هذا الموقف المخزي.. قرّر بعضهم أن

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٣٨) حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، عن الزبير رضي الله عنه.. يحيى ثقة (التقريب - ٢/٣٥٠) ووالده تابعي ثقة - التقريب (١/٣٩٢).

(٢) حديث صحيح انظر: صحيح أبي داود (٢/٤٩١) وقد حذفت لفظاً ضعيفاً من الحديث هو «مربعة».

(٣) المصدر السابق (٢/٤٩١).

يبدأوا بقتال هؤلاء الأنذال الجبناء قبل أن يقاتلوا جيش مكّة المشـــرك.. لكن البعض فضّل عدم إهدار طاقتهم وتدنيس أيديهم بدمائهم القـــذرة.. وهذا ما مال إليه ﷺ.. فلا بدّ من التركيز على الخطر الداهم - العاجل.. يقول زيد بن ثابت ملخصاً ما حدث من خيانة:

(إن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكـــان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم.. وفرقة تقول: لا، فـــــأنزل الله: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾، فقـــال رسول الله ﷺ: إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كمـــا تنفـــي النـــار خبـــث الفضة)[1].

شعّت الفضّة ولمعت بعد أن تعرضت لنار الشدائد فانســلخ خبـــث النفاق عنها.. ورجع الخونة دون أخـــلاق إلى جحـــورهم في المدينـــة كالحيات.. كالعقارب.. وأصبح جيش محمد ﷺ قلـــيلاً.. ضـــعيفاً إلاّ بالإيمان.. لكن قلّة العدد والخيانة واستعداد العدو خيّم للحظـــات علـــى بعض الأنصار وهم بنو حارثة وبنو سلمة.. فقد كاد الإحباط والفشل أن يستولي عليهم.. لكن القرآن يفعل المعجزات.. نزل القرآن يغسل ما بهم من هموم وإحباط.. فثبتوا مع رسول الله ﷺ كالجبال.. بل لقد صار ذلك الموقف مبعث فخر لهم إلى يوم القيامة.. لقد فرحوا بما نزل مـــن آيـــات تصف حالهم وتثني عليهم.. هذا أحد أبنائهم يفرح بنزول كلام الله على نبيه فيهم، فيقول:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٨٩) ومسلم - المنافقين، وأحمد (١٨٤/٥) واللفـــظ لأحمد والآية عندهم إلى قوله تعالى: ﴿بما كسبوا﴾ وأكملتها للفائدة.

(فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب -وما يسرّني- أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾)[1]. إذاً فهم أولياء الله.. وهـم بشـر.. يتعرّضون لما يتعرض له البشر.. لكن القرآن زاحم ذلك الضعف حتى نفاه..

وذكرهم بنصر لم يتوقعوه.. فدبّ الحماس في عروقهم وأرواحهم.. يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

صفت النفوس من الضعف.. وتخلّص الجيش من معظـم الخونـة.. وتوجّه الجميع إلى منطقة:

بين عينين وأحد

وعينين جبل.. وأُحد جبل آخر وبينهما وادٍ[3].. وصـل الجـيش المؤمن، فتوقف النبي ﷺ.. وتوقف أصحابه.. وعندما لامست أقـدامهم تلك الأرض.. تأمّلها ﷺ جيداً.. وتأمل أصحابه فوجدهم قلّة.. فـأدار المعركة من مخيلته قبل أن تدور على الأرض.. فرأى جبل أُحد.. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ طلع له أُحد فقال: هذا جبل يحبّنـا ونحبه)[4]، تأمل ﷺ أُحداً فوجده حبيباً للمؤمنين يتمنى خدمتهم في مثـل هذه الظروف القاسية.. فوظفه ﷺ توظيفاً يرجح به كفة جيش صـغير

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٥٨).

(٢) سورة البقرة: الآيتان ١٢١ - ١٢٣.

(٣) هذا ما جاء في البخاري في حديث طويل (٤٠٧٢).

(٤) حديث صحيح رواه الإمام البخاري (٤٠٨٤).

على جيش كبير كجيش قريش.. لقد قرر ﷺ أن يستخدم هـذا الجبـل كدرع خلفي للجيش.. ليس هذا فحسب.. بل جعل من هـذا الجبـل قاعدة جوية تنتشر من أعلاه مظلّة تساند الجيش أثناء المعركة وتحميه من أي التفاف قد يقوم به المشركون من خلف الجبل.. لا سيما وأنّهم قـد سبقوا المسلمين إلى موقع المعركة..وهذا ما أوجب دقّة التخطيط وضرورة الدقّة في التنفيذ.. وأهمية الانضباط في العمل.. أخرج ﷺ مـن الجـيش مجموعة من الرماة وحدّد لهم موقعاً على الجبل وأمرهم بالبقاء فيه مهمـا كانت الظروف.. مهما كانت النتيجة.. و(جعل النبي ﷺ على الرماة يوم أُحد عبد الله بن جبير)[1] قائداً لا يجوز لهم أن يعصوه..

لقد كان ﷺ يدرك خطورة الموقف وشدّته.. كان واضحاً وصـارماً في تعاليمه للرماة.. لقد (أقامهم في موضع ثم قال: احموا ظهورنا، فـإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا)[2]، لا مكان للتوقعات والظنون.. ولا للحماس الزائد.. كان ﷺ يريد عزلهم عن كل هذه الأمور كي يركزوا ويكرّسوا كل طاقاتهم واهتمامهم لوظيفتهم التي حدّدها ﷺ هي واضحة جداً.. جداً..

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام البخاري (٣٩٨٦).

(٢) ظاهر إسناده الضعف لكنه صحيح رواه الإمام أحمد (١/٨٧ - ٢/٢٨١٨) حدثنا سلمان ابن داود، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله عن ابن عباس.. وعبيد الله تابعي ثقة ثبت - التقريب (١/٥٣٥) وأبو الزناد تابعي ثقـة أيضـاً (التقريـب - ١/٤١٣) وعبد الرحمن بن أبي الزناد ثقة تغير حفظه عندما قدم بغداد.. وسليمان بن داود سكن بغداد وهو ثقة فقيه جليل.. لكن الناقد الثقة المعروف علي بن المديني رحمه الله لـه رأي في رواية سليمان عن عبد الرحمن حيث يقول: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهـي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة وجعل علي يستحسنها، سمع ذلك من علي يعقوب ابن شيبة وذكره الإمام الترمذي في علله (٢/٦٠٦).

وهل هناك أشدّ صرامة من قوله ﷺ للرماة (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[1].

سمع الرماة وأطاعوا.. وصعدوا خلف قائدهم عبد الله بن جبير وأخذ كل منهم موقعه على الجبل..

أمّا على الأرض.. فقد كان هذا النبي والقائد العبقري ﷺ ينظم صفوفه.. سندعه يكمل تنظيم جيشه بينما نلقي نظرة على ذلك الجيش الوثني المحتقن بالثأر وبهزيمة بدر.. إنه يقبع قرب جبل «عينين» وهذا ما جعلهم يسمونه «عام عينين»[2]، بينما كان المسلمون يسمّونه «عام أُحُد»..

كان جيش قريش يفتقد إلى أشياء كثيرة.. أهمّها الهدف الموحد والبعيد للمعركة.. كانت المعركة بالنسبة لهم ذات أهداف شخصية بالدرجة الأولى.. فعكرمة خرج للثأر لأبيه.. وأبي بن خلف جاء ليقتل رسول الله ﷺ ثأراً لمصرع أخيه أمية بن خلف.. وجبير بن مطعم لا أدري هل كان ضمن الجيش أم لا.. لكنه يحلم بالثأر لعمّه من حمزة.. وبما أنه لا أحد يقدر على مواجهة حمزة.. فقد فضّل أن يقدم عرضاً لمن يقوم بهذه المهمة.. فعرض على عبده «وحشي» القيام بذلك مقابل حريّته.. ووحشي لن يواجه حمزة ولا يستطيع.. لكنه يجيد الرماية بالحربة وهو أمر ممكن لأن حمزة سيكون بعيداً عندها.. ولا تحتاج هذه المهمة سوى إلى

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) دليلي على ذلك تسمية وحشي لغزوة بـ«عام عينين» كما جاء ذلك عند البخاري (٤٠٧٢) وكان وحشي ضمن جيش المشركين.

الانتظار والترقّب.. قدم المطعم عرضه فقبل وحشي القيام بهذه المهمة من أجل الحرية.. والحرية فقط.. فوحشي ليس بينه وبين المسلمين أي عداء.. عدوّه الوحيد هو الرق.. أمّا أبو سفيان فربما أخرجته للمعركة زعامته الجديدة لقريش بعد هلاك الطواغيت السبعة ومصرعهم على ساحة بدر.. وربما حرضته على ذلك زوجته هند التي كانت تتحرق للثأر.. بعد هلاك أبيها وعمّها وأخيها على يد حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم.. ومن الأشياء التي يفتقدها الجيش الوثني: حب الموت والاستبشار بالشهادة.. فهم يحرصون على الحياة كحرص المؤمنين على الشهادة.. وهذا الشيء هو سرّ تحطّم أعتى الجيوش على أيدي المؤمنين..

ومن الأشياء التي يفتقدها جيش قريش: النظام.. فمن الصعب جداً أن تسيطر على جيش يبحث كل فرد فيه عن فرد ضمن جيش آخر.. هناك تشتّت في الاتجاه والهدف.. وهذا ما حرص ﷺ على إبعاده عندما قال للرماة:

(إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[1].

واقتربت المعركة بين جيشين: جيش قوي.. وجيش ذكي.. فكانت:

البداية دعاء

بدأ ﷺ كعادته.. بالدعاء.. لقد (قال يوم أُحد: اللّهمّ إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض)[2].. فمن أجل عبادة الله وحده لا شريك خرج ﷺ

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٤٣)

وأصحابه.. لا يريدون مالاً ولا جاهاً.. خرجوا ينشرون دين الله ويدافعون عن نشره.. ومن أجل الأصنام خرج أولئك الوثنيون.. وكان لهذا الدعاء بشائر بالإجابة و:

بشائر النصر

ها هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشخص ببصره إلى رسول الله ﷺ ليرى منظراً أبيض لا يدري من هو ولا ما هو.. فيقول:

(رأيت بشمال النبي ﷺ ويمينه رجلين عليهما ثياب بيض يوم أُحد، وما رأيتهما قبل ولا بعد)[1].

لا شكّ أنها الملائكة.. لكن هل ستشارك كما شاركت في غزوة بدر؟ سنعرف الإجابة بعد قليل.. فهل بقي من بشائر بالنصر على أرض أُحد؟ أجل.. كان ذلك بعدما صف النبي ﷺ المؤمنين صفاً خلف صف.. غشيت البشارة بعض الصحابة.. وكان أبو طلق أحدهم.. حيث يقول: (غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد)[2] و(كنت فيمن تَغَشَّاه النعاس يوم أُحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه)[3]، رفع طلحة رأسه فرأى منظراً غريباً يترنح تحت الدروع والتروس.. يقول رضي الله عنه: (رفعت رأسي يوم أُحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته[4] من النعاس)[5]، لكن بين

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٨٢٦).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٦٢).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٨).

(٤) أي تحت ترسه.

(٥) سنده صحيح رواه الترمذي (٣٠٠٧) والحاكم (٢/٣٢٥) والنسائي في الكبرى

صفوف المؤمنين بعض المنافقين الذين لم يجرؤوا على الفرار.. إنهم الآن يرتجفون وهم يرون هذا الجيش القليل العدد والعدّة.. ويزيد من ارتجافهم وغيظهم هذا النعاس الذي يحرق الأعصاب.. كأني بالمنافقين ولسان حالهم يقول: انهضوا أيها.. من نومكم أما ترون الموت يملأ المكان..

لقد كان النعاس أمناً للمؤمنين وخوفاً ورعباً للمنافقين.. وفي ذروة الخوف والأمن.. وخلال ذلك الصمت المخيم يشقّ الساحة صوت ينطلق من معسكر الأصنام بالتحدي.. فارس جاهلي شجاع اسمه سباع بن عبد العزى يصرخ ويقول:

هل من مبارز

من سيبارز هذا الشجاع.. دعونا نطرح هذا السؤال على رجل يهمّه جداً ما حدث.. وشاهد -جيداً- ما حدث.. إنه وحشي الذي جاء من أجل مهمة واحدة.. هي طعن حمزة فقط.. يقول وحشي:

(خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال:

يا سباع.. يا ابن أم أنمار مقطعة البظور.. أتحادّ الله ورسوله ﷺ؟ ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب)[1]، لفظ جميل يعبّر عن سهولة هلاك الشجعان على يد حمزة.. سقط ذلك الفارس وارتفع سيف حمزة يطلب المزيد.. وارتفعت معنويات المؤمنين وزاد حماسهم.. فأراد رسول الله ﷺ

= (٣٤٩/٦) وأبو يعلى (١٤/٣) من طرق عن الثقة المعروف حماد بن سلمة عن التابعي الثقة ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه.. وثابت سمع من أنس.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٢).

أن يؤجج ذلك الحماس فصرخ بجموع المؤمنين رافعاً سيفاً: (من يأخذ مني هذا السيف بحقه؟ فبسطوا أيديهم، كل إنسان فيهم يقول: أنا.. أنا...

فقال ﷺ: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال له سماك «أبو دجانة»: أنا آخذه بحقه. فأخذه ففلق به هام المشركين)[1] الذين أذهلتهم هذه المعنويات.. لقد أفنى حمزة مبادرهم.. ومزّق أبو دجانة من أمامه منهم.. والتحم الجيشان فبان الفرق بين جيش همجي غاشم.. وبين جيش متحضر له هدف وتخطيط وأسلوب رفيع في التنفيذ.. جاء أحد الصحابة يبحث عن سبق.. بعد أن تفوّق حمزة وأبو دجانة فقال لرسول الله ﷺ: (أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنّة، فألقى تمرات في يده ثم قاتل)[2].

وبدأ الرماة بنشر مظلتهم الجوية.. ففوجئ المشركون بجيش يحصدهم على الأرض ويمطرهم من السماء.. فالرماة يؤدّون مهمّتهم بإتقان.. وسهامهم زخات من الموت.. زخات من القبور.. فرّقت جموع الوثنيين.. فصاروا يهربون في كل اتّجاه.. ولم تكن السهام تنطلق من قمة أحد فقط.. كان بقرب رسول الله ﷺ أمهر راميَيْن.. سعد بن أبي وقاص كان الأمهر.. شاهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يحدث بين رسول الله ﷺ وبين سعد.. وسمعه ورواه فقال: (ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلاّ لسعد بن مالك، فإني سمعته يقول يوم أُحد: «يا سعد ارم فداك أبي وأمي»)[3]، ويقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (جمع لي رسول الله ﷺ يوم أُحد أبويه كلاهما)[4].. لقد (نثل لي

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم فضائل الصحابة (٢٤٧٠) وابن أبي شيبة بسند صحيح.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٩).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٧).

النبي ﷺ كنانته يوم أُحد فقال: ارم فداك أبي وأمي)[1].. كان سعد يمتع ناظري رسول الله ﷺ.. بل ويضحكه.. يقول رضي الله عنه: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال لـه النبي ﷺ ارم فداك أبي وأمي، فنزعت لـه بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جنبه، فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه)[2] ولم يكتف سعد بالرماية بين يدي رسول الله ﷺ.. لقد كان فارساً يفتك بمن أمامه.. لقد استجاب الله لـه فلقي كما تمنى: (رجلاً شديداً حرده أقاتله ويقاتلني ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه)[3].. لكن ماذا عن عبد الله بن جحش هل استجاب الله لدعائه؟ ليس بعد.. فهو مازال يجالد بسيفه ويجتثّ من يواجه من المشركين.. لم ننس راميَ النبي ﷺ الآخر.. إنه أبو طلحة (كان رامياً شديد النزع كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول رسول الله ﷺ: انثرها لأبي طلحة، ثم يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف.. ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك)[4].

ماهت الأرواح بالأرواح في جلاد يزهق الأرواح.. نبي قائد يفدي جنوده بأمّه وأبيه.. وجنود يفدون نبيّهم بأمّهاهم وآبائهم وأرواحهم.. كانت الصدور درعاً دونه ﷺ.. حتى الملائكة كانت درعاً دونه ﷺ..يقول سعد بن أبي وقاص: (رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٥).

(٢) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٨١١).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (٢٤١٢).

عنه -عليهما ثياب بيض- كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد)[1]..

كان ﷺ مسروراً بما يرى من تنفيذ لتعليماته.. وانتصار وحماس بين فرسانه.. مصعب بن عمير الذي لا يملك سوى سيفه وقرآناً يملأ صدره وأجواءه.. يلقن المشركين دروساً كما يلقن الأنصار الآيات والسور.. وذلك الشيخ الأعرج ورفيق دربه عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح يقاتلان كالشباب.. لكن للسنّ أحكام قاسية.. سقط عبد الله والد جابر شهيداً على أرض المعركة.. أوّل شهيد في سجلات أُحد.. وها هي الملائكة من فوقه ومن حوله.. (الملائكة تظلّله بأجنحتها)[2] يا لها من شهادة.. يا لها من كرامة.. وبعده بزمن يسقط رفيق دربه عمرو بن الجموح ليطأ بعرجته أرض الجنّة.. ويدليها على أنهارها ومياهها..

وبينما كانت المعركة تتأجج بركاناً يقذف حمماً.. يقذف جثثاً ودماءً وصل:

ضيفان على المعركة

إنهما: حسيل والد حذيفة وصحابي آخر هو ثابت بن وقش رضي الله عنهما.. لقد ضاقت بطموحهما أسوار المدينة وحصونها.. تلفتا فأحسا أن هذا المكان لا يليق بشجاعين مثلهما.. ففرّا إلى حيث الوغى.. إلى حيث السيوف والشهادة.. وعندما وصلا إلى أُحُد.. وجدا أن المعركة قد حمي وطيسها.. فتسلّلا بين المؤمنين دون أن يعلموا بهم فماذا كانت العاقبة؟ يقول أحد الصحابة رضي الله عنه:

(لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد وقع اليمان بن جابر أبو حذيفة،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٤).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

وثابت بن وقش بن زعوراء في الآطام[1] مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه -وهما شيخان كبيران-: لا أبا لك ما ننتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منّا من عمره إلا ظمأ حمار، «إنما نحن هامة اليوم أو غداً»، إنما نحن هامة القوم، ألا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ، فدخلا في المسلمين -ولا يعلمون بهما-)[2]، وقاتلا المشركين، ولكنهما شيخان كبيران.. وللسن أحكام وفي الشيخوخة ضعف (فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما أبو حذيفة)[3]، فله قصة عجيبة سنعرفها بعد قليل..

ضيف ثالث على المعركة

اسمه: عمرو بن أقيش.. أراد أن يسلم في يوم من أيام السلام والسكون.. لكنه كان يتعامل بالربا مع بعض المشركين.. ولم يكن في عجلة من أمره لكي يسلم.. ففضل أن يذهب ليأخذ رباه بصفته مشركاً ثم يعود لكي يعلن إسلامه.. سافر إلى المكان المقصود قبل غزوة أحد ثم عاد ليجد المدينة لا تضحى بأموالها فقط.. بل تضحى بأرواحها طاعة لله ولرسوله ﷺ.. فهانت أموال عمرو أمام عينيه.. وهان رِبَاه.. وهان كل شيء في نظره.. وكشفت الشدائد عن معدنه.. وكشف لنا أحد الصحابة عن خبره.. فقال: (إن عمرو بن أقيش كان له رِباً في الجاهلية، فكره أن

---

(١) الحصون أو البيوت المرتفعة.

(٢) سنده صحيح رواه إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣/٢٠٢): حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد.. وعاصم تابعي عالم بالمغازي وهو أحد الثقات.. التقريب (١/٣٨٥) وشيخه صحابي رضي الله عنه.

(٣) سنده صحيح رواه إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣/٢٠٢): حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد.. وعاصم تابعي عالم بالمغازي وهو أحد الثقات.. التقريب (١/٣٨٥) وشيخه صحابي رضي الله عنه.

يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحُد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد.

فلبس لأمته، وركب فرسه ثم توّجه قِبَلهم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحاً، فجاء سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليه حمية لقومك، أو غضباً لهم، أم غضباً لله عزّ وجلّ؟ قال: بل غضباً لله عزّ وجلّ ورسوله، فمات، فدخل الجنّة وما صلّى لله صلاة)[1].. دخل الجنّة كما دخلها عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام.

دخل الجنّة وما صام لله يوماً.. يا لكرم الله.. الجنّة - خلودها وسحرها وعوالمها لهذا الفارس من أجل لحظات.. لكنها لحظات من التوحيد.. لحظات شارك فيها عمرو بن أقيش في هزيمة الأصنام وأهلها.. شارك فيها أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً.. شارك فيها طلحة وأبا عبيدة وسعيد بن زيد وسعد وعبد الرحمن بن عوف والزبير.. وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأبا دجانة.. وأنس بن النضر.. أنس بن النضر الذي بهر من يراه بشجاعته.. لقد برّ بقسمه.. ها هو كالأسد بين الصفوف لا تزيده الجراح الكثيرة إلاّ شراسة وإقداماً في الفتك بأعداء الله.. لا يتفوّق عليه إلاّ حمزة الذي كان يقاتل بطريقة جديدة ويصرخ بمعنويات شهيد.. شاهده سعد بن أبي وقاص ونقل ما شاهد.. فقال:

---

(١) سنده لا بأس به رواه الأئمة: أبو داود (٤٨٢/٢) والبيهقي في السنن (١٦٧/٩) والحاكم (١٢٤/٢) كلهم من طريق شيخ أبي داود: موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة.. وموسى ثقة ثبت من رجال الشيخين وشيخه مثله إلا أنه من رجال مسلم - التقريب (١٩٧/١) (٢٨٠/٢) ومحمد بن عمرو حسن الحديث إذا لم يخالف انظر التهذيب (٣٦٧/٩) وشيخه التابعي الثقة ابن الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف (التقريب - ٤٣٠/٢).

(كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسـول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله)[1].. كان حمزة يحـزّ الرقـاب.. ويـذل الطغاة.. فهم يتساقطون أمامه.. لا شيء يصمد في وجهه.. لم يترك فرصة لأحد كي ينال من رسول الله ﷺ.. ولم يترك فرصة لأحد لينال منـه.. حتى ذلك البعيد عنه.. الذي لم يشترك في القتال.. ولم يحمل سيفاً للدفاع حتى عن نفسه.. ذلك الأسمر الذي يراقب حمزة وحربته بيده لم يجد -حتى الآن- فرصة للإجهاز عليه.. وهو لا يجسر على اقتحام أهـوال حمـزة وجحيمه.. إنه يقول: إني (أنظر حمزة وأتبصّره حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهدّ الناس بسيفه هدّاً.. ما يقوم له شيء)[2]، ومـا يجرؤ أحد من قريش على التصدّي لهذا الحتف الذي يصرخ: أنا أسد الله.

لقد فرّق حمزة والأسود معه جمع قريش ومزّقوهم.. إنهـم يهربـون ينهزمون خلف الصخور ووراء الجبال.. ها هو الزبير يلاحـق فلـولهم

---

(١) سنده صحيح رواه: البيهقي، حدثنا أبو عبد الله، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه، حدثنا محمد بن شاذان الجوهري، حدثنا معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق، عن سعد: أبو عبد الله هو الحاكم، وشيخه محمد بـن بالويه هو أبو علي كما جاء في ترجمته في تاريخ بغداد (٢٨٢/١) والصواب أبو بكر: وقد أورد الحافظ البغدادي عن الحاكم تاريخ وفاته وقال فيه البرقاني: ثقة، وشيخه ثقة مـن رجال التقريب (١٦٩/٢) وشيخه معاوية بن عمرو بن المهلب.. ثقة من شيوخ البخاري - التهذيب (٢١٥/١٠) والتقريب (٢٦٠/٢) وإبراهيم بن محمد الفزاري ثقة حافظ من رجال الشيخين - التقريب (٤١/١) وعمير بن إسحاق تابعي قال الحـافظ: مقبـول.. والصواب أنه: ثقة لأن قول ابن معين: ليس شيء يعني أنه قليل الحديث.. ثم إن ابن معين قال عنه: ثقة. انظر: (قواعد في علوم الجرح للتهانوي - ٢٦٣) وقال النسائي: ليس بـه بأس - ولم يورده العقيلي إلا أنه لم يرو عنه إلا واحد.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (ابن كثير - ٣٥/٣) وقد مر معنا عند الكـلام علـى وحشي.

المنهزمة.. المهرولة من هنا وهناك.. ويقول: (والله لقد رأيتني أنظـــر إلى خدم[1] هند بنت عتبة وصواحباتها مشمّرات هوارب، ما دون أخـــذهن قليل ولا كثير)[2]، ورأى منظر الهزيمة شاب صغير هو البراء بن عـــازب الذي يقول: (فأنا والله رأيت النساء يشددن قد بدت خلاخلهنّ وأسوقهن رافعات ثيابهن)[3]، ويقول رضي الله عنه عن هزيمة المشركين: (فهزموهم، فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الخيل، قد بدت خلاخيلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن)[4].

الساحة الآن للرسول ﷺ وأصحابه.. هرب الوثنيون تاركين نساءهم في متناول الزبير وأصحابه.. أما نساء المسلمين فكنّ كرجالهم يمارســـن التمريض والإسعاف بالماء والدواء.. يقول أنس بن مالك:

(لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمّرتان أرى خدم سوقهما تُنْقِزان القرب على متونهما، فتفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[5]، وعائشة رضي الله عنـــها وهي في أوج نشاطها وحماسها.. تصف ما حدث بعبارة مختصرة، فتقول:

(هزم المشركون يوم أُحد هزيمة بيّنة تعرف فيهم)[6].

---

(١) الخدم: هي الخلاخيل.

(٢) سنده صحيح: رواه إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه.. وشيخ ابن إسحاق ثقة - التقريب (٣٥١/٢) ووالده تابعي ثقة - التقريب (٣٩٢/١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٣).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٣) والبيهقي (٢٢٩/٣) واللفظ له.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٦٨) والبيهقي (٢٣٠/٣) واللفظ له.

وروى أحد الصحابة ما حدث لحملة الراية من المشركين شيئاً مذهلاً.. لقد استبدلتهم سيوف حمزة ورفاقه سبع مرات أو أكثر.. يقول رضي الله عنه: (وقد كان لرسول الله ﷺ أوّل النهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة)[1]، يتساقطون كجدران الطين القديمة وقد داهمتها الرياح والأمطار.. وخلت الساحة من ثأر المشركين ومكرهم..

خلت الساحة إلاّ من ركضهم بحثاً عن بقايا حياة بعد أن مات ثأرهم.. وسافر بعضهم إلى الجحيم.. كانت الساحة مليئة بجثث الطواغيت المنتنة.. المتناثرة في كل مكان.. وكان عدد الجثث حتى الآن قريباً من السبعين جثة.. أحد هذه الجثث كان حياً مصاباً يتظاهر بالموت خشية أن يجهز عليه أحد فرسان محمد ﷺ.. لقد سقط هو وحلمه الذي حمله معه من مكة.. فقد خرج ليقتل رسول الله ﷺ لكن رفاق حمزة أسقطوهما معاً.. هذا الرجل يدعى (وهب بن عمير) ومازال لديه أمل بالحياة.. يقول أنس بن مالك: (كان وهب بن عمير شهد أُحداً كافراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار فعرفه فوضع

---

(١) ظاهر سنده الضعف لكنه صحيح رواه الإمام أحمد (١/٨٧ - ٢/٢٨٨): حدثنا سليمان ابن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، وعبيد الله تابعي ثقة فقيه - أحد الفقهاء السبعة (التقريب - ١/٥٣٥)، وأبو الزناد تابعي ثقة (التقريب - ١/٤١٣) وأما ابنه فمن أجله قلت ما قلت.. فهو ثقة لكنه تغير عندما قدم بغداد، فالنقاد يضعفون ما رواه في بغداد، وسليمان ابن داود بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس - وهو ثقة فقيه جليل - ممن سكن بغداد، لكن الناقد المعروف علي بن المديني رحمه الله قال - مستثنياً رواية هذه الثقة عن شيخه عبد الرحمن: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة، وجعل علي يستحسنها) ذكر ذلك الإمام الترمذي في علله: (٢/٦٠٦).

سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره ثم تركه)[1]، ماذا حدث لوهب بعد ذلك هل مات.. أم مازال حياً؟ سنعرف الإجابة بعد نهاية المعركة التي انتهت حتى الآن إلى هزيمة كالجحيم.. سقط فيها أكثر من ستين مشركاً.. أما الأسرى فقد بلغ عددهم سبعين أسيراً.. إن الساحة الآن تذكر بانتصار بدر.. سبعون للأسر وسبعون للقبر.. ومحمد ﷺ يكحل ناظريه بمشهد يسرّ النفس ويشرح الصدر.

لكن هذا المهرجان لم يدم طويلاً.. لقد كانت الساحة جميلة.. مكتترة بالغنائم والانتصار.. كأن كل شيء قد انتهى.. المشركون انتهوا.. والمؤمنون انتهوا إلى القمة..

لكن بعض الصحابة الذين كانوا على القمة ارتكبوا كارثة.. لقد حوّلوا تلك القمة إلى قاع دموي.. خاض فيه المشركون وشربوا وانتشوا..

ماذا فعل الرماة

كان بعض الرماة يشاهدون الانتصار والغنائم.. وفي لحظة من لحظات الضعف الإنساني أغرتهم الغنائم فقرّروا النزول.. لقد قال ﷺ لهم: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن

(١) سنده: رواه الطبراني (٦٢/١٧): حدثنا أحمد بن زهير التستري حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني لا أعلمه إلا عن أنس. وأبو عمران اسمه عبد الملك بن حبيب وهو تابعي ثقة: التقريب (٥١٨/١) وقد صح سماعه من أنس بن مالك: التهذيب (٣٨٩/٦) وتلميذه جعفر بن سليمان صدوق من رجال مسلم - التقريب (١٣١/١) وعبد الرزاق الصنعاني هو صاحب المصنف المعروف. أما محمد بن سهل فهو ثقة من رجال مسلم التقريب (١٦٧/١) وشيخ الطبراني هو تاج المحدثين من أحفظ أهل عصره.. انظر البلغة للعلامة حماد الأنصاري (٨٩).

رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم..)[1]، تأخر الأمر عليهم لم يرسل النبي ﷺ أحداً.. فظنّوا أن كل شيء قد تمّ على ما يرام.. حكّموا رأيهم واجتهدوا مع أن كلام رسول الله ﷺ لا يزال مدوياً في آذاهم.. فخالفوا أمره وأمر أميرهم عبد الله بن جبير.. وهتفوا ببعضهم (الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة)[2] وانحدر الرماة وانحدرت الكارثة معهم.. شاهدهم المشركون المنهزمون.. فلاح لهم بريق الانتصار.. واستجمعوا قواهم من جديد في محاولة للانقضاض ما دام خطر الأسهم المربك والشائك قد زال عن سماء المعركة.. عاد أبو سفيان والمشركون وهم يرون هذا الفراغ في السماء.. والارتباك على الأرض.. الارتباك الذي أحدثه الرماة عندما زاحموا إخوانهم المكلفين بجمع الغنائم.. وكان أمر الغنائم لم تنزل به الآيات.. كان الرماة النازلون من الجبال يحسبون أن من سبق فهو أحق.. حدثت فوضى عارمة داخل الصف المؤمن.. وانفلت الزمام.. وضاع النظام.. لقد تحوّل الجيش إلى شبكة لا يعرف لها أوّل ولا آخر.. تلك الصفوف المنظمة التي تقاتل كبنيان مرصوص.. حولها الرماة -رضي الله عنهم- بمخالفتهم إلى شيء كالفوضى.. وصفه أحد الصحابة أدقّ الوصف.. فقال: (لما غنم النبي ﷺ وأناخوا عسكر المشركين، أكبّ الرماة جميعاً فدخلوا في العسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب النبي ﷺ، فهم: كذا -وشبك أصابع يديه- والتبسوا، فلما أخلّ الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير)[1] بسبب واحد فقط.. هو عدم الالتزام بتعليمات القيادة الصادرة منه ﷺ.. وقد كلّفً هذا الخطأ الكثير والكثير.. فالمعركة الآن..

المعركة بأيدي المشركين

والمبادرة بأيديهم.. الجيش المؤمن يقتل بعضهم بعضاً من الفوضى.. والمشركون يعينوهم على ذلك.. وفي قلب الظلمة والفوضى تعالى الصياح والضجيج.. وصار المسلمون يصدقون كل شيء ويستجيبون لكل صارخ.. فقد دوت على أرض أُحد صرختان حوّلت كل واحدة منها جيش الإسلام إلى زوبعة من الفوضى.

صرخة تقتل حسيلاً

فبينما كان حسيل والد حذيفة يتمتع بالنصر مع رسول الله ﷺ بعد أن حرم منه هو وابنه حذيفة في غزوة بدر.. إذ بصارخ يصيح بالمؤمنين ليتشفّى بمرأى الدماء.. كانت عائشة هناك.. تصبّ الماء للجرحى وتداوي وتصغي لما حدث.. وتقول: (هزم المشركون يوم أُحُد هزيمة تعرف فيهم، فصرخ إبليس: أي عباد الله.. أخراكم.

فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فنظر حذيفة بن اليمان فإذا هو بأبيه، فقال: أبي.. أبي، قالت: فوالله ما انحجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: غفر الله لكم، قال عروة بن الزبير بن العوام: فوالله مازالت في حذيفة منها بقية حتى لقي الله)[2].

---

(١) سنده قوي وهو حديث ابن عباس السابق عند أحمد (١/٨٧ - ٢/٢٨٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٦٨).

يا لإيمان حذيفة.. يا لعتاب حذيفة.. والده المؤمن المجاهد.. تقطعه السيوف.. فلا يتلفظ بكلمة نابية.. ولا حتى بعتاب مجروح.. تنهد قائلاً: غفر الله لكم.. ذرفها حذيفة كالدموع وهو يرى حبيب قلبه.. وصديقه ووالده الحنون يهوي بسيوف أحبابه خطأ.. إن لحذيفة إيماناً صافياً كأنهار الجنّة.. رحم الله حسيلاً ورحم الله الرماة.. ورضي الله عنهم جميعاً..

وفي غمار المعركة الثانية.. كانت سيوف المشركين تنهش لحوم الفرسان ودماءهم.. بينما كان وحشي ينتظر دور الحربة والحرية.. ليجهز على حمزة وليبشّر جبير بن مطعم بـ:

استشهاد حمزة

كان حمزة يشاهد ما يحدث ويصمد له حتى لاح فراغ كبير وسط المعمعة.. فانكشف حمزة لوحشي.. سأترك الكلام لوحشي ليحدثنا عما فعله بأسد الله ورسوله حيث يقول:

(خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهدّ الناس بسيفه هدّاً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيّأ له، أريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني)[1].

هكذا كان وحشي يستتر.. يلبس الأحجار والأشجار.. يتقنّع بها خشية أن يراه هذا الموت الهائل الذي يهدّ الناس بسيفين أحمرين.. يهدّ الناس بصوته.. رعداً يدوي: أنا أسد الله ورسوله.. كان حمزة فارساً يجوب الشجاعة إلى أقصاها.. بينما كان وحشي ينتظره كي يردفه إلى عالم الحرية..

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة عند البخاري.

كان حمزة يجوب الساحة بحثاً عن مُنازل.. حتى كان آخر ضحاياه قرب مخبأ وحشي.. سقط ضحية حمزة.. فنهض وحشي وقال: (هززت حربتي حتى رضيت منها دفعتها إليه «رميته بحربتي»، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه)[1].

انفجرت دماء حمزة.. تساقطت على الأرض و لم يسقط.. التفت إلى طاعنه ولاحقه.. وطاعنه خائف يقول: (وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، وقعدت فيه، و لم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق)[2].

ودّع حمزة الدنيا.. وقدم وحشي لسيده أغلى مبلغ في الدنيا يُدفع ثمناً لعبد.. كان المسلمون في تراجع وانكسار.. كانوا في غفلة عن جسد حمزة الطاهر.. الذي تقدم إليه شخص مجهول.. فأخرج أداةً حادةً فجدع بها أنف حمزة.. وشقّ بطنه وشوّه جسده الطاهر.. ومثّل به.. وهكذا يفعل الجبناء.. وماذا لديهم سوى ذلك..؟ شاهد أحد الصحابة ما فعل بأسد الله – بحمزة عمّ رسول الله ﷺ.. فانطلق إلى رسول الله ﷺ ليخبره بالفاجعة.

لكن أين رسول الله ﷺ وسط هذا الغبار والفوضى..؟ إنه ليس على جبل أُحُد.. فالرماة نزلوا و لم يبقَ إلاّ قائدهم عبد الله بن جبير وقلّة معه من الصابرين.. لكن المشركين باغتوهم بأعداد كثيرة.. فاستشهدوا على قمة الامتثال والجبل..أمّا على الأرض.. فالأمر غامض جداً.. بل هو مفجع.. ها هو أحد المشركين يدوي بالجموع المشتبكة.. صرخ كالشيطان وقال:

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة عند البخاري.

(٢) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة عند البخاري.

إن محمداً قد قتل

سمعه الزبير وأذهله ما سمع.. يقول رضي الله عنه: (مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم)[١].

لكن أنس بن النضر عم أنس بن مالك لم ينكفئ.. كان يقاتل عن رجلين.. عن معركتين.. عن بدر وعن أُحُد.. يقول أنس رضي الله عنه: إن عمّه (غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله «ما أصنع»، ما أجد، فلقي يوم أُحد.. فهُزم الناس فقال: اللّهمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ)[٢]، (فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً لريح الجنّة «إني» أجده دون أحد..)[٣].

(فقال سعد: أنا معك - قال سعد: فلم أستطع أصنع ما صنع)[٤]، قال أنس: (فقاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية)[٥]، كان وجه أنس مشوّهاً لا يعرف.. كان جسد

---

(١) سنده صحيح وقد مر معنا وهو بقية حديث الزبير عند ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٨).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

(٤) حديث صحيح رواه أحمد.. وهو ثلاثي على شرط الشيخين كما قال ابن كثير.. حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس.. وشيخ أحمد ثقة وهو ابن هارون.. وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس وهو حميد الطويل.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

أنس بن النضر ميداناً لمعركة أخرى انتصر فيها الوفاء.. وخرج منها أنس مزيناً بالطعنات والشهادة.. فلئن مات رسول الله ﷺ شهيداً.. فليلحق به أنس بن النضر.. أما بعض الصحابة فقد أذهلهم الخبر وأسقط في أيديهم وانهارت معنوياتهم فولّوا عن أرض المعركة لا يلوون على شيء بعد أن رأوا هذه الكارثة.. وسمعوا بمقتله ﷺ وكان أحد هؤلاء (عثمان بن عفان وسعد بن عثمان -رجل من الأنصار- حتى بلغوا الجلعب -جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص)[1]، وكأنّهم يقولون لأنفسهم: وماذا نحن بعد رسول الله ﷺ.. أمّا البقية ففضلوا الموت على ما مات عليه رسول الله ﷺ.. أحدهم هذا الفارس المجهول الذي يقول عنه سهل بن سعد: (ما رأينا مثل ما أتى فلان، لقد فرّ الناس وما فرّ، وما ترك للمشركين سادة ولا قادة إلا أتبعها يضربها بسيفه)[2].. وما زال يضربهم حتى الآن.. في الوقت الذي استشهد فيه صاحب التمرات فقد (قاتل حتى قتل)[3]، كما سقط على أرض المعركة رجل فقير لكنه كان بحجم الدنيا.. لقد

استشهد مصعب

مصعب بن عمير.. الذي خرج من ثروته وزينته ليلحق برسول الله ﷺ.. مصعب الذي خرج من مكة وحيداً ليثقف جيلاً من أجيال المدينة.. مصعب الذي خرج من المدينة نحو أُحُد.. لا يملك من الدنيا إلاّ سيفه ورداءه.. وقرآناً يملأ صدره ويغنيه عمّا يراه من حطام الدنيا.. سقط

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الأموي (ابن كثير - ٣/٥٥) حدثني يحيى بن عباد، عن أبيه عن جده.. وقد مر معنا هذا الإسناد، وهو صحيح. يحيى ثقة، وعباد تابعي ثقة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٢) وأبو يعلى - زوائد (١/٤٢٨) واللفظ له.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري وقد مر معنا.

مصعب على أرض أُحُد.. تبكيه المدينة ومكّة.. ويبكيه أحدِ الصحابة بعد مدة.. والطعام بين يديه.. فيقول عندما شاهد الطعام وكان صائماً: (قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في برده، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا -أعطينا من الدنيا ما أعطينا- وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام)(١).. وتذكره أيضاً رفيق دربه وعذابه خباب بن الأرتّ فقال: (هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنّا من مضى بسبيله ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير.. قتل يوم أُحد، ولم يترك إلاّ نمرة، كنّا إذا غطّينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطّينا رجليه بدا رأسه)(٢) رضي الله عن مصعب ما أعظمه.. سافر والدموع من حوله.. بعد أن ملأ الصدور والنفوس علماً وحباً.. نالت منه سيوف الشرك وهو يدافع عن دينه وعن نبيه ﷺ.. ونالت السيوف من ذلك الشاب العروس.. الذي ترك فتاته ليموت دون دينه ونبيّه ﷺ.. ليكمل احتفالاته في الجنّة.. وكان قبيل سقوطه في صراع مع رجل شجاع من صفوف المشركين هو أبو سفيان.. وهو ليس أبو سفيان زعيم قريش.. لا.. ولكنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.. ابن عمّ رسول الله ﷺ وهو ما يزال حتى الآن مشركاً.. وقد تغلب عليه حنظلة وعلاه بسيفه وكاد أن يطيح برأسه ولكن ماذا حدث؟

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١/١٢٧٥).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٧٦) وقد حذفت كلمات بين عمير... وقتل. وهو قوله رضي الله عنه: ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهد بها.

حنظلة بن أبي عامر وأبو سفيان بن الحارث

حنظلة.. (التقى هو وأبو سفيان بن الحارث، فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب، فعلاه بالسيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا سفيان)[1]، لكن أبا سفيان نجا.. وليس لحنظلة أكثر من ذراعين.. باغته شداد وأرسله إلى الموت شهيداً.. تتحدث عنه الدنيا.. وعن شهادته.. سافر حنظلة وسافر معه شاب يحتفل بالشهادة على طريقته المحبّبة إلى نفسه.

شهادة هو اختارها

وانتقى من المولى كيفيّتها.. إنه عبد الله بن جحش الذي دعا الله قبل المعركة، وقال: (اللّهمّ ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك ﷺ، فتقول: صدقت)[2]، فاستجاب الله لعبد الله بن جحش، فالتقى بمحارب عنيف وشديد فقتله.. ولما هوى عبد الله على الأرض أخذه ذلك المشرك ومثّل به.. فشقّ أنفه وأذنه.. وعلّق أنفه وأذنه بخيط.. كل هؤلاء سافروا..

كل هؤلاء الشهداء كانوا في طريقنا ونحن نبحث عن رسول الله ﷺ.. تعالوا خلف هذا الفاتك المغوار.. الذي يجول ويصول دون أن يصدق أن رسول الله ﷺ قد قتل.. لكنه في الوقت نفسه لا يعتقد أن رسول الله ﷺ على ساحة أُحد ولا خلف جبالها ولا حتى على ساحة بدر أو في المدينة.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق، ومن طريقه السراج (الإصابة - ١٣/٢٩٩) ومن طريقهما رواه الحاكم (٣/٢٠٤): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده وهذا السند مرَّ معنا كثيراً وهو صحيح، فيحيى ووالده عباد تابعيان ثقتان.

(٢) سنده جيد وقد مر معنا.

لقد عاد هذا الشجاع من جولة كالفجيعة.. كان يقلّب الجثث.. فتؤلمه وجوه أصحابه وأحبابه من الشهداء وهو يبحث بمرارة عن حبيبه محمد ﷺ.. لكنه لم يجده فأين ذهب.. وأين ذهبت الظنون بهذا الشاب المكسور الحزين.

تعالوا نتعرف عليه وعلى حيرته.. إنه زوج فاطمة الزهراء.. إنه علي ابن أبي طالب.. وهو يظن أن:

رسول الله ﷺ في السماء

يقول رضي الله عنه: (لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحد، نظرت في القتلى فلم أرَ رسول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفرّ، ولا أراه في القتلى، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيّه ﷺ، فما لي خير من أن أقاتل حتى أُقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم)[1] كان ﷺ غارقاً في أحزانه ودمائه لقد (جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه)[2] هشمت البيضة التي كان يغطي بها رأسه فشجّ رأسه، (وذلق من العطش حتى جعل يقع على ركبتيه)[3]، رأى عليّ بن أبي

---

(١) سنده حسن رواه أبو يعلى (زوائد - ٤٣٠/٢) حدثنا أبو موسى - وهو ثقة ثبت حافظ التهذيب (٤٢٥/٩) حدثنا محمد بن مروان العقيلي وهو حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ: (صدوق له أوهام - التقريب - ٢٠٦/٢) ومن هو الذي ليس له أوهام، ومحمد أخذ حديثه عن شيخه عمارة بن أبي حفصة وهو ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ٤٩/٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٣) سنده صحيح رواه أبي شيبة (٣٧١/٧): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير.. وعفان ثقة ثبت إذا شك في حرف من الحديث تركه (التقريب =

طالب رسول الله ﷺ وتألم لما حدث.. لكنه كان في أشدّ حالات الارتياح لأنه لم يزل على الأرض.. لكن كيف علم الآخرون بمكانه وكيف أحاط كل هذا الجمع به.. فقد كان حوله أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وسعد والحارث بن الصمة وأبو طلحة وابن مسعود وأكثر من اثني عشر رجلاً من الأنصار.. لن يحدّثنا أيّاً من هؤلاء فالكلمة لـ:

أول من عرفه ﷺ

الكلمة للشاعر المجاهد.. كعب بن مالك حيث: (كان كعب أوّل من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وقول الناس: قتل رسول الله ﷺ. قال كعب: عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ أن انصت «اسكت»)[1].. ربما لكي لا يعلم المشركون بمكانه.. سمع هذا الصرخة سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وسبعة من الأنصار.. فهبوا نحو صاحبها.. وسمع الصرخة جمع من المشركين فلحقوا بهم.. فماذا حدث يا أنس؟ أجب بالله عليك.. يقول أنس رضي الله عنه:

(إن رسول الله ﷺ أفرد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه[2]، قال ﷺ: من يردهم عنّا وله الجنّة، أو هو رفيقي

= ٢/ ٢٥) وشيخه ثقة معروف من رجال مسلم وبقية السند لا يسأل عنها وقد مرت معنا كثيراً.

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه (الطبراني في الأوسط - مجمع البحرين - ٥/ ١٠٥) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٨٢): حدثني الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك.. وهذا السند صحيح متصل. الزهري إمام معروف وشيخه له رؤية وهو تابعي ثقة له رؤية رواه عن والده (التقريب - ١/ ٤٤٢).

(٢) أي اقتربوا منه.

في الجنّة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه، فقال: من يردّهم عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا)[١] يعني الأنصار.. لكن الأنصار كانوا حضوراً غامراً.. مفعماً بالحب والفداء.. يصنعون الأحداث.. فيتحدث التاريخ وفاءً.

لقد التحق بالأنصار الشهداء شهداءٌ آخرون.. فزاد مجد الأنصار وفخرهم على أرض أُحُد.. يقول أحد الأنصار كأنه يكمل حديث أنس السابق:

(لما كان يوم أُحد وولّى الناس، كان رسول الله ﷺ في ناحية «في اثني عشر رجلاً. منهم طلحة»، فأدركهم المشركون، فقال النبي ﷺ: من للقوم؟ «قال طلحة: أنا. قال ﷺ: كما أنت»، فقال رجل: أنا، قال ﷺ: أنت، فقاتل حتى قتل. ثم التفت فإذا المشركون، فقال ﷺ: من لهم؟ «قال طلحة: أنا، قال ﷺ: كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا، قال ﷺ: أنت، فقاتل حتى قتل..

فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي الله طلحة، «فقال ﷺ: من للقوم؟ قال طلحة: أنا» فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى قطعت أصابعه، فقال حسّ، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: باسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون، ثم ردّ الله المشركين)[٢] الذين سمعوا بمكانه ﷺ ولم يبق معه ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (الجهاد - غزوة أحد).

(٢) حديث حسن بما قبله عدا ما بين الأقواس الصغيرة وسنده فيه ضعف، لأنه من رواية أبي الزبير عن جابر وهو مدلس ولم يصرح بالسماع من جابر هنا والرواية عند النسائي - (٦/٣٠) والطبراني (٨/٣٠٤) والحاكم (٤/٥٧٠) ولآخر الحديث شواهد ضعيفة تقويه =

في هذا الوقت سوى اثنين من الصحابة.. يقول أحد الصحابة: (إنه لم يبق مع النبي ﷺ في تلك الأيام الذي يقاتل فيهن غير طلحة وسعد)[1]، وقد قاتل طلحة حتى قطعت أصابعه وشلّت يده.. رآها أحد الذين أدركوا الجاهلية والإسلام واسمه: قيس بن أبي حازم فقال: (رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ قد شلّت)[2].

أثناء هذه الظروف العصيبة والجراح الدامية.. انتشر الخبر أن رسول الله ﷺ لا يزال على قيد الحياة.. تداعى الصحابة من كل مكان (فلما عرفوا رسول الله ﷺ نهضوا به معهم نحو الشعب، ومعه أبو بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير والحارث بن الصمة في رهط من المسلمين، ولما أسند رسول الله ﷺ في الشعب، أدركه أُبيّ بن خلف وهو يقول:

يا محمد.. لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: أيعطف عليه يا رسول الله رجلٌ منّا؟ فقال: دعوه، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة)[3]، أخذ النبي ﷺ الحربة وهو في أشدّ حالات الإعياء والعطش.. لدرجة أنه كان يمشي ويسقط.. ولكنه استجمع قواه ليبعث بها مع حربة الحارث بن الصمة إلى هذا الطاغوت الترق..

عند المقدسي في المختارة (٣/٤٢) والطبراني في مسند الشاميين بسند فيه تابعي مجهول عن أنس (٢/١٢٨).

(١) حديث صحيح رواه البخاري عن أبي عثمان النهدي (٤٠٦٠ - ٤٠٦١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٤).

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم (٤٨٢) وقد مر معنا وللحديث شواهد.. ولم أذكر بقية الحديث لأنه من بلاغات ابن إسحاق دون سند وهو قوله: يقول بعض القوم -فيما ذكر لي- : فلما أخذها رسول الله ﷺ -أي الحربة- انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشُّعْر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله فطعنه بها طعنة تدأد منها عن ظهر فرسه مراراً. والشُّعُر: ذباب أزرق يؤذي الإبل.

الرسول يستسقي دماءً

لا يستسقى مطراً.. بل الساحة والصحابة بأشدّ الحاجة إلى دماء هذا الطاغوت الجريء.. الذي سفك هو وأخوه من الدماء ما يكفي.. سأترك الحديث للزبير ليكمل لنا القصة:

يقول رضي الله عنه: (شجَّ النبي ﷺ يوم أُحُد في وجهه، وكسرت رباعيته، وذلق من العطش حتى جعل يقع على ركبتيه، وتركه أصحابه. فجاء أبي بن خلف يطلبه بدم أخيه: أمية بن خلف، فقال: أين هذا الذي يزعم أنه نبيّ فليبرز لي، فإنه إن كان نبياً قتلني، فقال رسول الله ﷺ: أعطوني الحربة، فقالوا: يا رسول الله.. وبك حراك؟ فقال: إني قد استسقيت الله دمه، فأخذ الحربة ثم مشى إليه، فطعنه، فصرعه عن دابّته، وحمله أصحابه فاستنقذوه، فقالوا له: ما نرى بك بأساً. قال: إنه قد استسقى الله دمي، إني لأجد لها ما لو كانت على ربيعة ومضر لوسعتهم)[1]، ثم هلك مع من هلك من الطواغيت قبله.. ولحق بأخيه إلى الجحيم - أعاذنا الله منها.. وهرب أتباعه بعد أن رأوا تلك الضربة النبوية المميتة.. وتراكضوا نحو أصحابهم يخبرونهم عن رمح رسول الله ﷺ.. وعن قوّة رسول الله ﷺ ليكدر عليهم بقية نصرهم..

أمّا رسول الله ﷺ، فبعد أن زرع الرمح في جسد أبي بن خلف رجع إلى مكانه متعباً يشير إلى سنّه المكسورة وجثّة ذلك الطاغوت.. فقال ﷺ: (اشتدّ غضب الله على قوم فعلوا بنبيّه -يشير إلى رباعيته- اشتدّ غضب الله

---

(١) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة (٣/٣٧١): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها وشيخ ابن أبي شيبة ثقة ثبت إذا شك في حرف من الحديث تركه التقريب - (٢/٢٥) وشيخه ثقة عابد (التقريب - ١/١٩٧) من رجال مسلم وهشام ووالده أعلام مروا معنا كثيراً.

على رجلٍ يقتله رسول الله في سبيل الله)[1] (اشتدّ غضب الله على قوم دموا وجه نبيّ الله)[2] (اشتدّ غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ)[3].

رجع ﷺ بينما كان أبو طلحة وغيره كالقلاع حوله ﷺ.. يقول أنس رضي الله عنه:

(لما كان يوم أُحد الهزم ناس عن رسول الله ﷺ، وأبو طلحة بين يديه مجوباً عليه بحجفة، وكان رامياً شديد النزع، كسر يومئــذ قوســين، أو ثلاثة، وكان الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول رسول الله ﷺ:

انثرها لأبي طلحة، ثم يشرف على القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف.. يصيبك سهم من سهام القوم، نحــري دون نحرك)[4] (وكان أبو طلحة يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده ويقــول: يــا رسول الله هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، يقول: يا رسول الله إني قوي جلد فوجهني في حوائجك وابعثني حيث شئت)[5].

لم تصب السهام رسول الله ﷺ، لكنها نقشت الشهادة على صــدر أحد شباب الصحابة.. كانت شهادة غريبة.. غريبة لأن صاحبها لم يمت في أُحد ولا بعد أُحد.. ولا حتى في حياة النبي ﷺ.. فما هي قصة هذا:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٣).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٤).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٤).

(٥) سنده كالذهب رواه عبد بن حميد (٣٩٩) حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس.. وسليمان ثقة إمام حافظ.

الشهيد الذي يمشي على الأرض

شاب اسمه رافع بن خديج.. شهيد.. لكنه يعيش بين الناس يأكل معهم ويشرب ويصلّي ويصوم.. بل ويجاهد في معارك أخرى في هذه الدنيا.. مع أنه من شهداء أُحد.. كيف ذلك..؟

تقول زوجته رضي الله عنها: (إن رافعاً رمى مع رسول الله ﷺ يوم أُحد بسهم، في ثندوته، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنزع السهم؟ قال ﷺ: يا رافع.. إن شئت نزعت السهم والقطبة جميعاً، وإن شئت نزعت السهم وتركت القطبة، وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد.. فنزع رسول الله ﷺ السهم وترك القطبة فعاش بها)[1]، حتى مات حاملاً شهادته على ثندوته.. على صدره.. بينما كانت ذقون المؤمنين على صدورهم.. فأمن الصحابة من جديد بعد أن أنزل الله:

النعاس من جديد

يقول الزبير بن العوام رضي الله عنه: (لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتدّ الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منّا من رجل إلاّ ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير -ما أسمعه إلاّ كالحلم- يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا.. فحفظتها منه، وفي ذلك

(١) سنده صحيح رواه الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن المنهال (ح) وحدثنا محمد بن محمد التمار، حدثنا أبو الوليد ومحمد بن كثير.. قالوا:
حدثنا عمرو بن مرزوق الواشحي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد بن رافع بن خديج عن جدته وهي امرأة رافع رضي الله عنه.. ويحيى تابعي ثقة (الجرح والتعديل - ١٦٨/٩) وتلميذه صدوق (التهذيب - ١٠١/٨) (التقريب - ٧٨/٢) وتلاميذ عمرو كلهم ثقات انظر: (التقريب - ٢٠٣/٢) (١٥٤/١) وأبو الوليد هو الطيالسي (التقريب - ٣١٩/٢) وشيخ الطبراني وتلميذ الحجاج هو الثقة علي بن عبد العزيز بن المرزبان البغوي (البلغة - ٢٢٨).

أنزل الله: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا،، لقول معتب)[1] والآيات التي نزلت في هذا المنافق المدعو: معتب بن قشير وبقايا المنافقين الذين أبقاهم الخوف.. وأفصح عن نفاقهم الخوف.. هذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[2]، أما أولئك الذين لاذوا بالفرار بعد نزول الرماة وحدوث الانتكاسة، فقد تاب الله عليهم وعفى عنهم وأنزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3].

أمّا على أرض المعركة الآن.. فهذا أنس يقول: (ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمِّرتان، أرى خدم سوقهما، تنقزان القرب على متوهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[4]. أمّا عمر بن الخطاب فيحدّثنا عن امرأة عظيمة أخرى هي «أم سليط»، فيقول: (إنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحد)[5].

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير - ٢/١٢٦): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير وهذا السند صحيح مر معنا وسوف يمر معنا إن شاء الله... ويحيى ووالده تابعيان ثقتان.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٨١١).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧١).

شرب النبي ﷺ وشرب العطشى.. وانحاز كل جيش إلى معسكره.. إلاّ مسلماً كان يطارد فلول المشركين.. ويطارده الإعجاب في كل مكان يصول فيه ويجول.. لقد كان هذا الفارس المتغلغل في جموع المشركين وأجسادهم ملء السمع والبصر من الصحابة.. كانوا يمدحونه يرون أنه أكثر من صارع الكفار وصرعهم.. وأنه لا أحد ممن بقي حياً من المسلمين قاتل مثل قتاله.. وسمع الرسول ﷺ بأمره فسأل عن اسمه ونسبه فأخبروه فلم يعرفه.. ووصفوا له وجهه وجسده ولباسه فلم يعرفه.. وبينما كان يطارد إحدى ضحاياه مرت ضحيته ومرّ كالسهم وراءها بين عيني رسول الله ﷺ.. فقال رسول الله ﷺ كلمة آلمت الصحابة جداً:

هذا الفارس من أهل النار

سهل بن سعد رضي الله عنه كان حاضراً يسمع ويرى ويروي فيقول: (إنه قال: يا رسول الله -يوم أُحد- ما رأينا مثل ما أتى فلان.. أتاه رجل.. لقد فرّ الناس وما فرّ، وما ترك للمشركين سادةً ولا قادةً إلا أتبعها يضربها بالسيف. قال ﷺ: ومن هو؟ فنسب لرسول الله ﷺ نسبه فلم يعرفه، ثم وصف له بصفة فلم يعرفه، حتى طلع الرجل بعينه، فقال: ذا يا رسول الله الذي أخبرناك عنه. فقال: هذا؟ فقالوا: نعم.

فقال ﷺ: إنه من أهل النار.

فاشتدّ ذلك على المسلمين، قالوا: أيّنا من أهل الجنّة إذا كان فلان من أهل النار؟ فقال رجل من القوم: يا قوم.. أنظروني فوالذي نفسي بيده لا يموت على مثل الذي أصبح عليه، ولأكونن صاحبه من بينكم. ثم راح على جده في العدو، فجعل الرجل يشدّ معه إذا شدّ، ويرجع معه إذا

رجع، فينظر ما يصير إليه أمره، حتى أصابه جرح أذلقه[1]، فاستعجل الموت، فوضع قائم سيفه بالأرض، ثم وضع ذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه حتى خرج من ظهره.

وخرج الرجل يعدو ويقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله.. وأشهد أنك رسول الله.. حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: وذاك ماذا؟ فقال: يا رسول الله.. الرجل الذي ذكر لك، فقلت: من أهل النار، فاشتدّ ذلك على المسلمين، وقالوا: أيّنا من أهل الجنّة إذا كان فلان من أهل النار؟ فقلت: يا قوم أنظروني، فوالذي نفسي بيده لا يموت على مثل الذي أصبح عليه، ولأكونن صاحبه من بينكم، فجعلت أشدّ معه إذا شد، وأرجع معه إذا رجع، أنظر إلى ما يصير أمره، حتى أصابه جرح أذلقه، فاستعجل الموت، فوضع قائم سيفه بالأرض، ووضع ذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه حتى خرج من بين ظهره، فهو ذاك يا رسول الله، يضطرب بين أضغاثه، فقال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل الجنّة)[2]، كما في قصة عمرو بن أقيش الذي لم يسلم إلاّ وسط المعركة واستشهد ودخل الجنّة.. وهو لم يصلّ لله ركعة واحدة.. وأمّا هذا البطل المجاهد فهو من أهل النار.. ليس

---

(١) بلغ به الألم أشده.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٢) وأبو يعلى (زوائد - ١/٤٢٨) واللفظ له وسنده عنده، حسن: حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا سعيد بن عبد الرحمن القاصد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد.. وهذا السند حسن من أجل سعيد...

ملاحظة ورد في الزوائد أنه: سعيد القاص والصواب: القاضي، فهو قاضي بغداد وليس في ترجمته ما يدل على انه قاص.. وأبو حازم تابعي لم يسمع إلا من سهل (جامع التحصيل - ٢٢٧).

لأنه غير مسلم.. بل هو مسلم.. لكن هناك فرق بين الاستشهاد والانتحار.. وهذا البطل المجاهد قد انتحر.. لم يصبر لتقتله جروحه أو ليشفى منها.. لم يقتله أحد.. بل هو الذي قتل نفسه.. ولو أدرك ما للجراح والآلام من منافع لطلب المزيد، قال ﷺ:

(إذا ابتلى الله العبد المسلم ببلاء في جسده، قال الله عزّ وجلّ: أكتب له صالح عمله، فإن شفاه غسله وطهّره، وإن قبضه غفر له ورحمه)[1]، ويقول تعالى:

(إذا ابتليت عبدي المؤمن، فلم يشكني إلى عواده، أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ثم يستأنف العمل)[2]، ويبدأ من جديد مطهراً من كل ذنب.. ويقول ﷺ عن الذين يكثر ابتلاؤهم وامتحانهم في الدنيا:

(إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فه السخط)[3].

أمّا عن مثل هذا المسلم الشجاع.. فقد قال ﷺ: (من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سماً، فقتل نفسه، فهو يتحساه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً)[4].

أمّا الشهيد.. فـ (للشهيد عند الله سبع خصال:

---

(١) حديث صحيح (صحيح الجامع - ١/١١٠).
(٢) حديث صحيح (صحيح الجامع - ٢/٧٩٣) وهو حديث قدسي.
(٣) حديث صحيح (صحيح الجامع - ١/٤٢٤).
(٤) حديث صحيح (صحيح الجامع - ٢/١١٠٢).

١) يغفر له في أوّل دفعة من دمه.

٢) ويرى مقعده من الجنّة، ويحلى حلة الإيمان.

٣) ويزوّج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين.

٤) ويجار من عذاب القبر.

٥) ويأمن الفزع الأكبر.

٦) ويوضع على رأسه تاج الوقار؛ الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها.

٧) ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته)[1].

مات ذلك الفارس.. ونهض ﷺ إلى مكان عند صخرة ليستريح وحوله من حوله من الصحابة.. لكن النبي ﷺ وقبل أن يستريح أراد الإطلاع إلى ما آلت إليه المعركة.. فحاول الصعود على الصخرة فلم يستطع.. لأنه كان مرهقاً.. ولأنّه كان يلبس درعين.. فتأمّله طلحة رضي الله عنه وتأمّل يده تشخب دماً.. فهانت عليه آلامه ومتاعبه ويده.. فنثرها جميعاً تحت قدميه ﷺ.. حقاً لقد:

أوجب طلحة

يقول الزبير رضي الله عنه: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في أُحد «وكان على النبي ﷺ يوم أُحد درعان»، فذهب رسول الله ﷺ لينهض على صخرة، فلم يستطع، فبرك طلحة بن عبيد الله تحته، فصعد رسول الله ﷺ على ظهره حتى جلس على الصخرة، قال الزبير: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: أوجب طلحة)[2]، أي فعل ما يوجب دخوله الجنّة.. نظر ﷺ إلى ما أراد أن ينظر

---

(١) حديث صحيح (صحيح الجامع - ٢/٩٢٠).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه - ابن حبان (زوائد - ٥٤٦) واللفظ له والحاكم (٣/٣٧٤) وأحمد (١/١٦٥): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن =

إليه (ثم أمر رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأتى بالمهراس، فأتاه بماء في درقته، فأراد أن يشرب منه فوجد له ريحاً فعافه، فغسل به الدم الذي في وجهه وهو يقول: اشتدّ غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ)[1]، لكن الله سبحانه وفي هذه الساعة المريرة يرسل جبريل عليه السلام إلى نبيه مصححاً.. شارحاً صدره ليتسع لأكثر من هذه المعركة ومآسيها.. ليكون صدراً من تسامح وهداية لكل الأرض.. فبعد أن (شج في وجهه، وكسرت رباعيته، ورمي رمية على كتفه فجعل يسيل الدم على وجهه، وهو: يمسحه ويقول: كيف تفلح أمة فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله تعالى: {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون})[2] امتثل ﷺ فمسح قوله ودمه.. بدعاء كالمطر (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[3].. وجاءت ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها لتغسل الدم عن وجه أبيها كما غسلته أيام مكة المضنية.. يقول أحد الصحابة عليهم السلام: (أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووي.. قال: كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليّ بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن،

=

عبد الله بن الزبير عن أبيه: ويحيى تابعي ثقة.. والزيادة للحاكم.

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه - ابن حبان (زوائد - ٥٤٦) واللفظ له والحاكم (٣/٣٧٤) وأحمد (١/١٦٥): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن الزبير عن أبيه: ويحيى تابعي ثقة.. والزيادة للحاكم.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٩١) والترمذي (٣٠٠٣) واللفظ له وسند الترمذي صحيح.

(٣) سنده حسن رواه ابن حبان (٣/٢٥٤) والضحاك (٤/١٢٣) من طريق محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن الزهري عن أنس، ومحمد حسن الحديث - التقريب (١/٢٠١) وموسى والزهري إماما ثقتان ثبتان.

فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلاّ كثرة، أخذت قطعة من حصير وأحرقتها، وألصقتها فاستمسك الدم)[1].

وبعد أن استمسك الدم وهدأت الساحة.. أخبر ﷺ باستشهاد حمزة ورفاقه، فتكدّر وحزن حزناً شديداً.. ثم قال: (من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله، قال ﷺ: فانطلق أرناه. فخرج ﷺ)[2] في الوقت الذي يتحدث البعض عن مقتل النبي ﷺ لأنهم لم يروه حتى الآن.. فهم هناك مهمومون في البحث عنه.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (فما زلنا كذلك ما نشكّ أنه قتل حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين نعرفه بتكفئه إذا مشى ففرحنا كأنه لم يصبنا ما أصابنا، فرقي نحونا وهو يقول:

اشتدّ غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ. ويقول مرة أخرى: اللّهم إنه ليس لهم أن يعلونا، حتى انتهى إلينا فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل:

أعل هبل.. أعل هبل -يعني آلهته-)[3].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٢) سنده حسن ورواه ابن أبي شيبة (٣٧٢/٧): حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز، حدثنا الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه - وهذا السند حسن رجاله ثقات إلا أن في عبد الرحمن بن عبد العزيز كلاماً لا يترل به عن رتبة الحسن، فهو ثقة كما قال يعقوب بن شيبة.. وهو كثير الحديث عالم بالسيرة كما قال ابن سعد ووثقه ابن حبان وهو من رجال مسلم. أما جرحه فهو غير مفسر. قال الأزدي: ليس بالقوي عندهم.. وقال ابن أبي حاتم شيخ مضطرب الحديث (التهذيب ٢٢٠/٦) وقال الحافظ ملخصاً أقوال العلماء في التقريب (٤٨٩/١) صدوق يخطئ. وليس هناك من لا يخطئ.

(٣) حديث صحيح وهو حديث ابن عباس عند أحمد وقد مر تخريجه وهو من طريق سليمان =

أطلق أبو سفيان هذه الكلمات المنحطّة منتشياً بنصر غير مؤكّد.. فقد هزم هو وجيشه في أوّل المعركة.. وكاد الزبير أن يسبي زوجته هند ورفيقاتها.. وجُندل من جيشه سبعون.. ومازال المسلمون يحتفظون بسبعين آخرين في الأسر.. أما المسلمون.. فقد استشهد منهم سبعون.. ولم يؤسر منهم أحد.. لو كان نصر أبي سفيان وجيش الشرك من خلفه حقيقياً لخلصوا رفاقهم من الأسر وطاردوا المؤمنين إلى المدينة.. وهي قريبة من أُحد.

لكن المشركين لم يصدقوا أنهم قتلوا حمزة.. لم يصدقوا أنهم نجوا مما حدث في أوّل النهار.. وكان أعلى ما حصلوا عليه هو إطلاق إشاعة موت الرسول ﷺ.. هم أطلقوها.. وهم صدّقوها..

أمّا المسلمون.. فيعتبرونها خسارة إذا ما قارنوها ببدر.. أو قارنوا أوّل النهار بآخره.. لكن المعركة في الميزان العسكري.. نصر للمؤمنين.. وهم الأعلون الآن فوق الجبل.. وأبو سفيان في أسفل الجبل يزعج الجبال والفضاء ويقول: أعل هبل.. ولما لم يجد إجابة لهذا الاستفزاز.. ألحق به استفزازاً آخر فقال: (أين ابن أبي كبشة.. أين ابن أبي قحافة..أين ابن الخطاب)[1]، فلم يجبه أحد فأصبح أكثر تعقّلاً وتأدّباً، فقال:

(أفي القوم محمد..

أفي القوم محمد..

أفي القوم محمد.. فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال:

أفي القوم ابن أبي قحافة..

=

ابن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد.

(١) حديث صحيح وهو حديث ابن عباس عند أحمد وقد مر تخريجه وهو من طريق سليمان ابن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد.

أفي القوم ابن أبي قحافة..

أفي القوم ابن أبي قحافة، ثم قال:

أفي القوم ابن الخطاب..

أفي القوم ابن الخطاب..

أفي القوم ابن الخطاب..

ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قتلوا.

فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك)[1].. (هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيـــام دول، وإن الحرب سجال. فقال عمر:

لا سواء.. قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النار، قال: إنكـــم لتزعمـــون ذلك، لقد خبنا إذاً وخسرنا. ثم قال أبو سفيان: أما إنكم ســتجدون في قتلاكم مثلاً[2].. ولم يكن ذلك عن رأي ســـراتنا.. ثم أدركتـــه حميـــة الجاهلية، فقال: أما إنه قد كان ذلك فلم نكره) (ســـتجدون في القـــوم مثلة[3] لم آمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز: أعل هبل.. أعل هبل، قـــال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا:

الله أعلى وأجلّ

قال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزّى لكم. فقـــال الـــنبي ﷺ: ألا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٤١) والحديث جاء دون تكرار إنما قال الراوي: ثلاث مرات.

(٢) أي ستجدون تشويهاً بجثث أصحابكم وتقطيعاً.

(٣) أي ستجدون تشويهاً بجثث أصحابكم وتقطيعاً.

تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم)[1]، عندها خسئت ألفاظ الشرك.. وتهاوى تمجيد الأصنام.. أمام هذا التوحيد النقيّ الذي لا تشوبه شائبة.. لكن أحد المشركين أراد التطاول على هذا الإخلاص المتوهّج في صدر محمد وصحبه عليهم الصّلاة والسّلام.. أراد أن يحمل أصنامه إلى رحاب الله.. فكيف كانت العاقبة..؟ يقول بريدة رضي الله عنه:

(إن رجلاً قال يوم أُحد: اللّهمّ إن كان محمد على الحق فاخسف به.. قال: فخسف به)[2]، ورأى المشركون المعجزة بأعينهم.. فالتهمت بقية معنوياتهم كما التهمت الأرض ذلك المتطاول.. فولّوا مدبرين إلى مكّة على عجل خشية أن يهبّ المؤمنون مرة أخرى.. فيخطفوا بقايا الفرح التي التقطوها من أرض أُحد..

وقد يتساءل بعض المشركين وهو في طريق عودته: إذا كان الله قد أعطى محمداً المعجزات كقتل أبي بن خلف.. والخسف بهذا الرجل.. فلماذا لم ينصره علينا وعلى الدنيا نصراً مؤزراً حتى الآن..؟! وقد غاب عن ذهن هذا المتسائل المسطح.. أن الإسلام لا ينتشر بالمعجزات ولا بالخوارق.. لأنها تأتي مع الأنبياء وتغادر معهم.. أمّا الإسلام فقد جاء للبشر.. وبجهدهم -بعد الله- ينتشر وينداح.. وينتصر.. وبانحطاطهم

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٤١).

(٢) سنده حسن رواه البزار (زوائد - ٢/٣٢٩) حدثنا عبدة بن عبد الله أنبأنا زيد بن الحباب، أنبأنا الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال الهيثمي رحمه الله: رجاله رجال الصحيح.. وهو كما قال إلا أن زيداً من رجال مسلم فقط وحديثه حسن إذا لم يخالف - التقريب (١/٢٧٣) وشيخ البزار من رجال البخاري فقط وهو الصغار - ثقة: التقريب (١/٥٣٠) والحسين بن واقد ثقة من رجال مسلم (السابق - ١/١٨٠) وعبد الله تابعي ثقة من رجال الشيخين.

وتخلّفهم وسطحية فهمهم يتحوّل الإسلام إلى ضحية.. إلى خزانةٍ ضخمةٍ مليئة بالتهم.. يلقي فيها الناس عيوبهم..

ها هم أفضل الناس.. أصحاب محمد ﷺ.. عندما عصوه -مجتهدين- انقلبت المعركة على رؤوسهم ورؤوس أصحابهم الملتزمين بـأوامره.. ولم تسعفهم المعجزات ولا الدعوات.. (إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[1].

أمّا رسول الله ﷺ فقد هبّ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.. بعد إدبار المشركين.. فبدأ بالدعاء لجبر ما انكسر من الداخل..

دعاء الواثق.. لا دعاء ذلك الغارق بين طبقات الأرض.. وذلك:

(لما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ:

استووا حتى أثني على ربّي، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: اللّهمّ لك الحمد كلّه، اللّهمّ لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرّب لما باعدت، ولا مبعد لما قرّبت، اللّهمّ أبسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللّهمّ إنّي أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، «اللّهمّ إني أسألك النعيم المقيم يوم القيامة»، اللّهمّ إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللّهمّ إني عائذ بك من شرِّ ما أعطيتنا، وشرِّ ما منعت منّا، اللّهمّ حبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللّهمّ توفّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا

---

(١) حديث صحيح انظر صحيح الجامع الصغير.

مفتونين، اللّهمّ قاتل الكفرة الذين يكذّبون رسلك، اللّهمّ اجعل عليهم رجزك وعذابك، اللّهمّ قاتل «كفرة أهل الكتاب» إله الحق)[1].

هدأت الأنفس مع الله.. واطمأنت الأرواح بهذا الدعاء.. فالأمر لله من قبل ومن بعد.. ولا رادّ لقضائه.. لله خرجوا وبه قاتلوا.. والحمد لله على كل حال.. تهادى ﷺ وأصحابه خلف ذلك الرجل الأعزل الذي مشى أمامهم ليدلّهم على مقتل حمزة.. مشى الرجل (حتى وقف على حمزة، فرآه قد بقر بطنه، وقد مُثّل به، فقال: يا رسول الله.. مثّل به والله، فكره رسول الله ﷺ أن ينظر إليه)[2] (وقد جدع ومُثّل به، فقال: لولا أن تجد صفية في نفسها تركته حتى تأكله العافية، فيحشر من بطونها)[3] أي من بطون الوحوش..

وصفية هذه التي خاف عليها ﷺ هي عمّته.. صفية بنت عبد المطلب.. وهي شقيقة حمزة وأم الزبير بن العوام.. وهي المقصودة بقوله ﷺ: (لولا جزع النساء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع)[4].. (ثم

---

(١) سنده قوي رواه البزار (زوائد - ٢/١٣٠) والحاكم (١/٦٨٦) والبخاري في الأدب المفرد (حديث ٦٩٩) والبيهقي في الاعتقاد (٢/٤٥٣) كلهم من طريق عبد الواحد بن أيمن المكي. حدثني عبيد بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه قال: وعبيد بن رفاعة تابعي ثقة ولد على عهده (ص) وثقه العجلي - التقريب (١/٥٤٣) وعبد الواحد تابعي صغير من رجال مسلم قال في التقريب: لا بأس به (١/٥٢٥) وقد روي عنه هذا الحديث ثقتان هما خلاد بن يحيى وهو من كبار شيوخ البخاري ومروان بن معاوية وهو ثقة حافظ.

(٢) سنده جيد رواه ابن أبي شيبة (٧/٣٧٢) لكن يشهد لأوله ما بعده.

(٣) سنده حسن رواه جماعة عن أسامة بن زيد الليثي عن الزهري عن أنس.. وأسامة حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم انظر التقريب (١/٥٣) والحديث رواه أبو داود (٣١٣٦) والترمذي (١٠١٦) والبيهقي (٤/١٠ سنن) والدارقطني (٤/١١٦) والحاكم (١/٥١٩) والطبراني (٣/١٤٤) وحسنه الشيخ الألباني.

(٤) سنده ضعيف لكنه حسن بما قبله.. رواه ابن أبي شيبة (٧/٣٧٢) والبيهقي (سنن - =

دعا بنمرة، فكانت إذا مدت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مدت على رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: مدوها على رأسه واجعلوا على رجليه الحرمل)[1]، وهو نبات صحراوي يستعمل في الطب.. استعمله ﷺ لتكفين الراقد الذي كان يزرع الرعب في قلوب المجرمين وينشر الاطمئنان على صدور المؤمنين.. هذا الراقد الذي قال عنه ﷺ: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب)[2].. ثم توجه ﷺ إلى راقد آخر.. وقف عند قبره وتأمّله طويلاً.. راقد جمع المجد من أطرافه.. جمع العلم والفروسية.. على يديه تعلمت المدينة كتاب الله وأصغت إليه طرياً من فمه الطاهر.. إنه شاب ترك مال أمه وأبيه.. ترك الجاه والثراء.. لا لأنه حرام.. ولكنه كان مرهوناً بالشرك.. فرفض الشرك ورفض كل شيء يقدمه الشرك وأهله.. التحق بالنبي ﷺ وتعلّم منه وتعلم القرآن.. ثم أرسله ﷺ وحيداً إلى المدينة.. يشع في دورها ويفوح عبيره في أبياتها.. وها هي قصة حياته وشقائه ومعاناته تمرّ في مخيلة النبي ﷺ وأصحابه.. ها هو مصعب راقد بسلام والحزن من حوله أثقل من جبل أُحد.. ها هو أحد الذين كانوا يعانون الأمرّين مثل مصعب.. خباب بن الأرت رضي الله عنه يقول عن رفيقه مصعب: (هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير

= ١٢/٤) والطبراني (١٤٢/٣) والبزار - زوائد (٣٧٢/٢) كلهم من طريق يزيد بن أبي زياد عن مقسم مولى ابن عباس عن ابن عباس. ويزيد ضعيف.

(١) سنده حسن رواه جماعة عن أسامة بن زيد الليثي عن الزهري عن أنس.. وأسامة حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم انظر التقريب (٥٣/١) والحديث رواه أبو داود (٣١٣٦) والترمذي (١٠١٦) والبيهقي (١٠/٤ سنن) والدارقطني (١١٦/٤) والحاكم (٥١٩/١) والطبراني (١٤٤/٣) وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) انظر صحيح الجامع للشيخ ناصر.

قتل يوم أحد، فلم يوجد لـــه شيء يكفن فيه إلاّ نمرة، كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه، قـــال رسول الله ﷺ:

اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر)[1].

وهو نبات طيّب الرائحة لكن مصعباً أطيب منه.. يقول أبو ذر رضي الله عنه: (لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أُحُد مرّ على مصعب مقتولاً علـــى طريقه فقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾)[2] ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[3].

هذه الآية التي نزلت قبل قليل.. تلاها ﷺ وهو يمر بجسد مصـــعب

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٧٦) وابن أبي شيبة (٣٦٧/٧) واللفظ له.

(٢) إسناده حسن رواه الحاكم (٢٠٠/٣) حدثني محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا يحيى بـــن محمد بن يحيى الشهيد، حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب الحجبي، حدثنا حاتم بن إسماعيـــل عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير عن أبي ذر.. وعبيد: وعمير ولد على عهد النبي (ص) وذكر البخاري أنه رأى النبي (ص) وقـــد أجمع على توثيقه، انظر: التهذيب (٧١/٧) وجامع التحصيل (٢٨٥) وتلميذه الذي يروي عنه صدوق أظن الحافظ قد أخطأ بجعله من السادسة، والأولى أن يكون من الخامسة أو الرابعة لأن ابن عمر توفي قبل عبيد.. وعبد الأعلى ثقة فقيه - التقريب (٤٦٤/١) وحاتم حسن الحديث إذا لم يخالف.. قال الحافظ: صحيح الكتاب صدوق يهم وهو من رجال الشيخين - التقريب (١٣٧/١) وعبد الله الحجبي ثقة من رجال البخاري (التقريـــب - ٤٣٠/١) يحيى هو الذهلي الثقة الحافظ (التقريب - ٣٥٧/٢) وتلميذه هو الثقة الحـــافظ الزاهد أبو جعفر الوراق.. قال ابن الجوزي.. كان لـــه فهم وحفظ وكان من الثقات لا يأكل إلا من كسب يده. وقال عنه ابن يعقوب: صحبت محمد بن صالح ما رأيته أتـــى شيئاً لا يرضاه الله ولا سمعت منه شيئاً يسأل عنه وكان يقول الليل (المنتظم - ٣٧٠/٦) وقد رواه البيهقي (٢٨٤/٣) من طريق الحاكم (٢٤/٣) بسند صحيح.

(٣) أكملت الآية للفائدة.

الطاهر.. وكان في نزولها تكريم لهؤلاء الرجال الذين صدقوا مع الله في عهودهم.. فمنهم من قضى نحبه ووفى بعهده كمصعب وحمزة.. وهناك من قضى نحبه وهو لا يزال حياً مثل طلحة بن عبيد الله.. الذي شلت يده وارتقى ﷺ على ظهره ثم قال له: أوجب طلحة.. أي أتى بعمل صالح أوجب له الجنّة..

وهناك من ليس بين الأحياء ولا يتبين بين الأموات.. إنه أنس بن النضر عم أنس بن مالك الذي يقول: (نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾)[1] لكن أين أنس..؟ لا أحد يدري.. كما أن المشركين لم يأخذوا معهم أسرى وإلاّ لقلنا إنه معهم.. سنترك بعض الصحابة ليبحثوا عن أنس بينما نتعقب هذه المرأة لنرى ما تفعله على أرض أُحُد.. إنها فاطمة بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله بن عمرو بن حرام.. وزوجة عمرو بن الجموح.. وعمّة جابر بن عبد الله.. وهي تحمل حزناً كالجبال.. فقد فقدت آخاها وزوجها.. فأذهلها الوجد عمّا يجري حولها.. فاتّجهت إلى زوجها فحملته على بعير.. واتجهت إلى أخيها فحملته أيضاً وعادلتها على ذلك البعير.. ثم أمسكت بخطام البعير ومضت مهمومة نحو المدينة.. مهمومة لكنها متماسكة بالإيمان بقضاء الله وقدره.

لقد مضى عبد الله ومضى عمرو وربما استشهد أبناؤها الأربعة أو بعضهم.. فأي حزن تحمله هذه المرأة المسكينة.. وماذا ستقول لجابر وأخواته.. تابعت هذه المسكينة سيرها وحزنها وصبرها نحو المدينة.. بينما كان جابر لا يزال مرابطاً مع النظارين على مشارف المدينة.. فإذا به

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٨٣).

يشاهدها ويشاهد فجيعتها على ظهر البعير.. يقول رضي الله عنه: (فبينا أنا في النظارين، إذ جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي:

ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت، فرجعنا بهما)[1] إلى أُحد حيث كان ﷺ يشرف على تكفين الشهداء استعداداً لدفنهم.. وعاد من حَمَل قتيله بقتيله من المدينة.. ووصل جابر وعمتّه وربما بعض أخواته المسكينات.. وترجّل الفارسان عن البعير.. فانهمرت دموع جابر على وجه والده الحنون.. وتعالى نشيجه وحرقته عليه.. فرآه الصحابة.. فنهوه عن ذلك.. بينما كان ﷺ شاخصاً إلى هذا الكرب.. متألماً ومبشراً.. يقول جابر الحزين رضي الله عنه: (لما قتل أبي يوم أُحُد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي فاطمة تبكيه، فقال النبي ﷺ:

تبكيه، أو لا تبكيه، مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[2]، هذه هي البشرى الأولى.. أما الثانية فهي في طريقها من السماء إلى هذا الراقد بسلام.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٣٩٧/٣) وأبو داود والنسائي مختصراً: حدثنا أبو عوانة وشعبة وسفيان كلهم عن: الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر.
فالأسود بن قيس تابعي ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ٧٦/١) وشيخه ثقة وقد أخطأ الحافظ رحمه الله عندما قال في التقريب إنه: (مقبول) فهو ثقة وإن لم يعرفه الحافظ ابن المديني رحمه الله فقد عرفة أبو زرعة فقال: ثقة، والعجلي فقال: ثقة، وصحح حديثه كل من ابن خزيمة، والترمذي، وابن حبان، والحاكم انظر الجرح والتعديل (٥٠٨/٨) والتقريب (٢٩٧/٢) والتهذيب (٤١٧/١٠).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

كانت البشائر كالمطر على أجساد وأرواح الشهداء.. ها هو النبي ﷺ يشاهد إحداها.. تحلّق فوق جثمان حنظلة بن أبي عامر.. الذي انسلّ من فراش حبيبته ليسلّ سيفه وروحه دون رسول الله ﷺ حتى فقدهما على أرض أُحد.. إنه منظر مهيب.. الملائكة تقوم بتغسيله.. فيتساءل النبي ﷺ عن سرّ هذه الكرامة.. سمع الزبير ذلك التساؤل فقال:

(سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل حنظلة بن أبي عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث «فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب، فعلاه بالسيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا سفيان»، فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم تغسله الملائكة «فاسألوا صاحبته» فسألوا صاحبته فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة)[1]، ومنذ ذلك اليوم صاروا يسمونه «غسيل الملائكة»..

عُرف الشهداء كلّهم إلاّ واحداً.. الجميع يبحث عنه.. والجميع يتحدّث عن بسالته.. فأين هو.. أين عمّك يا أنس بن مالك.. أين أنس ابن النضر..؟ إنه ليس بين الأحياء ولم يتعرف إليه أحد بين الشهداء.. وتأتي إجابة أنس ممزوجة بالحزن والإعجاب.. بالوفاء والبطولة النادرة..

لم يتعرف أحد على جثته.. لكن أخته الربيع بنت النضر قدمت من المدينة من أجله.. طافت بين الشهداء وقتلى المشركين فلم ترَ وجه أخيها أنس.. وبينما هي تطوف توقفت أمام جسد أثار انتباهها.. ثم جلست

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه السراج (الإصابة - ٢٩٩/١٣) ومن طريقهما رواه الحاكم (٢٠٤/٣): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده.. وهذا السند مر معنا كثيراً وهو صحيح.. فيحيى ووالده تابعيان ثقتان.

وأخذت إحدى يديه تقلّبها ثم بكت.. هذه أنامل أخيها وحبيبها ورفيق طفولتها.. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه عن عمّه: (قاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة، وطعنة، ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلاّ ببنانه.. ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه)[1].

ومضى أنس بعد أن برّ بيمينه.. وتلقّى السيوف بكل جسده حتى تزيّن كله بها.. كان جسد أنس أرضاً ثانية للمعركة.. حتى أن وجهه لم يعرف من الجراح والشقوق وتشويه المشركين لـه.. فنزلت هذه الآيات العظيمة فيه وفي رفاقه.. فقرأها ﷺ وبشّرهم وبشّر من بعدهم.

النبي يبشّر الشهداء

فرسول الله ﷺ (مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

ثم قال رسول الله ﷺ:

أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلاّ ردوا عليه)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣) واللفظ له.

(٢) سنده صحيح رواه الحاكم (٣/٢٤) ومن طريقه البيهقي (٣/٢٨٤): أخبرنا أبو الحسين: عبيد الله بن محمد القطيعي ببغداد من أصل كتابه، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي، حدثنا سليمان بن بلال، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: =

وقف ﷺ أمام هؤلاء الأبرار وبشّرهم.. هؤلاء الأبرار الذين سافروا إلى جناهم.. التي لا تعرف مللاً ولا شقاءً ولا رتابة.. جناهم التي علت كل طموح وفاقت كل تصوّر.. أمّا رسول الله ﷺ فهو بينهم وسيبدأ بعد قليل بدفنهم.. لكن امرأة مذهولة تركض نحو الشهداء.. يحملها الحزن والوجد وتحمل في يديها شيئاً.. أشفق ﷺ عليها.. وخاف على مشاعرها فأمر الصحابة أن يحولوا بينها وبين فضائع التشويه التي فعلها الوثنيون بأجساد الشهداء.. يقول الزبير رضي الله عنه: (إنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى حتى كادت أن تشرف علىالقتلى، فكره النبي ﷺ أن تراهم، فقال: المرأة.. المرأة.

قال الزبير: فتوسمت أنها صفية، فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى. فلدمت في صدري -وكانت امرأة جلدة- قالت: إليك عني لا أرض لك.

فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك.

فوقفت، وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما. قال الزبير: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل، فعل به كما فعل بحمزة، فوجدنا غضاضة وخنى أن يكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدرناهما، فكان أحدهما أكبر من

=

وهذا السند صحيح. عبيد مجمع على ثقته، ولد على عهد النبي (ص) (التقريب - ٥٤٤/١) وتلميذه صدوق (التقريب - ١٢٧/٢) وعبد الأعلى: ثقة فقيه (السابق - ٤٦٤/١) وسليمان التيمي ثقة من رجال الشيخين (السابق - ٣٢٢/٢) والأويسي ثقة أيضاً (السابق - ٥١٠/١) وتلميذه ثقة حافظ (التهذيب - ٦٢/٩) والتقريب (١٤٥/٢).

الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفنّا كل واحد منــهما في الثــوب الــذي طــار لــه)[1].. إذاً فقد حصل حمزة على كفن بعد أن كان ثوبه هــو كفنــه.. واقتسم المهاجرون والأنصار الأشجان والكفان.. وها هو أمــير الاقتســام والكرام.. سعد بن الربيع مضرجاً بدمائه.. ينظر إليه عبد الرحمن بن عوف.. مودعاً أخاً لم تلده أمه.. محتفظاً بجميله.. محتفظاً بجماله الأنصاري.. في ذلك اليوم الذي قدم فيه عبد الرحمن بن عوف من مكة معدماً لا يملك شيئاً.. في ذلك اليوم توهج سعد بن الربيع بدراً في ليل ابن عوف وأحزانه..

قدم المهاجرون من مكة و(لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بــين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال لعبــد الــرحمن: إني أكثــر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبــهما إليــك فسمّها لي أطلقها فإذا انقضت عدّهما فتزوّجها)[2].. ها هو الكريم راقــد رقدة الموت.. قد ترك خلفه زوجة واحدة وابنتين[3] يبكينه بحرقة.. وهــا هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمام جسد والده الطاهر يبكي.. وفي مكان آخر يذرف هشام بن عامر بن أمية الأنصاري يذرف دموعاً على والده الحبيب.. كانت الساحة تغصّ بالأحزان والدموع.. كثر البكاء..

---

(١) سنده قوي رواه أحمد (١/١٦٥) والبزار (٣/١٩٥) والحارث زوائد (٢/٧٠١) وأبو يعلى (٢/٤٥) من طريق سليمان بن داود الهاشمي أخبرني ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن عروة أخبرني أبي الزبير... وهذا السند رجاله ثقات لكن علته هو عبد الــرحمن بــن أبي الزناد وهو صدوق لكنه تغير عند قدومه بغداد وكون سليمان بغدادي يعكر صفو هــذا السند.. لكنه لم ينفرد فقد تابعه يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وهو ثقة متقن والراوي عنه ثقة إلا إذا روى عن علي بن مسهر، وهذه ليست منها وقد وثقه أبو حاتم وابــن قــانع ومدحه ابن معين التهذيب (١/١٦٩) وهذه المتابعة عند البيهقي في السنن (٣/٤٠١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٨٠).

(٣) سيمر معنا الدليل لاحقاً.

(وكثر القتلى، وقلّت الثياب)[1]. يقول هشام بن عامر رضي الله عنه: (شكي إلى رسول الله ﷺ شدّة الجراح يوم أُحد، فقال ﷺ: احفروا وأوسعوا وأحسنوا وادفنوا في القبر الاثنين والثلاثة، وقدموا أكثرهم قرآناً، فقدموا أبي بين يدي رجلين)[2]..(وكان يكفن الرجل أو يكفن الرجلين والثلاثة في الثوب الواحد، وكان رسول الله ﷺ يسأل عن أكثرهم قرآناً، فيقدمه إلى القبلة فدفنهم رسول الله ﷺ)[3] دون أن يغسلهم.. دفنهم بجراحهم الطاهرة ودمائهم العبقة.. (أمر بدفنهم في دمائهم - ولم يغسلوا)[4]. وقال ﷺ: (أنا شهيد على هؤلاء، لفّوهم في دمائهم فإنه ليس جريح يجرح في الله إلاّ جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[5].

هذا ما جرى حول الدفن والكفن.. لكن ماذا عن:

الصلاة على الشهداء

هل صلّى النبي ﷺ على شهداء أُحد، أم أنه لم يفعل كما حدث لشهداء بدر رضي الله عنهم جميعاً..

---

(١) سنده حسن وقد مر معنا وهو حديث أنس السابق وقد حسنه الشيخ ناصر حفظه الله.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (١٩/٤) وأبو داود (٣٢١٤) والترمذي (١٧١٣) وابن ماجه (١٥٦٠) والنسائي (٨١/٤) والبيهقي (٣٤/٤) وأبو يعلى (١٢٤/٣) وعبد الرزاق (٥٠٨/٣) والطبراني (١٧٢/٢٢) من طرق عن حميد بن هلال عن هشام بن عامر.. وحميد تابعي ثقة عالم وهو لم يسمع هذا الحديث من هشام.. سمعه من ابنه التابعي الثقة: سعد بن هشام.. ومن أبي الدهماء وهو ثقة أيضاً واللفظ لابن شيبة (٣٧٢/٣) وانظر أحكام الجنائز للإمام الألباني (١٤٢).

(٣) هو الحديث قبل السابق.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤٣).

(٥) حديث حسن مر معنا من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك وله شواهد قوية.

يحدّثنا عن ذلك أحد الذين لم يحضروا المعركة، لكنه حضر إلى أرضها بعد انتهائها.. وشاهد عمليات التكفين والدفن.. إنه ذلك الشاب الذي كانت دموعه تتساقط كالمطر على وجه أبيه - الشهيد.. إنه جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما، وهو يقول:

(لما قتل أبي يوم أُحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمّتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: تبكيه أو لا تبكيه مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[1]، ثم (إن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثم يقول: أيّهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحد قدّمه في اللحد، وقال ﷺ:أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. وأمر بدفنهم بدمائهم و لم يصلّ عليهم و لم يغسلهم)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤٧). ملاحظة:

ورد أنه ﷺ صلى على حمزة وحده.. وورد أنه صلى على حمزة وعلى بقية الشهداء كمجموعات معه رضي الله عنهم.. والذي جعلني لا أذكر هذا في المتن هو إشكال في أسانيد ومتون تلك الروايات وهذا الإشكال يتلخص في النقاط التالية:

١- حديث ابن إسحاق عن ابن الزبير وهو جيد الإسناد وابن إسحاق قوي الحديث إذا لم يخالف من هو أوثق منه.

٢- حديث أنس بن مالك اضطرب فيه أسامة الليثي -وهو صدوق يهم- فمرة قال: لم يصل عليهم، ومرة قال: لم يصل على أحد من الشهداء غير حمزة.. والصواب القول الأول ثم وجدت ما يؤيد قولي هذا: وهو نقد للإمام البخاري رحمه الله حيث قال إن القول الثاني غير محفوظ غلط فيه أسامة فالحمد لله.

٣- حديث ابن عباس جيد السند لكنه مخالف لحديث أنس ولحديث جابر أيضاً لأنه ذكر أنه صلى على جميع الشهداء.

٤- إن مما يرجح حديث جابر هو حضوره ومشاهدته للأحداث في الوقت الذي كان فيه ابن الزبير يبلغ الثانية من عمره.. بينما كان ابن عباس مع والده في مكة لكن هذا لا يلغي إمكانية الجمع والله أعلم. ولتفصيل أكثر راجع موسوعة السيرة.

هكذا أمر الله سبحانه وهكذا فعل ﷺ وامتثل.. فسينهض هؤلاء الفرسان يوماً من مراقدهم مزينين بالشهادة والطعنات.. ولون الدم ورائحة العطر تفوح من جراحهم وتعطر المكان من حولهم.. كان الجو مشحوناً بالحزن.. ليس هناك أقسى ولا أكثر دموعاً وانتحاباً من لحظات الدفن ومغادرة القبر والأحباب تحت التراب.. لحظات كان فيها جابر حزناً ودموعاً.. لكن الله أنزل ما يخفف حزنه.. فالتفت ﷺ إلى جابر المجروح وقال له:

(يا جابر.. ما لي أراك منكسراً؟ قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً وديناً. قال ﷺ: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: [ما كلم الله أحداً قطّ إلاّ من رواء حجاب، وكلّم أباك كفاحاً]، «يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك» فقال: يا عبدي.. تمنّ علي أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. فقال الرب سبحانه:

إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون [قال: يا رب.. فأبلغ من ورائي، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ]) (1) ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم

(1) حسنه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه -واللفظ له- (١٩٠)-(٢٨٠٠) والترمذي (٣٢١٠) والذي يبدو لي أن الحديث ليس حسناً كله.. لذلك وضعت المعقوفين بين الألفاظ التي لم أجد لها شاهداً.. وذلك لأن هذا اللفظ تفرد به -حسب علمي - موسى بن إبراهيم ابن كثير وهو وإن روى عنه جمع من الثقات إلا أنه لم يوثق لفظياً بل جاء عكس ذلك فقد جرحه ابن حبان في ثقاته وقال: كان ممن يخطئ (٤٤٩/٧) ولعل هذه الزيادة من أوهامه.. قال الحافظ في التقريب (٢٨٠/٢): صدوق يخطئ وسكت عنه ابن أبي حاتم (١٣٣/٨).
ولبقية الحديث شاهد حسن عند أحمد عن جابر.. حدثني ابن المديني عن سفيان بن عيينة عن محمد بن علي بن ربيعة عن ابن عقيل عن جابر.. ومحمد بن علي ثقة (ذيل الكاشف - ٢٥٤) =

﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فرح جابر بهذه البشرى، فرح بحفاوة الرب الكريم بأبيه.. فخفّفت البشرى كثيراً من أحزانه، لكن:

ما سر حفاوة الله بوالد جابر؟

ما سرّ هذا الشيخ المحلّق في النعيم.. إنه لم يقاتل كما قاتل حمـــزة.. و لم تمزقه الطعنات كما مزقت أنس بن النضر.. لقد شرب الخمر –وهـــو لا يزال مباحاً– ثم انصرف إلى المعركة فكان أول من سقط من الشهداء.. ومع ذلك يلقى كل هذا الفيض الغامر من النعيم..؟!

ليس هكذا يُنْظَر إلى والد جابر رضي الله عنه.. دعونا نتأمل عالم هـــذا الشيخ من كل زواياه.. دعونا نجعل أنفسنا مكانه.. إن هذا الشيخ الكبير لم يحارب عن اثنين كما فعل سعد في بدر.. و لم يحارب بسيفين كحمزة..

لكنه كان يحارب في معركتين شرستين.. أحدهما على أرض أُحُد.. أمّا الثانية فكانت ساحتها داخل أعماقه وبين حناياه.. وهي معركة أكثر ضراوة وقسوة.. إنها معركة مع الذات.. مع الدنيا.. مع عواطف الأبـــوة الجياشة التي تتغلغل في أعماقها تسع بنات مسكينات.. والـــدنيا.. كـــل الدنيا.. تعلم أن الشيخ أكثر حناناً وعطفاً على بنيه منه وهـــو شـــاب.. والدنيا.. كل الدنيا تعرف للبنات رحمة لا تعادل في قلوب الآباء.. فكيف إذ كنّ تسع بنات يترصّد لهن اليتم والفقر.. إن عبد الله بن عمـــرو بـــن حرام ينتزع نفسه من بين بناته.. من بين أبوّته وأحزانه ليتّجه بهـــا نحـــو

=

وابن عقيل حسن الحديث إذا لم يخالف انظر: الفتح الرباني للبنا (٢٢/٣٠٨). والزيادة له.

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ – ١٧١.

الجنّة.. نحو الله.. فحب الله متشعب في كل خلاياه ومشاعره.. وهو بحاجة إلى الله أكثر من حاجة بناته إليه.. هكذا نتأمل هذا الشيخ.. وبهذه الطريقة نتحسّس بعض سرّه وسر حفاوة الله به.

والد جابر ورفاقه الآن أحياء عند ربّهم يرزقون.. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن معنى هذه الآية.. عن تلك الحياة الفسيحة التي ينعم بها الشهداء.. وعن ذلك الكرم الإلهي المدهش.. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سألنا عن ذلك فقال ﷺ: (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب.. نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)[2]، وقال أحد الصحابة رضي الله عنهم: (قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عزّ وجلّ: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم -الإمارة- باب: بيان أرواح الشهداء في الجنة.

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ وما بعدها)[1]. زخّات من النعيم أمطرها تلك الكلمات على قلوب أصحاب النبي ﷺ.. فحفرت فيها الأخاديد والشقوق.. حسرة على ما فاهم في هذا اليوم من لذّة الحديث إلى أحبّ حبيب.. لذّة الاستماع إلى الله..

إن الإنسان ليعرف من حال العاشق حالةً من الذهول عن كل ما يحيط به عند لقاء المحبوب.

فليت شعري من يصف مشاعر من يتحدث إلى أحب حبيب وأعظم محبوب..؟

تمنى فرسان أُحد وهم يغادرون تلك المقابر الطيبة.. تمنوا لو كانوا فيها.. بين أولئك المسافرين في النعيم..

وتمنى ﷺ لو كان مجندلاً على أرض أُحد لينعم بلقاء اليوم.. تحدث ﷺ بذلك وباح به لأصحابه.. فازداد شوقهم وحنينهم إلى الله وإلى الجنّة وإلى هذا الحبيب الذي يبوح بمشاعره.. ويقول:

(أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحضن الجبل - يعني سفح الجبل)[2]، يقول جابر رضي الله عنه أنه قصد: ليتني (قتلت معهم)[3].

---

(١) حديث صحيح بما قبله: رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد (١/٢٦٥-٢٦٦) وابن جرير في التفسير (٣/٥١٣): حدثنا إسماعيل بن أبي أمية عن أبي الزبير عن ابن عباس وهذا السند صحيح لولا عنعنة أبي الزبير.. وقد دلس أبو الزبير اسم شيخه الذي صرح به في الرواية لابن إسحاق عند أبي داود (٢٥٢٠) والحاكم (٢/٨٨) وهو الإمام المجاهد سعيد ابن جبير.. كما أن للحديث شاهداً سنده حسن عند ابن جرير (٣/٥١٣).

(٢) سنده صحيح رواه إسحاق ومن طريقه: أحمد (٣/٣٧٥) والحاكم (٢/٨٦) (٣/٣٠) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه.. وهذا سند صحيح.. عاصم ثقة عالم بالمغازي: التقريب (١/٣٨٥) وعبد الرحمن تابعي ثقة (٤٧٥).

(٣) هو الحديث السابق.

تلك هي مشاعر النبي ﷺ ومشاعر من حوله من المؤمنين.. لكن ماذا عن مشاعر جيش المشركين الذي يرجع الآن إلى مكة..؟ إنهم الآن في أرض تسمّى: (الروحاء).. وأبو سفيان يتحدّث إليهم..

أبو سفيان وجيشه نادمون

ليس على قتالهم للمؤمنين.. بل على أشياء فاتتهم في المعركة.. أشياء عجزوا عن تحقيقها فـ(لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحد وبلغوا الروحاء، قالوا:

لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم)[1].. ماذا تعني هذه الكلمات وهي تتحسّر على بقاء محمد ﷺ في سجلات الأحياء.. وتتحسّر على عدم التمكن من سبي فتيات المسلمين..؟ ربما كانت تعني أن هناك نية للعودة إلى أرض المعركة من جديد.. ومحاولة أخرى للإجهاز على ما تبقى من المؤمنين وهم يدفنون شهداءهم..

وربما كانت مجرد زفرات وأماني..

لكن كل ذلك لم يكن خارج نطاق تفكير النبي ﷺ العسكري.. كان ﷺ يقرأ أفكار القوم ويتصفح أحلامهم.. لذلك قرّر أن يقوم بحركة عسكرية لتغطية أسوأ الاحتمالات.. تحدّثنا عن ذلك فتاة شاركت في المعركة.. عائشة رضي الله عنها تتحدّث إلى أحد أبناء أختها - أحد أبناء الزبير بن العوام وتخبره عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني (١١/٢٤٧): حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن منصور الجواز، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس وهذا السند صحيح، عكرمة وعمرو وسفيان أئمة ثقات ومحمد بن منصور ثقة - من رجال التقريب (٢/٢١٠) وشيخ الطبراني ثقة مأمون انظر: البلغة (٢٢٨).

﴿وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.. قالت: يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحُد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال ﷺ: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب سبعون رجلاً - كان فيهم أبو بكر والزبير)[1].

وامتثل أبو بكر والزبير وامتثل معهم ثمان وستون فارساً.. نهضوا تحملهم جراحهم.. وتحملهم تلك الأحاديث المعطرة عن أولئك الشهداء الذين سبقوهم قبل قليل.. نهض سبعون محارباً نحو باب من أبواب الجنّة يلوح في الأفق..

لكن يبدو أنهم ظفروا ببعض المعلومات الخطيرة عن أبي سفيان وجيشه.. وتوصّلوا إلى معرفة ما جرى من حوار دار بين المشركين حول التحسّر على عدم قتل محمد ﷺ وسبي المؤمنات.. فعادوا ليخبروا النبي ﷺ ليتّخذ إجراءً أقوى.. إنه الآن يأمر الجيش كلّه بالنهوض والتحرك نحو جيش الوثنين وبسرعة.. فكانت غزوة على هامش أُحد.. سميت فيما بعد بـ:

غزوة حمراء الأسد

فعندما (انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحد، وبلغوا الروحاء قالوا:

لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد، أو بئر أبي عيينة، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾[2]))..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٧).

(٢) سنده صحيح وهو جزء من حديث الطبراني قبل السابق.

من بعد ما أصابهم ما أصابهم من فقد الأحباب والأصحاب.. لكن قريشاً لاذت بالفرار خشية أن يصيبها ما أصابها في أوّل المعركة.. أو يحدث لها ما كان في غزوة بدر.. فجيش محمد ﷺ كالأسود الجريحة.. الرماة يريدون التكفير عن معصيتهم لأوامر قائدهم ﷺ.. وبقية الصحابة يريدون اللحاق بحمزة وعبد الله بن حرام وأصحابهم.. لعل الله أن يخاطبهم هذا المساء.. لكن قريشاً لاذت بالفرار.

فمكث ﷺ وأصحابه رضي الله عنه بعض الوقت ثم عادوا مثقلين إلى المدينة الحزينة.. المشتاقة إلى نبيّها وفرسانها..

سأستأذنكم قليلاً لأسبق رسول الله ﷺ وصحابته لا إلى المدينة.. بل سأعود إلى أرض أُحد.. فقد خيّم اللّيل على جبالها وشعابها.. وهناك حركة غريبة تحدث بين تلك الشعاب.. هناك شبح ينهض من بين الأموات..

شبح على أرض أُحُد

دعونا نقترب منه.. إنه يقف على قدميه.. يترنّح من الألم والبرد يزيد من آلامه.. ها هو.. إنه ليس من الجنّ.. إنه أحد أفراد جيش أبي سفيان.. وقد كان طوال اليوم يتظاهر بالموت والدم ينزف منه.. يقول أنس بن مالك: (كان وهب بن عمير شهد أُحداً كافراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار، فعرفه فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره ثم تركه، فلما دخل الليل وأصابه البرد لحق بمكة، فبرأ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر، فقال وهب: لولا عيالي ودين عليّ لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمداً، فقال له صفوان: كيف تصنع؟

فقال: أنا رجل جواد لا ألحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالسيف، فألحق بالخيل ولا يلحقني أحد.

فقال له صفوان: فعيالك مع عيالي، ودينك علي)[1].

لن أكمل هذا الحوار.. سأترك الرجلين وما يكيدان لألحق بحبيبي ﷺ.. ها هو يسير نحو المدينة الحزينة.. دون حمزة.. دون سبعين من الشهداء الأبرار.. والبيوت تضجّ بالحزن والنواح.. يدخل ﷺ المدينة ويمشي بين أبياتها.. فيحاصره النواح والبكاء في كل الطرقات والدروب..

لم يتوقف النواح في المدينة ولم تتوقف الدموع.. ولا الأحزان.. إنها تتقاطر من قلوب المؤمنين.. كما يتقاطر سيف هذا المحارب المخيف.. الذي يسلم لحبيبته سيفاً أحمر يتقاطر موتاً.. سيفاً حنته المعركة لكنها لم تَحْنِ حامله..

إنه عليّ بن أبي طالب وهو الآن برفقة رسول الله ﷺ.. ولا أعلم هل هما في بيت النبي ﷺ أم في بيت فاطمة..؟

يبدو أنهما في بيت فاطمة رضي الله عنها، فقد (جاء علي رضي الله عنه بسيفه يوم أُحد قد انحنى فقال لفاطمة رضي الله عنها: هاكي السيف

---

(١) سنده قوي رواه الطبراني (٦٢/١٧) وابن منده - ذكره في الإصابة.. وسند الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري، حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرواق، أخبرنا جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني - لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك: ... وقد توبع ابن عسكر عند ابن منده تابعه أبو الأزهر.. وأبو الأزهر حسن الحديث إذا لم يخالف، ومحمد بن سهل ثقة، انظر التقريب (١٦٧/٢) وعبد الرزاق معروف، وجعفر بن سليمان صدوق من رجال مسلم - التقريب (١٣١/١) وأبو عمران الجوني اسمه: عبد الملك بن حبيب الأزدي تابعي ثقة من رجال الشيخين، التقريب (٥١٨/١). وابن منده من شيوخ الطبراني.

حميداً فإنها قد شفتني. فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت أجـــدت الضـــرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف، وأبو دجانة وعاصم بن ثابت الأقلح، والحارث بن الصمة)[1].

توجّه ﷺ إلى بيته خلال النواح والبكاء.. إنه يستمع إلى النائحـــات والوجد يحرق أكبادهن.. فيتذكر عمّه حمزة رضي الله عنـــه.. وتعـــاوده الأحزان من جديد.. فيستجيب لها بكلمات تفيض حزناً ووفاءً لـــذلك الفقيد الحميم.. فقد (مرّ ﷺ بنساء بني الأشهل)[2] عندما (رجع رســـول الله ﷺ يوم أُحد فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهنّ، فقال:

لكن حمزة لا بواكي لـــه، فجئن نساء الأنصار فـــبكين علـــى حمـــزة عنده.. ورقد ﷺ فاستيقظ وهن يبكين، فقال: ويلهنّ إنهـــن لهاهنـــا حـــتى

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم (٣/٢٤) واللفظ لـــه والطبراني (٧/١٢٢) (١١/٢٥١) وسند الحاكم هو حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار، حدثنا أبو الحسن علي بن محمد الثقفي بالكوفة حدثنا منجاب بن الحارث التميمي، قال: وزعم سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار عن عكرمة عن ابن عباس... وهذا السند صحيح فسفيان وعمرو وعكرمة أئمة ثقات معروفون ومنجاب التميمي ثقة من رجال مسلم (التقريـــب – ٢/٢٦٤) فقـــول الحاكم رحمه الله إن الحديث على شرط البخاري فيه نظر.. بل العكس لأن منجاب من رجال مسلم فقط فالحديث على شرط مسلم.. وأبو الحسن الثقفي ثقة انظر: تاريخ بغداد (١٢/٦٣) وشيخ الحاكم عالم ثقة قال عنه تلميذه الحاكم: أنه محدث عصره. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/٤٣٧) وقد توبع الثقفي عند الطبراني وفيه تصريح بسماع سفيان من عمرو.

(٢) سنده حسن رواه ابن ماجه (الصحيح ١/٢٦٥) والحاكم (٣/١٩٥) ابن وهب وعبيد الله ابن موسى أخبرنا أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر وأسامة بن زيد حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب – ١/٥٣) وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابـــن ماجـــه (١/٢٦٥) وبقية السند كالذهب.

الآن)[1] (ويحهن ما انقلبن بعد)[2] ولا انصرفن إلى بيوقمن حتى الآن.. إنها بعض عادات الجاهلية التي لازال التمسك بها مباحاً حتى الآن.. لكنها عادة لا تعبّر عن الحزن العميق فقط.. إنها تتجاوز الحزن إلى شيء خطير جداً.. شيء جاء الإسلام ليمحوه من أعماق كل مؤمن ومؤمنة.. وهذا الشيء هو الجزع من أقدار الله والاحتجاج على قضائه.. وهذا قد يؤدي إلى هدم أحد أركان الإيمان الستّة التي جاء بها الإسلام.. وهو الركن السادس.

فأركان الإيمان هي:

١) الإيمان بالله.

٢) وملائكته.

٣) وكتبه.

٤) ورسله صلّى الله عليهم جميعاً.

٥) والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور.

٦) الإيمان بقضاء الله وقدره.

ولهذا نزل الأمر من الله بـ:

تحريم النياحة على الميت

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: (رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده.. ورقد ﷺ فاستيقظ وهنّ يبكين، فقال: ويلهن إنهن لهاهنا حتى الآن..

---

(١) هو الحديث السابق.

(٢) هو الحديث السابق.

مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم)[1]، ولم يقف الأمر عند التحريم فقط.. فبعد فترة من الزمن نزل الوحي يشدّد تحريم النياحة على الميت.. يجعلها من كبائر الذنوب.. وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين والمؤمنات.. يتتبّع آثار الجاهلية، يمحوها ويغرس مزيداً من الإيمان مكانها..

يقول ﷺ: (النياحة على الميت من أمر الجاهلية، وإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت، فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران، ثم يغلى عليها بدروع من لهب النار)[2]، وسرابيل القطران تعني ثياباً من نحاس مذاب أعاذنا الله من ذلك.. النياحة من أمر الجاهلية.. وهي ليست -أبداً- مقياساً لمدى الشعور بالحزن وفقدان الحبيب.. إنها نوع من التطرّف والغلوّ في إظهار المشاعر..

ولذلك نزل الوحي مرّة أخرى مذكراً.. وواصفاً تلك الممارسات بشيء خطير جداً.. فقد قال ﷺ:

(اثنتان من الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت)[3] توقف النواح.. ولم تتوقف الدموع وكذلك الحياة لم تتوقف.. ففي المدينة كانت الرسالة هي الحياة.. على الأحياء أن يؤدّوها كما أدّاها أولئك الشهداء..

وتمرّ الأيام ويتبقى لأُحدٍ وشهدائها ذكريات وعطر يفوح في أجواء

---

(١) سنده حسن ورواه ابن ماجه (الصحيح ١/٢٦٥) والحاكم (٣/١٩٥) ابن وهب وعبيد الله بن موسى أخبرنا أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر وأسامة بن زيد حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب - ١/٥٣) وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (١/٢٦٥) وبقية السند كالذهب.

(٢) حديث صحيح صحيح الجامع الصغير (٢/١١٥١).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم وأحمد (صحيح الجامع - ١/٩٠).

المدينة وأحاديث أهلها.. وتمرّ الأيام فيولد لأحد الأنصار غلام فيحتار في تسميته.. فتتجه به الحيرة إلى أحب الناس إليـــه.. إلى رســـول الله ﷺ.. فيبحر به ﷺ إلى أبهج الذكريات وأقساها.. يبحر به إلى

أحب الأسماء إلى رسول الله ﷺ

يقول جابر بن عبد الله: (ولد لرجل منّا غلام، فقالوا: ما نســـمّيه؟ فقال النبي ﷺ: سمّوه بأحب الأسماء إليّ، حمزة بن عبد المطلب)(١)، فحمزة مازال عالقاً في الذاكرة.. متجذراً في القلب النبوي الكـــريم.. لكـــن الله سبحانه يترل على نبيه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه.. فيقولها ﷺ لمـــن حوله: (إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن)(٢).

ولما رزق أحد الأنصار بغلام.. سماه محمداً فاحتجّ الأنصار علـــى هذا الاسم.. وبخلوا به عليه إكراماً لرسول الله ﷺ.. فكـــان جـــواب رسول الله ﷺ على ما حدث.. ما نقله جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (ولد لرجل منّا غلام، فسماه محمداً، فقال له قومه:

لا ندعك باسم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا بـــاسمي

---

(١) سنده حسن رواه الحاكم (١٩٦) حدثنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، أنا عبد الله بن صالح البخاري، حدثنا يعقوب بن حميد بن كاسب، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن جابر.. أبو علي شيخ الحاكم أحد جهابذة الحديث، واحد عصره في الحفـــظ والإتقان والورع والمذاكره، والتصنيف (التذكرة - ٩٠٢) وشيخه ثقة ثبت انظر: المنتظم (١٤٥/٦) وسفيان وعمرو بن دينار ثقتان ثبتان معروفان.. التقريب (٣١٢/١) (٦٩/٢) وعمرو بن دينار سمع من جابر.. فيتبقى في السند يعقوب بن حميد ولولاه لكان الســـند صحيحاً لكنه به حسن.. فهو كما لخص الحافظ أقوال العلماء: صدوق ربما وهم فحديثه حسن ومن هو الذي لم يهم.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - الأدب (٢١٣٢).

ولا تكتنوا بكنيتي، فإنما أنا قاسم أقسم بينكم)[1].. إذاً فاسم محمد اسم محبّب إلى رسول الله ﷺ ومحبب إلى الله سبحانه.. ولذلك قال ﷺ لرجل: (من الأنصار ولد له غلام، فأراد أن يسمّيه محمداً، فأتى به النبي ﷺ، فقال: أحسنت الأنصار.

سمّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)[2]، فما هي هذه الكنية التي نهاهم ﷺ عن التكنّي بها..

جابر بن عبد الله أيضاً.. يحدّثنا عن ذلك.. فيقول:

(ولد لرجل منّا غلام، فسمّاه القاسم. فقلنا: لا نكنيك أبا القاسم، ولا ننعمك عيناً، فأتى النبي ﷺ فذكر له فقال:

اسم ابنك عبد الرحمن)[3]، وعندما (نادى رجلٌ رجلاً بالبقيع: يا أبا القاسم.. فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لم أعنك، إنما دعوت فلاناً. فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي ولا تكنوا بكنيتي)[4].

حدثنا جابر رضي الله عنه عن أشياء كثيرة حدثت بعد غزوة أُحد.. فماذا عن جابر نفسه.. ماذا عنه.. ماذا عن أخواته الصغيرات.. ماذا عن دين والده الذي رحل وتركه أمانةً يثقل كاهله.. والدَّيْن لصاحبه همٌّ بالليل وذلّ في النهار..

إلى أي شيء تحولت أحوال جابر.. الذي وجد نفسه وحيداً.. مسؤولاً عن تسع بنات.. مسؤولاً عن دين ضخم لا يستطيع أداءه وهو

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم كتاب الأدب (٢١٣٣) - ٥.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٣) - ٦.
(٣) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٣) - ٧.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣١).

شاب صغير لم يتعرض من قبل لمثل هذه المسؤوليات.. إنه شاب صغير أعزب أفاق على أمانة كالجبال تحاصره.. فإلى أين يتجه و:

إلى أين تتجه الهموم بجابر

ليس هناك أرحب من رحمة الله لجابر.. والنبي ﷺ مساحة من هذه الرحابة والرحمة فهو (رحمة مهداة)[1] من الله لهذه الأمة.. ولكل فرد منها.. لم يكن بينه وبين أصحابه حواجز ولا حرس.. (كان ﷺ لا يدفع عنه الناس، ولا يضربوا عنه)[2]، ومن رحمته وتواضعه أن جاءه رجل فشعر ذلك الرجل بخوف ورعدة من لقائه ﷺ.. فقال له النبي ﷺ: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)[3].. ذلك اللحم المملح المجفّف في الهواء والشمس.. إذاً فلا داعي للخوف ولا للرعدة والانتفاض..

وعلى عكس هذا الرجل كان هناك من الناس من يملك جرأة أكثر مما هو مطلوب مع هذا النبي المتواضع عليه السّلام.. فقد (كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه)[4] (فأغلظ[5].. فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً. ثم قال ﷺ: أعطوه سناً مثل سنه)[6] (فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سناً فوقها[7]، فقال: أعطوه.

---

(١) حديث صحيح صحيح الجامع. وقد رواه بسند جيد كل من الحاكم (٩١/١) الطبراني في الصغير (١٦٨/١).

(٢) حديث صحيح صحيح الجامع (٨٧٦/٢).

(٣) حديث صحيح صحيح الجامع (١١٨٥/٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥).يعنى أن النبي استلف بعيراً.

(٥) تكلم مع النبي ﷺبأسلوب غليظ.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٦).

(٧) أي أكبر منها في السن وأغلى في الثمن.

فقال: أوفيتني أوفى الله بك. قال النبي ﷺ: إن خيـاركم أحسـنكم قضاءً)[1].. رضي الرجل وذهب مسروراً بما حصل عليه.. وتعلّم الصحابة منه ﷺ حسن الوفاء وحسن الأخلاق.. لكن جابر بن عبد الله لا يملك ما يقضي به كل دينه.. فاتّجه إلى الرحمة المهداة يسأله العون وتفريج هـذا الكرب الشديد.. فكان ﷺ له في المكان المطلوب والزمان المناسب.. و

على باب رسول الله ﷺ كان جابر يتعلم أدباً

يقول جابر رضي الله عنه: (إن أبي قتل يوم أُحُد وترك تسع بنـات كنّ لي تسع أخوات)[2] (وترك عليه ثلاثين وسقاً)[3] لرجل مـن اليهـود فاستنظره جابر فأبى أن ينظره)[4]، ولم يكن هذا اليهودي هـو الوحيـد الذي له حق عند جابر.. فوالده (ترك عليه ديناً)[5] غير هذا. يقول جابر: (إن أبي ترك عليه ديناً وليس عندي إلاّ ما يخرج نخلهُ، ولا يبلغ ما يُخرج سنين ما عليه)[6] من دين (فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضـاً فأبَوْا)[7]، ورفضوا التنازل عن أي شيء (فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبوا، ولم يروا أن فيه وفاءً، فأتيت النبي ﷺ)[8] (فـدققت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).

(٣) الوسق يساوي ستين صاعاً.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٩٦).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).

فقال ﷺ: أنا.. أنا -كأنّه كرهها-)[1] لأن كلمة: (أنا) ليست إجابة ولا تعريفاً بالطارق.. بل هي استدعاء لمزيد من الاستفسار والتساؤل.. ولو قال جابر: (أنا جابر) لما كره ﷺ ذلك ولكان أفضل..

تعلّم جابر أدباً رفيعاً من نبيه ﷺ.. ثم بثّ للنبي ﷺ شكواه وديونه وتعنّت الدائنين.. فوجده رحيماً معيناً على النوائب والشدائد.. قال جابر للنبي ﷺ:

(قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أُحُد وترك ديناً كثيراً، وإني أحب أن يراك الغرماء)[2] (فانطلق معي لكي لا يفحش عليّ الغرماء)[3]، يقول جابر رضي الله عنه: (فاستشفعت به عليهم فأبوا)[4] و(استعنت النبي ﷺ على غرمائه أن يضعوا من دينه، فطلب النبي ﷺ إليهم فلم يفعلوا)[5] (فاشتد الغرماء في حقوقهم، فأتيت رسول الله ﷺ فكلّمته فسألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويحللوا أبي.. فأبوا.

فلم يعطهم رسول الله ﷺ، ولم يكسره لهم، ولكن قال: سأغدو عليك إن شاء الله تعالى، فغدا علينا حين أصبح، فطاف في النخل، فدعا في ثمره بالبركة فجددته)[6].

فقال ﷺ: (إذا جددته فوضعته في المربد)[7] (فبيدر كل تمر على

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٢٥٠).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٣).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧) والمربد هو مكان يجفف فيه الثمر.

ناحية)[1] (فصنّف تمرك أصنافاً: العجوة على حدة، وعذق ابن زيد على حدة، ثم أرسل إليّ. ففعلت، ثم أرسلت إلى النبي ﷺ فجاء)[2]، و

جاءت المعجزة

(ثم قال: ادع غرماءك)[3] (فلما نظروا إليه أغروا بي)[4] تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات، ثم جلس عليه)[5] (ثم دعا)[6] (ثم قال: ادع أصحابك.. فما زال يكيل لهم حتى أدّى الله أمانة والدي، وأنا والله راض أن يؤدي الله أمانة والدي ولا أرجع إلى أخوتي تمرة، فسلّم والله البيادر كلّها حتى أني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله ﷺ كأنه لم ينقص تمرة واحدة)[7] (فأوفاهم الذي لهم وبقي مثل ما أعطاهم)[8] (فما تركت أحداً له على أبي دين إلاّ قضيته.. وفضّل ثلاثة عشر وسقاً، وسبعةً عجوة وستةً لون، أو ستةٌ عجوةً وسبعةٌ لون، فوافيت رسول الله ﷺ المغرب فذكرت له ذلك، فضحك، فقال:

ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما. فقالا: لقد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).

(٤) هيجوا بي.. أي أثاروا.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).

ما صنع أن سيكون ذلك)[1] (ثم جئت رسـول الله ﷺ وهـو جـالس فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ لعمر: اسمع -وهو جالس- يا عمر: فقال عمر: ألا يكون قد علمنا أنه رسول الله، والله إنك لرسول الله)[2].

وانصرف جابر إلى أخواته مبشّراً بكرامة الله لوالدهن في حياته وبعد مماته.. فقضاء الدين بهذه الطريقة لا يمكن إلاّ أن يكون إكراماً مـن الله لذلك الشيخ الراحل.. ذلك الشيخ الذي عانى الكثير.. الكثير من أجـل لقاء الله.. وهو إكرام لهذا الشاب الذي رضي بقضاء الله وقدره.. وحمل وهو صغير أمانة ضخمة وثقيلة.. وهل هناك أثقل من إعالة أسرة كـبيرة كهذه.. وهل هناك أثقل من دين يطالبك به يهودي..؟!

أجل هناك.. وفي بيت سعد بن الربيع الشهيد الكريم.. الذي ناصف عبد الرحمن بن عوف ماله وأهله.. في بيت هذا الربيع الممتد كالبصر حلّ الجفاف والفقر.. لقد ذهب مال سعد بن الربيع وثروتـه مـع الـريح والجشع.. سعد بن الربيع رضي الله عنه لم يترك سوى زوجتـه وابنتيـه وثروته.. ولا أدري هل طلّق زوجته الثانية أم توفّيت..؟ لكن الذي أعرفه أن ماله قد ذهب، فـ:

من أخذ مال سعد بن الربيع؟

ها هي أم الفتاتين.. زوجة سعد بن الربيع وبعد مرور أيام وشهور تخرج حزينة على زوجها وبناتها.. تتجه نحو النبي ﷺ تسأله حلاًّ.. تسأل الله فرجاً.. فلا سعد ولا بناته يستحقون كل هذه المعاناة.. تقف تلك الحزينة أمام الرحمة المهداة.. (جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).

إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أُحد «معك» شهيداً وإن عمّهما أخذ مالهما، فاستفاءه[1]، فلم يعد لهما مالاً، والله لا تنكحان إلاّ ولهما مال[2]، فقال رسول الله ﷺ: يقضي الله في ذلك، فأنزل الله عليه آية الميراث)[3]، وهي ضمن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾[4].

(فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما، فقال: أعطِ ابنتي سعد الثلثين، وأمّهما الثمن، وما بقي فهو لك)[5]، إنها قسمة الله.. لا قسمة الجاهلية والعادات والتقاليد.. آية تغسل قلب سامعها من الجشع.. تغسله بأنهار العطف والرأفة..

---

(١) أخذه غنيمة له مثل المال الذي يؤخذ دون حرب ولا جهد.

(٢) أي انه لن يرغب أحد فيهما وهما معدمتان.

(٣) حديث حسن انظر: ما بعده فهو جزء منه.

(٤) سورة النساء: الآيات ٩ - ١١.

(٥) سنده حسن رواه ابن سعد (٥٢٤/٣) وأحمد (٣٥٢/٣) وأبو داود والترمذي وابن ماجه (تفسير ابن كثير - سورة النساء) واللفظ لابن سعد عدا؛ «معك» من طرق عن عبد الله ابن محمد بن عقيل وهو تابعي حسن الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. والراوي عند أحمد وابن سعد عن ابن عقيل هو عبيد الله بن عمرو الرقي وهو: ثقة. انظر التقريب (٥٣٧/١) حيث قال: ثقة ربما وهم.. وليس هناك من لا: يهم.

تجعله في مكان المفجوع بنفسه.. تجعله يشعر بمرارة اليتم.. بليل اليتم يخيّم على أبنائه.. فإذا لم يكن صاحب قلب رقيق ومرهف.. فالآية التي بعدها تصدع قلبه المتحجر.. وتملأ بطنه الجشع بالجمر والنار.. وتقذف به في الجحيم والسعير الذي لا ينطفئ.. أما الآية الثالثة.. فهي رحمة من الله الرحيم بالأولاد أكثر من رحمة الآباء بأولادهم.. والأبناء بآبائهم.. إن الله يوصي الآباء بأبنائهم.. والموصي أرحم من الموصى.

وقد جعل الله نصيب الذكر أكثر من نصيب الأنثى في الميراث مرتين.. لأن عليه مسؤوليات تجاه الأنثى عديدة.. فالرجل يجب عليه الإنفاق على أمه وأخته وزوجته وابنته.. وهو الذي يدفع المهر لزوجته.. بل يجب عليه أن يكسو زوجته.. وأن يقدم لها الطعام جاهزاً للأكل، كما قال ﷺ:

(حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى)[1] إنها فريضة من الله.. وهو الذي خلق هذا الإنسان - المعجزة.. وهو أعلم به وأحكم وأدرى بما يجعل حياته سعيدة مشرقةً دائماً.. وقد بيَّن ﷺ أن الفتاتين لهما حكم ما فوق الاثنتين.. عندما خاطب شقيق سعد بن الربيع.. أخبرنا بذلك جابر بن عبد الله.. الذي تراكمت عليه المسؤوليات.. وربما كانت هي سبب مرضه الآن..

إنه يعاني من وعكةٍ ألزمته الفراش بين أخواته يمرضنه ويخفن أن يغادرهن كوالدهن رضي الله عنه.. لقد اشتدّ به المرض فلم يعد يعقل شيئاً.. وانتقل خبر مرضه إلى رسول الله ﷺ، فاتجه هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه إلى حي بني سلمة لزيارته.. يقول جابر رضي الله عنه:

---

(١) حديث صحيح -صحيح الجامع (٦٠٢/١).

(مرضت فجاءني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان)[1] (في بني سلمة)[2] (فأتاني وقد أغمي علي)[3] (فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماءٍ، فتوضأ منه ثم رشّ علي، فأفقت. فقلت:

ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟)[4] (يا رسول الله إنما لي أخوات)[5] (يا رسول الله لا يرثني إلاّ كلالة فكيف الميراث)[6] (كيف أقضي في مالي، كيف أصنع في مالي؟ فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث)[7]، وهي الآية التي بعد الآية السابقة.. وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾[8]، فهو أعلم بخلقه وأدرى بما يجعلهم سعداء في الدنيا والآخرة.. إنه يكرمهم بآيات الميراث ويحفظ حقوق الأيتام والورثة.. وفي ذلك تكريم للكريم سعد بن الربيع.. وتكريم لعبد الله بن حرام..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٤٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥٦٧٦).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).

(٨) سورة النساء: الآية ١٢.

وتمرّ أيام فينهض جابر من مرضه الذي ألّم به.. ولئن كان المرض قد غادر جابر.. فإن هناك من تغلغل المرض في جسده و لم يغادره حتى الآن.. في المدينة رجل هاجر إلى النبي ﷺ وحيداً بعد أن أرغم على مفارقة زوجته وهو في الطريق فقد أرغمه أهلها على تركها والرحيل دونها ودون ابنها.. إنه الصحابي الجليل أبو سلمة الذي يهاجمه المرض بضراوة الآن.. وتنقض على جسده جراحات أُحُد.. وحوله أبناؤه وزوجته المجاهدة الصابرة.. ذات الهجرة العسيرة.. والذكريات المريرة.. إنها تبكي الآن وهي تعاني وداع زوجها الحبيب.. إنه لن يرى هذا الجنين الذي يسكن أحشاءها.. لن يداعبه ولن يتمتع بطفولته.. مات أبو سلمة رضي الله عنه.. فبكت أم سلمة وأبناؤها.. لكن مرارة الحزن لم تنس هذه المؤمنة الصابرة نفسها.. لقد صبرت في السابق وها هي الآن تتحامل على جراحها.. تنهض من بين آلامها.. تتوجه نحو النبي ﷺ تسأله ماذا تقول في مصابها الأليم هذا.. تسأله حتى لا تقع في ذنب النواح والاعتراض على قضاء الله وقدره.. تقول أم سلمة رضي الله عنها:

(سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا حضرتم الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون، فلما مات أبو سلمة قلت: يا رسول الله، كيف أقول؟ قال ﷺ:

قولي: اللّهمّ اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة).

فدعت أم سلمة بتلك الدعوة.. وارتفعت دعوتها إلى الباري فاستجاب الله.. فـــ

ما هي عقبى أم سلمة

سنعرف ذلك لاحقاً.. أما الآن فسنترك «هند» أم سلمة وأحزانها ودعاءها إلى أحزان أخرى..

تراكمت على صدر صحابي كريم وملأت بيته حتى ضاق به.. عثمان بن عفان الذي فقد حبيبته رقية بعد غزوة بدر.. وفقد قوته في غزوة أحد فهرب من المعركة بعد هزيمة المسلمين ونزول الرماة من الجبال.. عثمان يعيش حالة من الحزن والأسف لا يحسد عليها.. لا أدري ما هي مبرّرات هروبه من المعركة وهو الذي شارك في صناعة الانتصار وإلحاق الهزيمة بالمشركين في أوّل النهار.. مهما كانت المبرّرات.. لقد حدث ما حدث لهذا الصحابي العظيم وهو بشر غير معصوم.. والله أرحم من أن يدعه للأحزان تفتك به وتغتاله.. لقد ضاقت به الدنيا ففرجها الله مرتين..

أما الأولى فقد أنزل الله فيه قرآناً يتلى يوم القيامة.. أنزل الله عفوه ورحمته به.. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[١].

وفي ذلك يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب عن عثمان: (أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له)[٢].

وهو غفور رحيم.. فرح عثمان بهذه الآية وانزاح همّه الثقيل.. وأقبل

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

عليه النبي يبشره ﷺ بهذه الآيات.. ويبشّره بعودة الصهر بينه وبين رسول الله ﷺ.. فقد وافق ﷺ على تزويجه من ابنته أم كلثوم.. فأي سعادة يعيشها عثمان الآن.. لقد عرف الناس بعد هذا من هو عثمان.. وما هي مترلته عند الله ورسوله.. فلقبوه بلقب يشع من بيت النبوة.. لقبوه بـ: (ذي النورين) وهو أسعد الناس بعرسه ونسبه.. وحبّ الله ورسوله.. وأم كلثوم تشاطره كل ذلك وتتعطّر به.. أما أختها فاطمة فهي سعيدة بأختها أم كلثوم.. وسعيدة بهدية جميلة تقدمها لأبيها ولزوجها عليّ رضي الله عنهم جميعاً..

وبينما كان الجميع يترقّبون الهدية بفرح.. كانت هناك امرأة مهمومة.. يتملكها الفزع مما قد يحدث للنبي ﷺ أو لفاطمة.. الرؤيا من جديد تخيم كالخوف على عالم امرأة صالحة تدعى أم الفضل وهي زوجة عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب التي تركت مكة والعباس إلى الله ورسوله ﷺ.. فما هي:

رؤيا أم الفضل

تقول رضي الله عنها: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رسول الله ﷺ.. فجزعت من ذلك، فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال ﷺ: خيراً.. تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم.

فولدت)[1] فاطمة.. ولدت حباً جديداً للنبي ﷺ ملك عليه قلبه.

(١) سنده حسن رواه أحمد (٣٣٩/٦) واللفظ له، والطبراني (٣/٥-٩) وروى آخره من الطريق نفسها ابن خزيمة (١٤٣/١) وحسنه أستاذنا الشيخ محمد مصطفى الأعظمي حفظه الله، ووافقه الإمام الألباني فلم يعلق عليه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٥/١) وصحيح أبي داود (٧٥/١).. وسند أحمد هو: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا =

فاطمة تلد حرباً

وقد سماه والده: (حرباً).. إنه يملأ بيت النبوة برائحة الأحفاد المنعشة البريئة.. (حرب) يزاحم أمه وأباه في قلب النبي ﷺ.. وقد بُشّر بمولد هذا الطفل الجميل فجاء ﷺ والسعادة تملأ صدره.. فوجد الابتسام والفرح يغمران المكان.. عليٌّ سعيدٌ وفاطمة أكثر سعادة.. يقول عليّ رضي الله عنه: (لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني.. ما سميتموه؟ قلت: حرباً، قال ﷺ: بل هو حسن)(1).. غيّر ﷺ ذلك الاسم الحاد باسم جميل يدخل البهجة على النفوس.

فحمل المولود الطاهر اسمه الجميل.. وحمله ﷺ بين يديه.. وقبّله.. وفعل شيئاً رآه أحد موالي النبي ﷺ الذي كان يشارك بيت النبي ﷺ فرحتهم بهذا القادم الحسن..

أخبرنا يا أبا رافع.. ماذا رأيت..؟

=

إسرائيل عن سماك عن قابوس بن المخارق عن أم الفضل. وقابوس تابعي لا بأس به – التقريب (٢/١١٥) ولا يضره أن يكون قد جاء - عند الطبراني أنه رواه عن أبيه عن أم الفضل فأبوه صحابي. وسماك تابعي صدوق وروايته هذه ليست عن عكرمة - التقريب (١/٣٣٢) وإسرائيل ثقة معروف مر معنا كثيراً – التقريب (١/٦٤) وقد توبع.. وتلميذه ثقة من رجال البخاري ومسلم (السابق - ٢/٣٤٤).

(١) سنده صحيح رواه أحمد (١/٩٨ - ١١٨) واللفظ له والبخاري في الأدب (٢٨٦) والحاكم (٣/١٨٠) والطبراني (٢/٩٦) وابن حبان والبيهقي في السنن (٦/١٦٦) من طرق عن أبي إسحاق السبيعي عن هاني بن هاني عن علي وأبو هاني ثقة وثقه العجلي توثيقاً لفظياً فقال: تابعي ثقة.. ووثقه النسائي فقال: ليس به بأس.. ومن علم حجة على من لم يعلم حاله كالشافعي وابن المديني انظر التهذيب (١١/٢٢) ووثقه ابن حبان.. وقال الشيخ شعيب حفظه الله: إسناده حسن (صحيح ابن حبان - ١٥/٤٠٩) وأبو إسحاق معروف وله شاهد عند الطبراني بسند منقطع.

يقول رضي الله عنه:

(رأيت النبي ﷺ أذّن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة)[1]، ويواصل أبو رافع رضي الله عنه وصف ذلك المشهد المفرح الذي لم يدخل السرور على بيت النبي ﷺ فقط.. بل امتدت بهجته وبركته إلى أحوج الناس إلى البهجة.. يواصل أبو رافع حديثه الجميل فيقول:

(لما ولدت فاطمة حسناً قالت: ألا أعقّ عن ابني بدم «بكبشين»؟. قال ﷺ: لا ولكن احلقي رأسه وتصدّقي بوزن شعره من فضّة على المساكين والأوفاض -وكان الأوفاض ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في المسجد أو الصفة- ففعلت ذلك)[2]، وتصدّقت على الفقراء والمحتاجين..

لكن ماذا عن:

عقيقة الحسن

ماذا عنها والنبي ﷺ يقول: (كل غلام رهينة بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه، ويسمى)[3] لقد أحب ﷺ أن يقدم هو عقيقة الحسن.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم:

---

(١) حديث حسن رواه أحمد (٦/٩) وأبو داود (٥١٠٥) والترمذي (١٥١٤) والحاكم (٣/١٩٧) والبيهقي في السنن (٩/٣٠٥) والطبراني (٣/٣٠) والطيالسي (٩٧٠) كلهم من طريق عاصم عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه.

(٢) سنده حسن رواه الطبراني (٣/٣٠) وابن الجعد (٣٣٤) وأحمد (٦/٣٩٠) من طريق شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن علي بن الحسين عن أبي رافع.. ورواه أحمد بمتابعة شريك تابعه أبو النضر.. وهذا الإسناد حسن من أجل ابن عقيل. انظر التقريب (١/٤٤٧).

(٣) صحيح الجامع (٢/٨٣٥).

(إن رسول الله ﷺ عقّ عن الحسن)[1] (كبشين)[2].. ووقت العقيقة الأفضل هو قوله ﷺ: (العقيقة تذبح لسبع، أو لأربع عشرة، أو لإحدى وعشرين)[3] وفي يوم جميل بالحَسَن أكل الفقراء وأهل الصفة من العقيقة.. وشاركوا النبي وأهل بيته الاحتفاء بالحسن.. أما الحسن رضي الله عنه فقد أرضعته أمّه فاطمة.. ثم بعث به ﷺ إلى تلك المرأة الصالحة التي رأت في منامها بشرى ولادة الحسن.. بعث ﷺ بالحسن إلى أم الفضل.. وها هي تحدّثنا عن رضاعته.. وعن ضربه وعن حبه.

أم الفضل تضرب الحسن

تقول رضي الله عنها: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رسول الله ﷺ، فجزعت من ذلك فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك. فقال ﷺ: خيراً.. تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم. قالت رضي الله عنها:

فولدت حسناً فأعطيته، فأرضعته حتى تحرك أو فطمته، ثم جئت به إلى الرسول ﷺ، فأجلسته في حجره فبال، فضربت بين كتفيه. فقال ﷺ:

ارفقي بابني رحمك الله -أو أصلحك الله- أوجعت ابني. قلت: يا رسول الله اخلع إزارك والبس ثوباً غيره حتى أغسله. قال ﷺ:

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود (٢٨/١) عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، والنسائي عن حسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه (١٦٤/٧) والحاكم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٢٦٥/٤) وأبو يعلى عن أبي الزبير عن جابر (٣٢٣/٥) وعن جرير عن قتادة عن أنس (٤٤١/٣) وغيرهم.

(٢) حديث صحيح عند الحاكم وأبي يعلى.

(٣) صحيح الجامع (٧٥٩/٢).

إنما يغسل بول الجارية، وينضح بول الغلام)[1]، يرشّ بول الصبي إلاّ إذا صار يأكل الطعام، عند ذلك يغسل بوله.. والحسن ما زال رضيعاً.. ينعم بقلب جده ﷺ وقبلاته وأحضانه.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ يمصّ لسانه أو شفته -يعني الحسن بن علي صلوات لله عليه- وإنه لن يعذب لسان أو شفتان مصّهما رسول الله ﷺ)[2].

ذلك الطفل البريء.. ذلك البرد الطهور.. الحسن بن علي رضي الله عنه ملأ قلب النبي ﷺ وملكه.. تمرّ الأيام فيكبر.. ويزداد شبهه بالنبي ﷺ.. فيقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي)[3].. يكبر الحسن ويكبر حبّه بين حناياه ﷺ.. فيقول البراء رضي الله عنه: (رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه يقول: اللّهمّ إني أحبه فأحبه)[4]، ويبدأ الحسن يلثغ بالكلمات.. يتعثّر في نطقها.. يقلّبها.. يعبث لسانه الصغير بأحرفها فيزداد حسناً وبهاءً.. ويبدأ الخطو واللعب ويخرج إلى الطريق ليلعب مع الأطفال.. فيراه والده وأبو بكر رضي الله عنهما وهما يمشيان.. فيسرع إليه أبو بكر ويأخذه من فوق

---

(١) سنده حسن وهو حديث أم الفضل السابق.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٩٣/٤) حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا حريز عن عبد الرحمن ابن أبي عوف الجرشي عن معاوية: هاشم بن القاسم ثقة ثبت - التقريب (٣١٤/٢) وحريز أوثق منه التقريب (١٥٩/١) والتهذيب (٢٣٧/٢) وعبد الرحمن بن أبي عوف تابعي كبير ثقة - التقريب (٤٩٤/١).. ولك أن تتصور مدى الأمانة العلمية لدى رجال هذا السند رغم سلوكيات بعضهم تجاه علي رضي الله عنه.. فمعاوية حاربه.. وحريز ناصبي ومع ذلك يأبى عليهم إيمانهم وصدقهم أن يخفوا مثل هذا الخبر.. وهي شهادة لعلم الجرح والتعديل الإسلامي ونقاده رحمهم الله - في التوثيق والجرح ومدى دقتهم في ذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٥٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٤٩).

الأرض ليجعله فوق عنقه ويدلي قدميه الناعمتين على كتفيه.. ويفديه بأبيه ويردّد كلمات تضحك والده علياً.. يقول أحد الصحابة الذين شاهدوا حب أبي بكر للحسن:

(صلّى بنا أبو بكر العصر، ثم قام وعلي يمشيان، فرأى الحسن يلعب مع الغلمان، فأخذه أبو بكر، فحمله على عنقه، وقال:

بأبي شبيه النبي ليس شبيهاً بعلي

وعليّ يبتسم)[1] (ويضحك)[2].

ولا يلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك.. إنه ابن حبيبه وصاحبه ونبيّه.. وحبّه من الإيمان وأبو بكر متضلع بالإيمان وحب آل بيته وحب هذا الطفل الجميل.. أبو بكر يفعل ما كان ﷺ يفعله بالحسن.. يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: (رأيت النبي ﷺ واضعاً الحسن على عاتقه «وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»: وقال: من أحبني فليحبه)[3] لم يكن الحسن فوق عاتق النبي ﷺ.. كان يحتل قلبه وجسده ومشاعره.. ها هو رجل من الأزد يبلغ الدنيا وصية نبيّه ﷺ وهو يحتضن الحسن داخل حبوته.. فيقول: (أشهد لقد رأيت رسول الله ﷺ واضعه في حبوته وهو يقول: من أحبّني فليحبه، وليبلغ الشاهد الغائب)[4].. ولم يقتصر الطفل

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٢٤٩) بسند البخاري وهو عند البخاري (٣٥٤٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٤٢).

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود الطياسي (٧٣٢) واللفظ له والترمذي (٣٧٨٣) والزيادة له عن شعبة عن عدي بن ثابت سمعت البراء.. وعدي ثقة من رجال الشيخين - التقريب (٢/١٦).

(٤) سنده صحيح رواه البخاري - خلق أفعال العباد (ص) (٩١) والحاكم (٣/١٩٠) وأحمد (٥/٦٦) من طريق شعبة عن عمرو بن مرة سمعت عبد الله بن الحارث يحدث عن زهير =

البريء على اقتحام قلبه ﷺ بل تجاوزت براءته كل ذلك فصار يقتحم على جده ﷺ صلاته.. ها هو الحسن يدخل على جدّه وهو يصلّي بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة رضي الله عنهم.. يركض الحسن.. يلهو داخل المسجد يتّجه نحو جده ﷺ فيقفز على ظهره الشريف.. ويمتطيه كفارس مغوار.. فماذا فعل ﷺ؟.. وما هو رد والده وبقية الصحابة على لهو ذلك الطفل واقتحامه عالم النبي ﷺ وهو خاشع مع ربه.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رسول الله ﷺ كان يصلّي فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه، فيرفع رسول الله ﷺ رفعاً رفيقاً لئلا يصرع -فعل ذلك غير مرة- فلما قضّى صلاته، قالوا: يا رسول الله رأيناك صنعت بالحسن شيئاً ما رأيناك صنعته. قال ﷺ: إنه ريحانتي من الدنيا)[1].

فتعلم الصحابة أن الطفولة عطر جذاب.. وبراءة لا تقاوم.. منحها الإسلام مساحة من الحب والرحمة والتسامح.. مساحة فسيحة.. فسيحة تمتّع بها الحسن ونعم فيها بطفولته وعفويّته.. وتمتع بها أطفال المسلمين من بعده.. و..

= ابن الأقمر عن الرجل الأزدي وهذا سند صحيح: زهير تابعي ثقة وليس كما قال الحافظ: مقبول.. (٤٦٥/٢) وتلميذه ثقة: التهذيب (١٨٢/٥) وعمرو بن مرة أوثق من الاثنين (٧٨/٢) ويشهد للحديث ما قبله.

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٥١/٥) وابن حبان (٤١٨/١٥) والطبراني (٣٤/٣) من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن أخبرني أبو بكرة.. وفي هذا السند مدلسان الحسن ومبارك.. رحمهما الله أما الأول فصرح بالسماع من أبي بكرة رضي الله عنه وأما مبارك فقد توبع عند الطبراني (٣٤/٣) تابعه إسماعيل بن مسلم فإن كان العبدي فهو ثقة، وإن كان المكي فهو ضعيف.

وتتّسع الرحمة.. رسول الله ﷺ هذه المرة لا يـذهب إلى المسـجد وحده.. بل يحمل حفيده معه وهو يعلم ما قد يفعل الطفل أثناء الصلاة.. أحد الذين رأوا ورووا تلك القصة المفعمة بالطفولة والعبـادة يتحـدّث إلينا.. صحابي اسمه شداد يقول: (خرج علينا رسول الله ﷺ في إحـدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً[1]، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبّر للصلاة، فسجد بين ظهراني صلاته سجدةً أطالها.

فرفعت رأسي، وإذا بالصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهـو سـاجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال النـاس: يـا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدةً أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك. قال ﷺ: كل ذلك لم يكن، ولكـن ابـني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته)[2]، إنها رحمة يشعر بهـا ﷺ ويجعل أصحابه يشعرون بها.. تقول عائشة رضي الله عنها: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: أَوَ أملك لـك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[3].

و(قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقـرع بـن حـابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلـت منـهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم)[4].

---

(١) أو حسيناً كما جاء في النص وفعلت ذلك من أجل السياق.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد (٤٩٣/٣) والنسائي (صحيح الألباني - ٢٤٦/١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٨).

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٩٩٧).

ورسول الله ﷺ يقول عن نفسه: (إنما أنا رحمة مُهداة)[1].. فهل هناك أجمل من الرحمة.. ومن الهدية.. لقد كان بين أضلاعه قلب كالنسيم البارد خلال القيظ والهجير.. كان قلبه مطراً لذيذاً على شفتي صحراء تتلمظ عطشاً.

ذات يوم وبينما كان ﷺ يخطب أصحابه على منبره.. إذا به يذهل عن خطبته وعن الناس من حوله.. بل وعن نفسه.

الرحمة تذهله ﷺ

عبد الله بن عمر بن الخطاب رأى وسمع ما حدث.. يقول رضي الله عنه:

(رأيت رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس، فخرج الحسن بن علي رضي الله عنه في عنقه خرقة يجرّها، فعثر فيها، فسقط على وجهه فترل رسول الله ﷺ عن المنبر يريده، فلما رآه الناس أخذوا الصبي فأتوه به، فحمله فقال:

قاتل الله الشيطان، إن الولد فتنة، والله ما علمت أني نزلت عن المنبر حتى أوتيت به)[2]، ولم تكن الرحمة للحسن وحده.. كانت هناك طفلة

---

(١) حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير (١/٤٦٣).

(٢) سنده قوي، رواه الطبراني (٣/٣٥) حدثنا عبد الله بن علي الجارودي، حدثنا أحمد بن حفص، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عباد بن إسحاق، عن زيد بن أبي العتاب، عن عبيد بن جريج عن ابن عمر.. وعبيد وزيد تابعيان ثقتان من رجال التقريب، وعباد بن إسحاق صدوق واسمه عبد الرحمن انظر التهذيب (٦/١٣٧) وإبراهيم ثقة من رجال الشيخين - التقريب (١/٣٦) وأحمد ووالده صدوقان من رجال البخاري انظر: التقريب (١/١٣-١٨٦) وشيخ الطبراني حافظ من أئمة الأثر أثنى عليه الحاكم والناس انظر: البلغة لفضيلة الشيخ حماد الأنصاري حفظه الله (١٩٤).

تنافسه.. وردة اسمها «أمامة» بنت ابنته زينب رضي الله عنها.. كانت أمامة ملء سمعه وبصره.. حتى أنه كان يأخذها معه إلى المسجد وهو يريد الصلاة بصحابته رضي الله عنهم.. يقول أحدهم وهو «أبو قتادة»:

(خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلّى، فإذا ركع وضع، وإذا رفع رأسه رفعها)[١]، (فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها)[٢].. يفعل ذلك أثناء صلاته بالمؤمنين.

ولم تكن تلك الرحمة والملاطفة منه ﷺ لأولاده فقط، بل كان يشمل بها أبناء المسلمين.. ها هو يزور دار أحد الأنصار.. دار الربيع بن سراقة الخزرجي، فيجد طفلاً صغيراً اسمه محمود.. فيبدأ ﷺ بملاطفته وملاعبته.. تناول ﷺ دلواً.. ثم ملأ فمه الطاهر بالماء ثم اقترب من الصغير فطشّ الماء في وجهه.. حركة تثير الضحك والركض والاختباء البريء لدى الأطفال.. حركة تجلب السعادة.. مازال محمود يذكرها ويذكر الناس بها، وهو يقول:

(عقلت من النبي ﷺ مجّة مجّها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين)[٣] (مجها رسول الله ﷺ من دلو في دارنا)[٤].

قد يفعل الرجل هذا مع أبنائه وبناته.. فهل يفعل حاكم أو عالم أو وجيه مع أطفال غيره.. ماذا سيقول الناس عن ذلك.. ماذا سيقول الجهل عن ذلك.. لكن محمداً ﷺ فعل ذلك مع ذلك الطفل (من بئر في دارهم)[٥].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٦).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٧).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٦٤٢٢) ومسلم.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١١٨٥). حديث صحيح رواه البخاري (مشكاة المصابيح - ٣/١٦١٧).

بل لقد بلغ به التواضع والرحمة أعماقاً وآفاقاً بعيدةً.. بعيدة.. تعال معي إلى هذا المشهد المضحك المبكي في طرقات مدينة النبي ﷺ.. مشهد لـ

النبي ﷺ والإماء والمعاقين

حيث نرى النبي ﷺ يمشي في الطرقات تقوده أمةٌ أو امرأة في عقلها شيء.. دون أن ينهرها.. أو يطالبها بالتوقف أو يطالب أهلها بردعها عن مجلسه.. كان يجعل لها من قلبه ووقته نصيباً كالآخرين.. يقوم من مجلس قد يجلس فيه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي إلى امرأة في عقلها اضطراب.. يستمع إليها وينصت حتى تنتهي وتقضي حاجتها.. يقول أنس رضي الله عنه:

(كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت)[1]، ويقول رضي الله عنه: (إن امرأة كان في عقلها شيء فقالت:

يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: يا أم فلان.. انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها)[2].

كان ﷺ جنّة من المشاعر.. ينعم بها الجميع، حتى ضعاف العقول.. حتى العصافير والطيور.. كان ﷺ جدول حب يشرب منه الجميع.. فيرتوون. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنّا مع رسول الله ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٦).

في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولده؟ ردوا ولدها إليها.

ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال ﷺ: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلاّ رب النار)[1].. كان ﷺ يتغيّر وجهه ويتألم لمنظر الفقراء.. فلا يقرّ له قرار حتى يذهب ما بهم.. فإذا لم يجد سوى الكلمات بذلها يريح بها نفوسهم ويقوّيهم بها.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (كنّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاء قوم عراة، حفاة، متقلّدي السيوف، عامتهم من مضر -بل كلّهم من مضر- فتغيّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلّى ثم خطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾)[2]، و﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ﴾[3].

تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقّ تمرة.

فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفّه تعجز عنها -بل لقد عجزت- ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من

---

(١) حديث صحيح: انظر: صحيح سنن أبي داود (٣/١٦١٨).

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٨.

أجورهم شيئاً، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً)[1]، أي من أحيى سنة من سنن الإسلام، ودلّ عليها فله ذلك الأجر.. ومن ابتدع في الإسلام سنة لم يأت بها النبي ﷺ فعليه ذلك الوزر المخيف.. ويقول ﷺ: (من دلّ على خير فله مثل أجره فاعله)[2]، و(من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)[3].. وكانت تلك الصدقات سنة حسنة تهلّل وجه النبي ﷺ عندما رآها.. لأن الجوع والعري سوف يتراح عن أولئك المساكين.. الذين أحسّوا بالحياة تسري في عروقهم من جديد.. لكن الرحمة أحياناً تستغل.. يستغلها الأوغاد واللئام.. وذلك لا يعني أن يتوقف تدفقها للتوقعات والظنون.. رحمته وكرمه ﷺ متدفقة دون توقف.. حتى مع الخونة إلى أن يظهروا الخيانة ويمارسوها جهاراً كما في هذه القصة:

قصة أولها رحمة وآخرها جحيم

مجموعة من اللصوص من عكل وعرينة.. مجموعة من الأوغاد سمعوا برحمته ﷺ.. وبشفقته على أصحابه وعلى الناس جميعاً.. فظنّوا أن بإمكانهم استدرار رحمته واستدراج طيبته ثم الضحك عليه بعد نوال عطائه.. جاء هؤلاء إلى المدينة، أظهروا الإسلام (وبايعوه ﷺ)[4] لكن حمى المدينة أصابتهم.. شَمَلهم ﷺ بقلبه وكرمه قالوا: (يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة)[5] (فقال لهم رسول

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٠١٧) الزكاة والنسائي (الصحيح - ٥٣٩/٢).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٩٣).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٩٧).

(٤) حديث صحيح - رواه مسلم - القسامة.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢) ومعنى استوخموا أي لم يوافق مناخها أجسادهم.

الله ﷺ: إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة، فتشربوا من ألبانها وأبوالها)[1] (فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ[2]، وراعٍ، أمرهم فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها)[3] (فانطلقوا، فشربوا من أبوالها وألبانها حتى صحوا وسمنوا)[4] (فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا النعم)[5] و(سملوا أعين الرعاء)[6] أي فقأوا عينيه بالحديد. (فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم)[7] (فجاء الخبر في أوّل النهار، فبعث ﷺ في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم، فأمر بقطع أيديهم، وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وألقوا في الحرّة، يستسقون فلا يسقون)[8] (ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا)[9].. ما هو ذنب ذلك الراعي المسكين الذي اعتنى بهم وبصحتهم.. سقاهم ومرّضهم وأطعمهم.. فكان جزاؤه أن فقأوا عينيه ثم قتلوه.. إن فقأهم لعيني الراعي قبل قتله دليل على توغّل الإجرام والحقد في نفوس أولئك المجرمين الأنذال.. الذين جمعوا كل صفات الخسّة والدناءة.. كفروا وقتلوا ومثّلوا وخانوا وسرقوا.. فكان عقابهم شرساً بحجم جريمتهم.. إن أمثال هؤلاء الرعاع والجهلة وقطاع الطرق يشكلون خطراً على كل أرض يطأونها بأقدامهم.. ولا يمكن أن يوقف نزيف

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٦٧١) القسامة.

(٢) الذود هو القطيع من الإبل.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٣).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم –القسامة (١٦٧١).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(٩) حديث صحيح رواه مسلم –القسامة (١٦٧١).

الخوف والدم الذي يسفكونه سوى السيف البتّار.. أمثال هؤلاء يغريهم ضعف الضعيف.. وحلم الحليم وتسامح الكريم.. فينشرون من خلال ذلك الرعب في قلوب الحجاج والتجار والمسافرين.. وربما أغرى هؤلاء الأجلاف ذلك الإنكسار الذي حدث للمؤمنين في غزوة أحد.. وربما كانوا طلائع خيانة واستكشاف لمجرم قابع في عرنه يجمع جيشاً لاقتحام المدينة ونهبها.. مجرم يثير القشعريرة.. اسمه خالد بن سفيان بن نبيح يقود بني لحيان.. علم ﷺ بذلك المخطط.. لكنه فكّر بطريقة آمنة يتخلّص فيها من حرب ضروس بطعنة واحدة.. يحقن فيها دماء جيوش تحتاج إلى دمائها ورجالها.. فكّر ﷺ بـ:

اغتيال خالد بن سفيان

وقع اختيار رسول الله ﷺ على فارس مغوار يختصر المسافات والأحداث.. يجمع الجيوش والآلام والنواح بطعنة واحدة..

وقع اختياره ﷺ على فارس يدعى عبد الله بن أنيس.. فتعالوا إلى الأحداث والحديث.. وفارسنا الذي يقول:

(دعاني رسول الله ﷺ، فقال:

إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة، فأته فاقتله. قلت: يا رسول الله، انعته[1] لي حتى أعرفه. قال ﷺ: إذا رأيته وجدت له قشعريرة [قلت: والذي أكرمك ما هبت شيئاً قط]، فخرجت متوشحاً سيفي، حتى وقعت عليه بعرنة «مع ظعن[2] يرتاد لهن

---

(١) أي صفه لي.

(٢) نساء.

متزلاً»، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت لــه ما وصــف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصلّيت وأنا أمشي نحــوه، أومــئ برأســي الركوع والسجود.

فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا. قال: أجل، أنا في ذلك [قلت: بــاغي حاجة فهل من مبيت؟ قال: نعم فالحق بي] فمشيت معه شيئاً، حــتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركته ظعائنه مكبّات عليه [ثم غشيت الجبال ولجمته حتى إذا ذهب الناس خرجت حتى] قدمت على رسول الله ﷺ، فرآني، فقال: أفلح الوجه. قلت: قتلته يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «صدقت».

ثم قام معي رسول الله ﷺ، فدخل في بيته، فأعطاني عصــا، فقــال: أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس، فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن امسكها. قالوا: أوّلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت:

يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينــك يــوم القيامة، إن أقلّ الناس المتخصرون يومئذٍ يوم القيامــة، فقرنهــا عبــد الله بسيفه)[1].. الذي حطم صنماً وخطراً في دروب المؤمنين.. إن هذا النوع

(١) حديث صحيح عدا ما بين الأقواس الصغيرة... وقد حسن الحافظان ابن حجر وابن كثير رحمهما الله سنده الذي عند أحمد وأبي داود وهو سند ضعيف... وبقية الحديث هو: فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعاً، والحديث عند أحمد (٤٩٦/٣) والطبراني (مسند العبادله - ٧٦) وأبي داود (١٢٤٩) مختصراً. وقد ضــعفه =

من الاغتيال لم يكن باجتهاد فردي.. لم يقم به أحد من أصحابه حماساً وتطوعاً.. وهم قادرون على أكثر من ذلك.. إنها دماء لا يجوز الخوض فيها دون الرجوع إلى النبي -الإمام- النص.. وإلا فإنها ضرب من التهور غير المبرر.

لم يكن عبد الله بن أنيس وحده الذي يبعث في سرية مكوّنة من فرد واحد.. كان هناك من ينافسه.. رجل شديد البأس.. قويّ البنية.. جسور لا يهاب الموت.. يعشق الشهادة.. كان ﷺ يبعثه إلى أعماق قريش.. يتغلغل فيها.. لا ليقتل.. بل لينقذ.. ليخلص بعض أولئك المستضعفين في مكة الذي أبقاهم ذووهم في مكة.. وقهروهم ومنعوهم من الهجرة.. فكانت تلك المهمات:

الإمام الألباني في ضعيف أبي داود (١٢٣) وسنده عند أحمد وأبي داود محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه. لكن ابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه الثقة عند أحمد (٤٩٦/٣) فتبقى مشكلة ابن عبد الله بن أنيس.. وعند رجوعنا إلى التقريب نجد أن الحافظ قال: إن اسمه: ضمرة أو عمرو.. أو دون اسم.. ولكن عندما نرجع إلى سنن البيهقي (٢٥٦/٣) نجد أنه قد سماه بـ عبيد الله.. وهو الأصوب والأصح للتصريح من تلميذه باسمه..

لكن معرفتنا باسمه لا تفي بالغرض.. فالرجل تابعي لكنه لم يوثق فحديثه يحتاج إلى شاهد أو متابعة وقد وجدت هذه المتابعة والشاهد عند الطبراني. حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثني أبي، حدثنا عبد العزيز الدراوردي، عن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن كعب القرظي، قال، قال عبد الله بن أنيس.. وفي هذا السند خطأ فالصواب يزيد بن عبد الملك بن الهاد وهوتابعي ثقة وكذلك محمد بن كعب القرظي وسائر رجال السند ثقات وهو متصل انظر: التقريب (٣٤/١ - ٥١٢) (٢٠٣/٢-٣٦٧) وشيخ الطبراني ثقة انظر: مجمع البحرين (١٥٥/٣) ورواية الدراوردي ليست عن عبيد الله العمري.

فالسند حسن والحديث صحيح بالسندين والزيادات بين المعقوفين من رواية الطبراني.

سرايا لمرثد بن أبي مرثد

وكان لمرثد رضي الله عنه صديقة في مكة.. ينزل عليها سرّاً.. كان يحبها وتحبه وتحفظ سره وعلاقته بها.. اسمها: (عناق).. لكن أمراً حدث في المدينة أثار غضب تلك الحسناء.. فخانت مرثد ونادت قريشاً لكي يحاصروه ويقبضوا عليه.. فماذا حدث لمرثد بن أبي مرثد.

يقول أحد الصحابة: إن (مرثد بن أبي مرثد، كان رجلاً «شديداً» يحمل الأسرى من مكة، حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغيٌّ بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وأنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحتمله، قال مرثد:

فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط، من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق، فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط، فلما انتهت إليّ عرفتني فقالت: «من هذا» مرثد؟ فقلت: مرثد. قالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبِتْ عندنا الليلة «انطلق الليلة فبت عندنا في الرحل».

حرم الله الزنا

قلت: يا عناق، حرّم الله الزنا، «إن رسول الله ﷺ حرم الزنا».

قالت: يا أهل الخيام، «هذا الدلدل، هذا الذي يحمل أسراءكم من مكة إلى المدينة».

فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة[1]، فانتهيت إلى غارٍ أو كهف، فدخلت، فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا، «فطار بولهم علي»، فظلّ

---

(١) جبل عند أحد مداخل مكة.

بولهم على رأسي، وعمَّاهم الله عني. ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي، فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر، «فلما انتهيت به إلى الأراك» ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟

«فسكت عني»، فأمسك رسول الله ﷺ ولم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك.. فلا تنكحها[1].

لأنها تحترف الزّنا وتصرّ عليه.. أما إذا تابت الزانية وتاب الزاني وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة.. فيجوز عند ذلك.. أمّا إذا لم يتوبوا فهم أمراض متنقلة.. تنخر الأجساد والمجتمعات..

إذاً فهناك رجال يمكن الاعتماد عليهم للقيام بمهام خطيرة ودقيقة.. والنبي ﷺ لم يتردّد في بثّهم هنا وهناك.. فالمدينة في خطر.. والدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى دولة قوية وذكية لنشرها.. كان لمرثد دور.. وكان لعبد الله بن أنيس دور آخر.. وللذين داخل المدينة أدوار يؤدّونها تحت قيادة هذا النبي الحكيم.

---

(١) سنده حسن رواه النسائي (الصحيح - ٣٠٢٧) والترمذي (الصحيح - ٣٥٣٨) واللفظ له والزوائد للنسائي.. من طريق عبيد الله بن الأخنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.. وعبيد الله بن الأخنس أبو مالك النخعي، ثقة قاله الأئمة: أحمد وابن معين وأبو داود والنسائي، وانظر: التهذيب. والتقريب (١/٥٣٠) وبقية السند حسن أي عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده وهو سند معروف.

في إحدى هذه المهمات أراح النبي ﷺ دولته وأصحابه من فتنة عمياء.. ومن حرب قد تكون فادحة الخسائر.. وأراح بني لحيان من كارثة قد تحلّ بهم على يد قائدهم المتهور خالد بن نبيح.. لكن النبي ﷺ لم يكتف بهذه السرية ذات الفارس الواحد والفذّ.. فقريش وبنو لحيان وبعض القبائل أغراهم ذلك الانكسار الذي حدث للمسلمين في أُحُد.. لذلك لابدّ من الحذر واليقظة.. لابدّ من دراسة المنطقة والتعامل معها بحرص فقد يكون فيها أكثر من خالد بن نبيح..

هناك مناطق توتّر مخيفة بين مكة والمدينة.. أشدّها تلك التي تسكنها هذيل تلك القبيلة التي ينتمي لها بنو لحيان.. ويسكنها بجوارهم بني سليم.. وإليها ينتمي بطون: رعل وذكوان وعصية.. وهؤلاء جميعاً يسكنون قريباً من مكّة.. وقد تمّ القضاء على إحدى بؤر التوتّر وهو خالد بن نبيح..

لكن بقي من هو أشدّ خطورة منه.. بقي طاغوت من غطفان اسمه: عامر بن الطفيل.. هذا الطاغوت كان وقحاً لدرجة أنه جاء إلى المدينة يهدد النبي ﷺ إذا لم يرض بمطالبه.

عامر بن الطفيل يهدد النبي ﷺ

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه وهو يتحدّث عن عامر بن الطفيل: (كان رئيس المشركين عامر بن الطفيل، وكان أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال:

أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر. أو:

أن أكون خليفتك من بعدك. أو:

أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء)[1].

رفض ﷺ تلك المطالب الطاغوتية.. فقد بعثه الله للناس كافةً.. لنشر التوحيد وإزالة الشرك عن هذه الأرض كلها.. وإزالة الطواغيت أمثال عامر بن الطفيل.. ولذلك أخذ ﷺ حذره من ذلك الأهوج.. ومن بني لحيان وبني سليم.. فقام بعقد عهدٍ بينه وبين جيرانهم بني عامر حتى يأمن اتفاقهم عليه أو مساندتهم لقريش إذا ما قامت قريش بعمل عسكري في المستقبل..

لكن ذلك كلّه لا يكفي، فعامر بن الطفيل وأتباعه يحتاجون إلى رصد ومراقبة أكثر.. فالظروف الحالية دقيقة وخطيرة.

وقريش مازالت تحتفظ بقائمة من الأسماء.. لها معها ثأر منذ غزوة بدر.. ولم تتمكن منهم في غزوة أُحُد.. وكان على رأس تلك القائمة عاصم بن ثابت الذي شهد له ﷺ بإجادة القتال في غزوة أُحد.. عاصم.. هذا الأسد.. كان قد فتك بعظيم من طواغيت قريش ورأسه مطلوب بأي ثمن.. والفارس الآخر اسمه: خبيب بن عدي.. وقد اجتثّ خبيب رضي الله عنه طاغوتاً آخر يدعى: الحارث بن عامر بن نوفل.. وهناك آخرون مطلوبون.. لكنني ذكرت هذين الفارسين لأن الرسول ﷺ استدعاهما واستدعى معهما ثمانية من الشجعان.. هؤلاء العشرة كوّنوا سرية استطلاع للمنطقة الواقعة بين مكة والمدينة.. ومهمتهم تغطي أراضي يسكنها بنو لحيان وسليم وبنو عامر.. وأطلق فيما بعد على هذه السرية:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١) والبيهقي (٣/٣٤٥) واللفظ له.

سرية الرجيع

لكن ما علاقة بني لحيان بمن هلك من طواغيت قريش على أرض بدر؟.. أحد الصحابة يجيب ويسرد علينا قصة عاصم قائد هذه السرية وأصحابه، فيقول:

(بعث النبي ﷺ «عشرة رهط» عيناً، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت -وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب- فانطلقوا حتى كانوا «بالهدأة» بين عسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزوّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب. فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما «رآهم» عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد[1]، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً. فقال عاصم «أمير السرية»:

أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللّهمّ أخبر عنا نبيّك. فقاتلوهم حتى قتل عاصماً في سبعة نفر بالنبل[2]. وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها.

فقال الرجل الثالث الذي معهما رضي الله عنه: هذا أول الغدر.

فأبي أن يصحبهم، فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد.. حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل - وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر.

---

(١) الرابية المرتفعة.

(٢) أي قتلوا سبعة من الصحابة أحدهم عاصم رضي الله عنهم جميعاً.

فمكث «خبيب» عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله[1]، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها[2]، فأعارته. قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه[3] حتى أتاه فوضعه في فخذه. فلما رأيته فزعت فزعةً عرف ذلك مني وفي يده الموسى. فقال:

أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف[4] عنب وما بمكة يومئذ ثمرة - وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله «خبيباً».

فخرجوا به من الحرم[5] ليقتلوه «في الحل»، فقال رضي الله عنه: دعوني أصلي ركعتين «ذروني أركع ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين» ثم انصرف إليهم، فقال:

لولا أن «تظنوا» أن ما بي جزع من الموت لزدت «لطوّلتها»، فكان أوّل من سن الركعتين عند القتل هو. ثم قال:

اللّهمّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً.

ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شقّ كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

---

(١) قرروا قتله ثأراً لقتله والدهم الحارث.

(٢) طلب موسى ليحلق بعض شعره.

(٣) مشى الطفل حتى دخل على خبيب والموسى بيده.

(٤) القطف هو العنقود ساعة قطفه.

(٥) كان المشركون يحترمون منطقة الحرم لذلك خرجوا به إلى منطقة الحل.

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله)[1]، لكن عقبة بن الحارث ينكر ذلك ويقول لمن حوله:

(والله ما أنا قتلت خبيباً، لأنا كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله)[2].

ويكمل الصحابي حديثه.. فيقول:

(وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلّة من الدبر[3]، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا «على أن يقطعوا من لحمه شيئاً»)[4].. فكانت كرامة من الله لعاصم رضي الله عنه.. حيث حمى الله جسده الطاهر بسحابة من الزنابير أو ذكور النحل..

وهكذا سافر خبيب وعاصم وزيد ورفاقهم شهداءً إلى ربهم.. لكنها بالنسبة للنبي ﷺ وأصحابه الأحياء مصيبة أخرى بعد أُحُد.. خيانة قام بها بعض بني لحيان كلفت المؤمنين الكثير.. خيانة خسيسة ليست من طباع العرب الكريمة.. تأثر منها المؤمنون واستفادت منها قريش.. وحزّت في أنفس الشرفاء من العرب.. خاصة أولئك الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٨٦) والزيادات عنده أيضاً.

(٢) سنده صحيح رواه إسحاق (سيرة ابن كثير - ٣/١٣١) حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير، عن أبيه عباد، عن عقبة بن الحارث قال: سمعته يقول.. أي أن عباد سمعه من عقبة وعباد تابعي ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ١/٣٩٢) وابنه يحيى ثقة وهو تابعي صغير (التقريب - ٢/٣٥٠).

(٣) أي سحابة من الزنابير أو ذكور النحل.

(٤) هو بقية حديث البخاري السابق.

عهد وهم بنو عامر.. لذلك جاءت مجموعة منهم بقيادة رجل اسمه: عامر ابن مالك.. أبو البراء ويلقب بـ«ملاعب الأسنة».. قدم ملاعب الأسنة من أجل تلطيف الأجواء.. حاملاً معه هدية للرسول ﷺ.. لكن النبي ﷺ كان في حالة حزن على أصحابه.. فعرض الإسلام على ملاعب الأسنة ودعاه إلى الدخول في دين الله.. فرفض.. فرفض ﷺ هديته لأنه مشرك.. فحاول ملاعب الأسنة أن يخفّف عن النبي ﷺ بعض ما في صدره من حزن على أصحابه.. فعرض عليه أن يرسل بعض الصحابة لنشر الإسلام في نجد وتعهّد بحمايتهم والدفاع عنهم.. حتى يطمئن النبي ﷺ أنه لن يصيبهم ما أصاب خبيباً وأصحابه.. ومما دفع النبي ﷺ إلى الموافقة أن رجالاً من أحياء: رعل وذكوان وعصية كانوا قد قدموا مع «ملاعب الأسنة» وتظاهروا بالإسلام وادّعوا أنهم بحاجة إلى مجموعة من الصحابة تعلّمهم القرآن والتوحيد.. بل وتعينهم على أعدائهم..

فاستجاب ﷺ واثقاً بعهد ملاعب الأسنة.. ومصدّقاً أولئك الذين أظهروا الإسلام، وبعث معهم شباباً من الأنصار.. ها هو أحدهم يودع أخته أم سليم.. إنه خال أنس بن مالك واسمه: حرام..

وهؤلاء الشباب الذين معه صفوة من تلاميذ محمد ﷺ.. شباب لا تعرف كيف تصفهم.. هل هم عباد.. أم تجار.. أم علماء..؟ أم عمّال.. إنهم الإسلام في صورة شباب..

يقول كعب بن مالك: (جاء ملاعب الأسنة إلى النبي ﷺ بهدية، فعرض عليه الإسلام، فأبي أن يسلم، فقال النبي ﷺ: فإني لا أقبل هدية مشرك. قال: فابعث إلى أهل نجد من شئت فأنا لهم جارٍ، فبعث إليهم)(١)

---

(١) سنده قوي رواه الطبراني (١٩/٧٠ - ٧١ - ٨١) عن يونس ومعمر والأوزاعي وعن =

شباباً (كنّا ندعوهم على عهد رسول الله ﷺ: القرّاء.. فذكر أنس سبعين رجلاً من الأنصار، كانوا إذا أجنّهم الليل آووا إلى معلم بالمدينة، فيبيتون يدرسون، فإذا أصبحوا فمن كان عنده قوّة أصاب من الحطب، واستعذب من العذب[1]، ومن كانت عنده سعة أصابوا الشاة فأصلحوها، فكان معلقاً بحجر رسول الله ﷺ، فلما أصيب خبيب)[2] (جاء ناس إلى النبي ﷺ «رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان» فقالوا:

أن ابعث معنا رجالاً يعلّمونا القرآن والسنّة، فبعث «إلى ناس من المشركين بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد» سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم:

القرّاء - فيهم خالي حرام - يقرأون القرآن،

ويتدارسون بالليل يتعلّمون،

وكانوا بالنهار يجيؤون بالماء فيضعونه في المسجد،

ويحتطبون فيبيعونه،

ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء،

فبعثهم النبي ﷺ إليهم «حتى كانوا ببئر معونة»)[3] (فأتوا على حي من بني سليم فقال حرام لأميرهم: دعني فلأخبر هؤلاء أنّا ليس إياهم

= الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن كعب رضي الله عنه.. وهذا السند صحيح وقد مر معنا..

(١) أي الماء العذب.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم في مواضع عديدة والطبراني (١/٣٢٣) والبيهقي (٣/٣٤٩) واللفظ له.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧ - وبين ١٩٠٢ - ١٩٠٣).

نريد فيخلون وجوهنا)[1] (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل)[2] (فاستجاش عامر بن الطفيل بني عامر، فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا ملاعب الأسنة، فاستجاش عليهم بني سليم، فأطاعوه)[3] (فانطلق حرام أخو أم سليم ورجلان معه: رجل أعرج، ورجل من بني فلان. قال:

كونا قريباً مني حتى آتيهم، فإن أمنوني كنتم كذا، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم.

فأتاهم حرام فقال: أتؤمنوني أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ. قالوا: نعم. فجعل يحدّثهم، وأمأوا إلى رجل فأتاه من خلفه، فطعنه، فأنفذه بالرمح «فلما وجد حرام مسّ الرمح في جوفه قال: الله أكبر.. فزت وربّ الكعبة»)[4]، ولما سال دمه من جرحه اغترفه بيديه ثم (فقال بالدم هكذا: فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال: فزت ورب الكعبة)[5] (فانطووا عليهم فما بقي منهم مخبرٌ «فلحق الرجل، فقتلوا كلهم إلاّ الأعرج كان في رأس الجبل»)[6] (قتلوهم وغدروا بهم)[7] (قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا رضي الله عنهم:

اللّهمّ بلّغ نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا)[8]، فأنزل الله

(١) هو حديث البيهقي السابق وهو صحيح.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١).
(٣) حديث صحيح وهو حديث الطبراني السابق.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١ - ٤٠٩٢) والبيهقي (٣/٣٤٥) واللفظ له.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٢).
(٦) حديث صحيح وهو حديث الطبراني السابق والزيادة للبخاري (٤٠٩١).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٠).
(٨) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧).

قرآناً يتلى في هؤلاء الشباب الأطهار الأبرار.. فقال تعالى: ﴿إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا﴾[1].

نزلت هذه الآية على النبي ﷺ فحزن حزناً لم يحزن مثله أبداً.. وخيّم الوجوم على المدينة.. على أصحاب النبي ﷺ.. وأحرق الدمع والحزن أجواف الأمّهات والآباء والأبناء.. وبكى أهل الصفة أرحم الناس بحالهم.. بكى أهل الصفة أحبابهم الذين طالما كدحوا وشقوا ليخفّفوا مما هم.. ليمنحوهم بعض السعادة.. هذا قد منحوه ثوباً.. وهذا اشتروا له طعاماً.. وذاك أعطوه فراشاً.. ورابع قدّموا له غطاءً.. وخامس قدموا له حذاءً.. لك أن تتصوّر حجم الفراغ الذي يتركه سبعون بمثل هذا الجمال والحب والسخاء.

أهل المدينة يتذكرونهم عندما يرون تلك القرب التي كانوا يملأونها بالماء لهم على باب المسجد.. فكم من عطشان فقد تلك السحابة. أمّا النبي ﷺ فتوجّه والحزن في عينيه وقلبه إلى أصحابه. فقال: (إن إخوانكم قد قتلوا، وإنهم قالوا:

اللّهمّ بلّغ عنّا نبينا أن قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا)[2].

لقد بلغ به الهمّ والحزن أن فعل شيئاً لم يكن قد فعله من قبل.. كيف لا وهو قد فجع بخبيب وعاصم ومن معهما.. ثم فجع بسبعين من خيرة الشباب الذين سافروا من أجل نشر دين ربهم ورسالة نبيّهم ولا ذنب لهم سوى ذلك.. لقد دعا ﷺ على أولئك المشركين الأنذال شهراً كاملاً في صلواته كلّها.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (قنت رسول الله ﷺ

---

(١) هذه الآية منسوخة وهي في البخاري (٤٠٩١).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧).

شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصبح في دبر كل صلاة إذا قال: سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على أحياء من بني سليم: على رعل، وذكوان، وعصية «وبني لحيان» ويؤمِّن من خلفه)[1]، ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (وذلك بدء القنوت وما كنّا نقنت)[2].

واستجاب الله لنبيّه ﷺ.. فأصيب الطاغية عامر بن الطفيل.. أصيب بمرض عضال وصفه ﷺ بقوله: (غدة كغدة البعير[3]، وسماه ﷺ بـ«الطاعون».. وهو وصف دقيق للطاعون الدبلي الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط وكذا تضخم الطحال)[4]، وهو ما أصيب به عامر بن الطفيل حتى أصبح حبيساً في بيت امرأة من قومه.. أصيب عامر بالطاعون وتلاشت أحلامه بالتملّك على أهل المدن في الجزيرة العربية.. أو خلافة النبي ﷺ.. أما تلك الجيوش التي هدّد النبي ﷺ بها، فقد تحوّلت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة قد ولّى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى ففقد صوابه.. وصرخ بمن بقي

---

(١) سنده جيد رواه أحمد (٣٠١/١) وأبو داود (١٤٤٣) من طريق عبد الله بن معاوية وعبد الصمد وعفان، حدثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وثابت ثقة ثبت (التقريب - ١١٨/١) وشيخه ثقة تغير ولعله وهم في ذكره لصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والذي عند البخاري من رواية أنس وهو الذي روى القصة وعاصرها وصلى مع النبي (ص) تلك الصلوات لم يذكر سوى الفجر.. و«بني لحيان» عند البخاري.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٨٨).

(٣) سنده صحيح رواه الإمام أحمد (١٤٥/٦) من طرق أخبرنا جعفر بن كيسان حدثتنا معاذة بنت عبد الله قالت دخلت على عائشة رضي الله عنها.. ومعاذة تابعة ثقة - التقريب (٦١٤/٢) وجعفر ثقة انظر ذيل الكاشف (٦٢).

(٤) انظر تعليق فضيلة الدكتور: قلعجي على الدلائل (٣٤٦/٣).

حوله.. فقال: (غدة كغد البكر في بيت امرأة من بـــني فـــلان، ائتـــوني بفرسي، فركبه فمات على ظهر فرسه)[1]، هلك ذلك الطاغية كالمجنون.. بعد أن تطاير الناس من حوله متقزّزين.

أما النبي ﷺ فبعد أن مكث شهراً يدعو على عامر والخَوَنــة الــذين غدروا بالمؤمنين.. قرّر ﷺ أن يغزو بني لحيان وبني سليم: رعل وذكـــوان وعصية.. فأعدّ جيشاً ليتحرك نحوهم.. وكان أحد الصحابة يريد صحبته لكنه هذه المرة في حيرة من أمره.. فامرأته ثقيلة.. وهو يريد البقاء معهـــا ويريد مصاحبة النبي ﷺ.. وهي كذلك كانت تصاحب النبي ﷺ في كل غزوة لكن حالتها هذه المرة لا تساعدها على المسير.. فـــ:

ماذا حدث لأم سليم رضي الله عنها

يقول ابنها البار أنس بن مالك رضي الله عنه:

(كانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ.. تخرج معه إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل)[2] (فضربها المخاض واحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق الـــنبي ﷺ، فقال أبو طلحة: يا رب.. إنك لتعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رســـولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى. تقول أم سليم:

يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد، فانطلقا)[3].

انطلق النبي وأصحابه إلى تلك الأرض التي غُدِرَ فيها بأولئك الشباب الأطهار. انطلق ﷺ بجيشه جنوباً إلى تلك الأرض التي تقع بين عســـفان

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٠٩١) والبيهقي واللفظ له (٣/٣٤٦).

(٢) سنده صحيح وقد مر معنا عند الحديث عن الانتفاع بالخمر في أول الكتاب وهو عند أبي داود الطيالسي (٢/١٦٠).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (٢١٤٤) وأحمد (٣/١٩٦).

ومكّة.. أرض بني سليم: رعل وذكوان ولحيان وعصية التي عصت الله ورسوله ﷺ.. فماذا حدث في:

غزوة بني لحيان

يبدو أن بني سليم: رعل وذكوان وعصية.. وكذلك لحيان قد علموا بقدوم النبي ﷺ.. وأدركوا فداحة جرمهم وشناعة خيانتهم للعهد.. وانتهاكهم لحقوق جارهم ملاعب الأسنة.. ورأوا بأعينهم ما حدث لذلك الشيطان الذي عبث بعقولهم من عقاب إلهي.. وأدركوا بركان الغضب الإسلامي الزاحف نحوهم.. فهربوا كحمير مستنفرة فرّت من قسورة.. هؤلاء الخونة يحتاجون إلى من يجرّهم من جحورهم فرداً فرداً.. والنبي ﷺ وجيشه ليس لديهم وقت لهذا..

فالعودة إلى المدينة أنسب في الوقت الحاضر.. لكن لابدّ من التخطيط للقضاء على مصادر الشرّ والجريمة المحيطة بالمدينة.. لابدّ من تأديب تلك القبائل التي تتآمر على الإسلام والمسلمين.. فالنبي ﷺ جاء للأرض كلّها.. جاء بالسلام للعالم أجمع.. ولا يجوز حرمان العالم من هذه الرسالة الإلهية بسبب مجرم أو مجرمين من المشركين أو من اليهود..

عاد ﷺ إلى المدينة.. وبعد عودته كان بانتظاره وانتظار صاحبه أبي طلحة خبر سعيد:

أم سليم تلد طفلاً

(أخذها الطلق ليلة قربهم من المدينة، فقالت: اللّهمّ إنني كنت أدخل إذا دخل نبيّك وأخرج إذا خرج، وقد حضر هذا الأمر فولدت غلاماً)[1].

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن زواج أم سليم. رواه الطيالسي (٢/١٦٠).

وكان النبي ﷺ قد قال لأبي طلحة وأنس بن مالك قبل سفره: (إذا ولدت فائتوني بالصبي)[1]، يقول أنس بن مالك: (فقالت لي أمي: يا أنس «انطلق بالصبي إلى رسول الله ﷺ» لا يرضعنه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ، فلما أصبحت احتملته وانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فصادفته ومعه ميسم «وهو يسم إبلاً وغنماً» فلما رآني قال: لعل أم سليم ولدت؟ قلت: نعم. فوضع الميسم[2]، فجئته به فوضعته في حجر النبي ﷺ، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكها في فيه حتى ذابت، «فجعل يحنك الصبي، وجعل الصبي يتلمظ[3]، فقال ﷺ: انظروا إلى حب الأنصار التمر فحنكه رسول الله ﷺ» فمسح وجهه وسمّاه عبد الله)[4] (وكان يعدّ من خيار المسلمين)[5].. عاد الصغير إلى أمه.. واستجاب الله دعوة نبيّه ﷺ لأم سليم وزوجها عندما مات ابنها الأكبر ففعلت أم سليم ما فعلت تلك الليلة..

سعيدة هي أم سليم وسعادتها لا توصف.. سعيدة بزوجها وابنها.. ولا أحد في مثل فرحها إلاّ امرأة تلد مثلها وتفرح أكثر منها.. امرأة رزقت بنتاً يتيمة مات والدها قبل ولادتها.. ومع ذلك فهي أسعد من أم سليم.. إنها:

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن زواج أم سليم. رواه الطيالسي (٢/١٦٠).

(٢) آلة أو حديدة يكوى بها الحيوان لتمييزه.

(٣) يذوقه بلسانه.

(٤) حديث صحيح مر معنا وهو عند مسلم (٢١٤٤) وأحمد (٣/١٩٦) والزوائد للطيالسي (٢/١٦٠).

(٥) ليس من كلام أنس بل من كلام التابعي ثابت البناني.

أم سلمة تلد بنتاً

كانت رضي الله عنها في فترة حداد وهي حامل.. ولما وضعت ابنتها سمّتها زينب.. لكن سعادتها لم تكن في ولادتها فقط.. بل بشيء يحملها من عالم إلى عالم آخر يضفي عليها جلالة ومهابة وكرامة وألقاباً.. عالم تكون فيه حبيبة رجل هو حلم كل امرأة..

فقد استجاب الله لها كما استجاب لأم سليم.. فعند وفاة زوجها أبي سلمة دعت بتلك الدعوات:

(اللّهمّ اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة)[1].

أخبرينا يا أم سلمة ما هي العقبى الحسنة التي وهبك الله وأكرمك بها.

تقول رضي الله عنها:

(لما وضعت زينب، جاءني رسول الله ﷺ، فخطبني، فقلت: ما مثلي ينكح.. أما أنا فلا ولد فيَّ، وأنا غيور ذات عيال، فقال ﷺ:

أنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأمّا العيال فإلى الله جلّ ثناؤه ورسوله.

فتزوّجها ﷺ فجعل يأتيها، فيقول: أين زناب)[2]، أين زينب؟ سؤال يفيض حياءً وأدباً.. سؤال ينضح بالأحاسيس النبوية المرهفة.. تزوّج ﷺ من أم سلمة ومع ذلك فهو لا يصل إليها.. لا يطارحها الغرام.. لأنه صاحب أسلوب راقٍ ومهذب في التعامل مع الآخرين.. كان ﷺ يستحي أن يفرق بين تلك اليتيمة المسكينة وأمّها ولو لدقائق.. كان ﷺ يحول

---

(١) حديث صحيح مر معنا انظر: صحيح النسائي (١٧٢١) وصحيح ابن ماجه (١٤٤٧).

(٢) انظر: تخريجه في الحديث التالي فهو هو.

لحظات الكبت المزعومة إلى أجواء فرح ودعابة يضفيها على تلك اليتيمة «زينب».. وعلى أمّها التي كان يدهشها ويسرّها أن ترى حباً يتسع لها ولأيتامها.. وهم أحوج الناس إلى مثل هذا الإنسان النبي المحب..

ومرّت أيام والرسول ﷺ لم يتذمّر و لم يتغيّر في تعامله مع ربيبته وزوجته.. لكن الخبر وصل إلى عمار بن ياسر رضي الله عنه.. وهو أخٌ لأم سلمة من أمها «سمية» الشهيدة التي قتلها الطاغية الهالك أبو جهل..

علم عمار بحال النبي ﷺ، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أم سلمة.. فأخذ ابنة أخته ليسترضعها في بيته أو عند أحد النساء.. أخذها عمار و(اختلجها)[1]، وقال: هذه تمنع رسول الله ﷺ، وكانت ترضعها، فجاء رسول الله ﷺ فقال:

أين زناب؟ فقالت قريبة ابن أبي أمية - ووافقها عندها[2] - أخذها عمار بن ياسر. فقال رسول الله ﷺ: إني آتيكم الليلة.

قالت: «فقمت» فوضعت ثفالي[3]، وأخرجت حبات من شعير كانت في جرتي، وأخرجت شحماً فعصدته له، ثم بات، ثم أصبح، وقال حين أصبح:

إن بك على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعت[4] لك، وإن أسبع لك أسبع لنسائي)[5] (وإن شئت ثلثت ثم درت. قالت: ثلّث)[1]، فأقام ﷺ

(١) أخذها.

(٢) أي: توافق مجيء النبي (ص) مع زيارة تلك المرأة لأم سلمة.

(٣) هو ما يبسط تحت الرحى عند الطحن.

(٤) أي أقمت عندك سبعة أيام.

(٥) حديث حسن رواه ابن سعد (٩٣/٨) وأحمد (٣٠٧/٣) من طريق: روح بن عبادة وعبد الرزاق حدثنا ابن جريج، أخبرني حبيب بن أبي ثابت، أن عبد الحميد بن عبد الله والقاسم =

ثلاثة أيام عند أم سلمة.. ثلاثة أيام هي أسعد أيام أم سلمة رضي الله عنها.

ثم قال ﷺ: (للبكر سبع، وللثيب ثلاث)[2].. هي مدة إقامة المتزوج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام ﷺ عند أم سلمة ثلاثة أيام سعيدة.. ثم رتّب لها يوماً كبقية زوجاته. وفي تلك الأيام الثلاثة كان يفيض على أم سلمة وعلى يتيمتها الصغيرة حباً ورحمة.. كان اسم زينب الصغيرة «برة».. فغيره ﷺ إلى اسم آخر هو زينب وذلك حالما سمعه:

تغيير اسم برة بنت أبي سلمة

تقول تلك الطفلة اليتيمة رضي الله عنها إن النبي ﷺ:

(دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي برة، فسمعها تدعوني برة، فقال:

لا تزكوا أنفسكم، فإن الله هو أعلم بالبرة منكن والفاجرة، سمّيها زينب.

= ابن محمد حدثاه: أنهما سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن يخبر أن أم سلمة أخبرته.. وأبو بكر ابن عبد الرحمن تابعي ثقة فقيه عابد - التقريب (٣٩٨/٢) وعبد الحميد بن عبد الله المخزومي يحتاج إلى توثيق لكنه متابع في هذا السند تابعه القاسم بن محمد المخزومي وهو مثله في الدرجة انظر: التقريب (١٢٠/٢) والتهذيب (١١٨/٦) وحبيب ثقة فقيه جليل، وابن جريج لم يدلس. وللحديث شاهد بسند ضعيف عند كل من ابن سعد (٩٠/٨) وأحمد (٣١٣/٦) والحاكم (١٧/٤).

(١) حديث صحيح رواه مسلم: ما تستحقه البكر والثيب من إقامة الزوج.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (٩١٩/٢).

فقالت أم سلمة: فهي زينب، فقلت لها: اسمي؟

فقالت: غيّر إلى ما غيّر إليه رسول الله ﷺ)[١].

كان ﷺ يحب الأسماء الجميلة.

علم ﷺ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمّى ابنته «عاصية»، فماذا فعل.. يقول أخوها عبد الله:

(إن رسول الله ﷺ غيّر اسم عاصية، وقال: أنت جميلة)[٢].. فأصبح اسمها جميلة بنت عمر بن الخطاب.. هي جميلة حقاً وأبوها أجمل منها.. ولم يكن ﷺ يغيّر أسماء الأطفال فقط.. بل كان للرجال والنساء والعجائز نصيب من ذلك الجمال.

فقد (ذكر عند رسول الله ﷺ رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: بل أنت هشام)[٣].

و(كان ﷺ إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوّله)[٤] إلى اسم أجمل

---

(١) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في الأدب المفرد (٨٢١) وأبو داود (٤٩٥٣): حدثني محمد بن عمرو بن عطاء أنه دخل على زينب بنت أبي سلمة، فسألته عن اسم أخت له عنده، قال: فقلت: اسمها برة قالت: غير اسمها، ثم ذكرت كلاماً وبقية الحديث..

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) سنده حسن رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥).

(٤) حديث حسن رواه الطبراني (١١٩/١٧) حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي وأبو زيد الحوطي، قالا: حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد قال: قال عتبة بن عبد السلمي: «رضي الله عنه» وقد صحح الإمام الألباني سند هذا الحديث في السلسلة (٢٠٩) فقال: سنده صحيح رجاله كلهم ثقات معروفون وهو يتحدث عن سند الخلال وهو من طريق أبي اليمان.. وهذا الحكم صحيح لولا إشكالية سماع شريح من عتبة فهو كثير الإرسال، حتى لقد قيل لمحمد بن عوف: هل

وألطف.. في هذه الأجواء المنعشة.. أجواء الجمال واللطف والأعراس والأسماء المحبوبة.. تشرق علينا قصة حدثت في بيت عائشة الحبيبة.. حيث كان النبي ﷺ عندها.. والنبي ﷺ إذا كان عند عائشة أو غيرها من زوجاته كان غاية في اللطف والرقّة والتواضع.. بينما كان ﷺ هناك.. جاءت عجوز لا تعرفها عائشة.. تقول رضي الله عنها: (جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ:

من أنت؟

قالت: أنا جثامة المزنية.

فقال: بل أنت حسانة المزنية. كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟

قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

«فقرب إليه لحم، فجعل يناولها، فقلت: يا رسول الله لا تغمر يدك».

فلما خرجت قلت: يا رسول الله.. تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان)[1].

= سمع من أبي الدرداء؟ فقال: لا. فقيل: فسمع من أحد من أصحاب النبي (ص)؟ قال: ما أظن ذلك وذلك أنه لا يقول في شيء من ذلك: سمعت. التهذيب (٣٢٨/٤) لكن الحديث حسن بالروايات الأخرى.

(١) سنده قوي رواه الحاكم (٦٢/١) والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٧/٦) وابن عبد البر في الاستيعاب من طريق: الضحاك بن مخلد حدثنا صالح بن رستم حدثنا ابن أبي مليكة.. وابن أبي مليكة تابعي أدرك ثلاثين صحابياً وهو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة وهو ثقة فقيه - التقريب (٤٣١/١) والضحاك ثقة ثبت التقريب (٣٧٣/١) أما صالح فحسن =

ما أجمل هذا النبي الوفي.. تطلق وجهه لما رأى تلك العجوز.. التي كانت تزورهم أيام خديجة.. وأضاف إلى جمال وفائه جمالاً آخر عندما غيّر اسمها.. نزع عنها ذلك الاسم الثقيل الذي جمع في معناه أشياء كثيرة وكريهة.. فهو يعني الكابوس.. والبليد الذي لا ينهض للمكارم.. والكسلان الذي يتبرّم بالحركة.. غيّره.. استبدله بـ«حسانة».. اسم كالابتسامة.. في بيت النبوة أفراح وأعراس.. يهفو لمثلها شاب حزين.. يرنو إلى غسل ما بداخله من هموم.. شاب مثقل بالمسؤوليات.. لكن الحيرة في اختيار زوجة تشغله.. فهو جديد على مثل هذه التجربة.. ولديه من الأيتام الكثير.. هل يتزوج فتاة صغيرة في مثل سنّ أخواته.. يقضي معها أيام مرح وسعادة.. أم يضحي بسعادته من أجل أخواته المسكينات ويتزوج امرأة سبق لها أن تزوجت.. سبق لها أن كانت ربّة بيت لتعتني بأخواته الصغيرات وبه أيضاً..

سنترك هذا الصحابي ليقرّر.. فنحن على عجلة من أمرنا.. فالرسول ﷺ قرّر أن يتوجّه إلى أرض نجد.. حيث تعدّ له قبيلة غطفان جيشاً لحربه..

تزوّج ذلك الشاب.. ولما دعا داعي الجهاد ودّع زوجته وأخواته ولحق برسول الله ﷺ نحو أرض نجد.. فهو لن يتخلّف عن أي غزوة

=

الحديث، إذا لم يخالف.. توثيقه قوي وجرحه غير مفسر، قال أبو داود: ثقة، وقال الطيالسي وهو تلميذه: ثقة، وقال البزار: ثقة، وقال ابن وضاح: ثقة وقال ابن عدي: عزيز الحديث روى عنه يحيى القطان مع شدة استقصائه وهو عندي لا بأس به ولم أر له حديثاً منكراً، وقال العجلي جائز الحديث.. أما جرحه فقد قال الدارقطني: ليس بالقوي. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم أما ابن معين فقال مرة: ضعيف وقال مرة: لا شيء.. وهو يعني بهذه من ليس له من الحديث إلا القليل.. وهذا الجرح غير مفسر ولا ينهض أمام ذلك التوثيق المعتبر - التهذيب (٣٩١/٤).

يغزوها رسول الله ﷺ بعد اليوم.. فوالده رحمه الله ورضي عنه قد تـــوفي وهو السبب الوحيد في منعه من حضور غزوتي: بدر وأُحُد..

إنه جابر بن عبد الله وهو الآن في مكان يقال له:

ذات الرقاع

مع رسول الله ﷺ حيث تقف أمــامهم حشــود بــني محــارب وغطفان.. ويبدو من المشهد أن حرباً لم تقع بين الطــرفين.. لكــن الوضع متوتّر للغاية.. والأعصــاب مشــدودة.. خاصــة أعصــاب المشركين.. أمّا المؤمنون.. فبعضهم كان في حالة حراسة والــبعض في حالة استرخاء أو نعاس.. أما نبيّ الله ﷺ فقد علق ســيفه بشــجرة ثم نام.. يقول جابر رضي الله عنه:

(أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا بذات الرقاع، وكنّا إذا أتينــا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ)[1] (فلما قفل رســول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فــترل رســول الله ﷺ، وتفرّق الناس في العضاة يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحــت سمرة فعلق بها سيفه. «ثم نام». قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئنا، فإذا عنده أعرابي جالس)[2] من بني محارب..

ماذا يفعل هذا الأعرابي، هل جاء ليعلن إسلامه.. أم جاء ليفــاوض؟ ما قصة هذا الأعرابي.. ولماذا يمسك بسيف رسول الله ﷺ؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٣٦) ومسلم (٨٤٣)، واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٣٥) والزوائد عنده (٢٩١٣).

أعرابي يحاول قتل النبي ﷺ بسيفه

يقول جابر رضي الله عنه:

(قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل، «فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، فترل النبي ﷺ تحت شجرة، فعلق بها سيفه ثم نام»، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث، «فاستيقظ ﷺ وعنده رجل لا يشعر به» حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال ﷺ: الله عزّ وجلّ.

فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ.

قال ﷺ: أتشهد أن لا إله إلاّ الله، قال: لا. ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

فخلّى سبيله، فذهب إلى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس)[1].

إذاً فقد (خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعاً من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضاً، فصلّى النبي ﷺ ركعتي الخوف)[2].

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٣/٣٦٥) والبيهقي (٣/٣٧٦) من طريق: عفان، وعاصم بن علي، وأبو بكر الإسماعيلي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن سليمان بن قيس عن جابر. وسليمان تابعي ثقة (التقريب - ١/٣٢٩) وتلميذه أبو بشر اسمه جعفر بن إياس انظر: التهذيب (٤/٢١٤) وهو تابعي ثقة - التقريب (١/١٢٩) وأبو عوانة ثقة ثبت من رجال الشيخين اسمه: الوضاح بن عبد الله اليشكري. وزوائد الحديث عند البخاري بلفظ آخر (٢٩١٣).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وعلقه البخاري فقال: قال ابن إسحاق سمعت وهب بن =

صلاة الخوف

يقول جابر رضي الله عنه:

(فنودي بالصلاة، فصلّى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا وصلّى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين)[1].

أَمَّهم ﷺ جميعاً و لم يقصر.. لكنه صلّى بهم مرة أخرى في هذه الغزوة وقصر معهم..

صفة ثانية لصلاة الخوف

يقول صحابي (صلّى مع رسول الله ﷺ في يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: إن طائفة صفت صلت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلّى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائماً وأتمّوا لأنفسهم، ثم انصرفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً وأتمّوا لأنفسهم، ثم سلّم بهم)[2].

فصلّى النبي ﷺ ركعتين.. وصلّت كل طائفة ركعتين أيضاً..

كانت غزوة ذات الرقاع حافلةً بالمشاعر لا بالدماء.. حافلة بالمعجزات والكرامات.. لم يكن فيها قتال.. لكن ذلك المكان المسمى

=

كيسان، سمعت جابراً (٤١٢٦) وابن إسحاق لم يدلس ووهب ثقة من رجال الشيخين - التقريب (٢/٣٣٩).

(١) حديث صحيح رواه مسلم عن جابر (٨٤٣).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم عن صالح بن خوات عن أحد الصحابة «صلاة الخوف» (٨٤٣).

بـ: «ذات الرقاع» كان ساحة للخوف والتوتّر.. أخاف الناس بعضهم بعضاً.. ثم تفرّقوا دون دماء[1].. أخاف النبي أعداءه وكسب ثناء بعضهم.. وحقّق ﷺ بجيشه نصراً معنوياً له رصيده في النفوس.. ثم عادوا إلى المدينة والشوق يحملهم.. وكان أشدّهم شوقاً ذلك الشاب «جابر» الذي رقص قلبه طرباً عندما اقترب الجيش من المدينة.. لكن شيئاً كان يعيقه عنها.. يعيقه حتى عن أصحابه.. حتى كان آخر من يسير في الجيش.. لقد كانت في طريق العودة قصة لـ:

جابر وجمله الهزيل

فبينما كان جابر بأحرّ الشوق إلى عروسه.. كان ذلك الجمل لا يبالي بتلك المشاعر.. يبدو أنه كان يستمتع بالراحة ومشاهدة ما حوله من مناظر.. فهو يسير بطريقة مملّة ومزعجة.. شاهد ﷺ ما يحدث

---

(١) أقول ذلك لأنه قد روي بسند ضعيف عند الأئمة: من طريق ابن إسحاق حدثنا عمي صدقة عن عقيل عن جابر، أحمد (٣/٣٤٤-٣٥٩) وأبي داود (١٩٨) والبيهقي (٣/٣٧٩) وابن خزيمة (٣٦) وحسنه شيخنا الفاضل محمد مصطفى الأعظمي حفظه الله ووافقه الإمام الألباني. وحسنه كذلك في صحيح سنن أبي داود: إن امرأة أصيبت من المشركين.. ثم ذكر قصة الصحابيين اللذين أصيب أحدهما بثلاثة أسهم بينما كان الآخر نائماً.. وهذه القصة ضعيفة السند رغم ما سبق لأنها من طريق عقيل بن جابر.. وهو لم يوثق إنما ذكره ابن حبان في ثقاته وسكت وهذا ليس بتوثيق ولذلك قال الحافظ في التقريب (٢/٢٩) إنه «مقبول» أي عند المتابعة.. ولم أجد له متابعاً.. ومما يوحي بضعفه عند الإمام البخاري رحمه الله أنه قال في الفتح - كتاب الوضوء - ٣٤ - : ويذكر عن جابر.. وعلق الحافظ بقوله: عقيل بفتح العين، لا أعرف راوياً عنه غير صدقة، ولهذا لم يجزم به المنصف، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. والذي يبدو لي أن السبب الأول هو الصحيح لأن البخاري ذكر ابن إسحاق وسنده الصحيح في غزوة ذات الرقاع بصيغة الجزم فقال: قال ابن إسحاق. والسبب الثاني بعيد. فبقي السبب الأول نظراً لجهالة حال عقيل رحمه الله.

فتحرك قلبه نحو جابر.. فكانت هذه القصة المنسوجة بالمشاعر والأشواق والمعجزات:

يقول جابر رضي الله عنه:

(خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلّف «على بعير قطوف»[1] «جمل ثفال إنما هو في آخر القوم»[2] «قد أعيى فلا يكاد يسير»[3] حتى أدركني النبي ﷺ، «فمرّ بي النبي ﷺ فقال: من هـــذا؟ قلت: جابر»[4] فقال: ما لك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا. قال ﷺ: أنخه، فأنخته، وأناخ رســـول الله ﷺ «قـــال ﷺ: أمعـــك قضيب؟ قلت: نعم، قال: أعطنيه»[5] أعطني هذه العصا الـــتي في يـــدك، فأعطيته إياها أو قطعت له عصية من شجرة، فأعطيته إياها، فنخسه بهـــا نخسات، «فدعا لـــه»[6]، ثم قال: اركب يا جابر، فركبت «فسار سيراً ليس يسير مثله»[7]، فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة، «فكان من ذلك المكان من أوّل القوم»[8]، فتحدث مع رســـول الله ﷺ فقـــال: «كيف ترى بعيرك»[9]، أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قلت: بل أهبه لك.

---

(١) البخاري (٥٢٤٥). والقطوف هو البطئ.

(٢) البخاري (٢٣٠٩). الثفال هو الثقيل.

(٣) البخاري (٢٩٦٧). يعني أنه يعاني من الهزال والتعب.

(٤) البخاري (٢٣٠٩).

(٥) البخاري (٥٢٤٥).

(٦) البخاري (٢٧١٨).

(٧) البخاري (٢٧١٨).

(٨) البخاري (٢٣٠٩).

(٩) البخاري (٢٣٨٥).

قال: لا ولكن بعنيه. قلت: فسُمْنيه. قال ﷺ: قد أخذته بدرهم. قلت: لا.. إذاً تغبنني يا رسول الله، قال: فبدرهمين، قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية. قال ﷺ: «بعنيه بأوقية. قلت: لا، ثم قال: بعنيه بأوقية. فبعته، فاستثنيت حملانه إلى أهلي»[1]، فقال ﷺ: «ولك ظهره إلى المدينة»[2]، فقلت: أفقد رضيت؟. قال ﷺ: نعم. قلت: فهو لك. قال ﷺ: قد أخذته. «فانطلق بعيري كأجود ما أنت راءٍ من الإبل»[3]، «فلحقني راكب من خلفي فالتفت فإذا أنا برسول الله ﷺ، قال: ما يعجلك؟ قلت: إني حديث عهد بعرس»[4] «فقال لي رسول الله ﷺ: تزوجت يا جابر؟ فقلت: نعم. فقال: بكراً أم ثيباً؟ قلت: بل ثيباً. قال: فهلاّ جارية تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك»[5]، «ما لك وللعذارى ولعابها»[6]، «قلت: يا رسول الله، إن أبي قتل يوم أُحد وترك تسع بنات، كنّ لي تسع أخوات، فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن»[7]، «فتزوجت امرأة تقوم عليهن وتصلحهن»[8] «تعلّمهن وتؤدّبهن»[9]، «امرأة تمشطهن وتقوم عليهن، قال ﷺ: أصبت»[10] إن

---

(١) البخاري (٢٧١٨). أي اشترط جابر أن يسلمه في المدينة.

(٢) البخاري (٢٧١٨).

(٣) البخاري (٥٠٧٩).

(٤) البخاري (٥٠٧٩).

(٥) البخاري (٥٣٦٧).

(٦) البخاري (٥٠٨٠).

(٧) البخاري (٤٠٥٢).

(٨) البخاري (٥٠٨٠).

(٩) البخاري (٢٤٠٦).

(١٠) البخاري (٤٠٥٢).

شاء الله «بارك الله عليك»[1]، «بارك الله لك»[2]، قال ﷺ: أما إنا لو جئنا صراراً[3] أمرنا بجزور، فنحرت، فأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها. فقلت: والله يا رسول الله ما لنا نمارق. قال ﷺ: إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً «الكيس الكيس»[4]، فلما جئنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور «أو بقرة فذبحت فأكلوا منها»[5] وأقمنا عليها ذلك اليوم، «فلما ذهبنا لندخل قال ﷺ:

أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً - أي عشاءً - لكي تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة»[6]، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا، فحدثت المرأة الحديث.. وما قال لي رسول الله ﷺ، قالت: فدونك.. فسمع وطاعة)[7]، تأثرت تلك المرأة الصالحة بذوق رسول الله ﷺ الرفيع.. وأسلوبه الرائع في منح الأنوثة توهجها وعطرها الذي لا يقاوم.. حتى ينهار ذلك الحبيب القادم أمام هذا السحر الحلال.. ويستسلم ذلك المحارب مهزوماً بالحب الطاهر.. وهو الذي لا يستسلم إذا هاجت الحرب والحراب.. ولم يكن ﷺ وحده في رقي الذوق والأسلوب.. زوجاته رضي الله عنهن كن كذلك.. كن نسيجاً من الرقّة والإحساس.. ذات يوم (دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ، فرأينها سيّئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك. قالت: ما

---

(١) البخاري (٦٣٨٧).

(٢) البخاري (٥٠٨٠).

(٣)مكان قريب من المدينة.

(٤) البخاري (٢٠٩٧) (٥٢٤٥).

(٥) البخاري (٣٠٨٩).

(٦) البخاري (٥٠٧٩).

(٧) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: حدثني وهب بن كيسان عن جابر.. ووهب تابعي ثقة من رجال الشيخين - التقريب (٢/٣٣٩).

لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي ﷺ، فذكرن ذلك لـــه، فلقيه، فقال: يا عثمان بن مظعون.. أما لك بي أسوة؟ فقال: يـــا بـــأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل. قال ﷺ: لا تفعل، إن لعينيك عليك حقاً، وإن لجسدك حقاً، وإن لأهلك حقاً، فصلّ ونم، وصم وأفطر «يا عثمان.. إن الرهبانية لم تكتب علينا، أما لك فيّ أسوة؟ أمـــا والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا». فأتتهن بعد ذلك عطرة كأنها عروس. فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)[1] من ودٍّ ووصـــال.. في أجواء يمطر الإسلام فيها حباً وقلوباً.. فما بين

المرأة والرجل

أكثر من الجسد.. إنها أشياء حميمة تجعل للدنيا مذاقاً أجمل.. المـــرأة بالنسبة للرجل -إذا تحضّر بالإسلام- عبق لا ينقطـــع.. ربيـــع في كـــل الفصول.. مطر صيفي.. هل هناك أرقّ من قوله ﷺ لحادي العـــيس ذي الصوت الجميل: (رويدك بالقوارير)[2]..

هل هناك أبهى من قوله: (حبّب إلى من دنياكم النساء والطّيب)[3].

إن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أراد أن ينقطع للعبـــادة صـــياماً

(١) رجال ثقات لكنه مرسل، رواه ابن سعد (٣/٣٩٤) أخبرنا الفضل بن دكـــين، أخبرنـــا إسرائيل وأخبرنا الحسن بن موسى، أخبرنا زهير، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي بردة.. وهذا مرسل إلا إن كان أبو بردة هو الصحابي - وللحديث شاهد بسند صـــحيح رواه عبـــد الرزاق (٦/١٦٧) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة.. وما بين الأقواس الصغيرة هو ما جاء فيه من حديث النبي (ص)..

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦١٦١).

(٣) حديث صحيح رواه الترمذي والنسائي وأبو يعلى وأحمد والحاكم والبيهقي واللفظ له من طرق عن ثابت عن أنس.

وقياماً.. حتى لقد باح للنبي ﷺ بنيّته أن يجري عملية تنقطع بها صلته بالمرأة تماماً.. لكن النبي ﷺ نهاه.. وقال له: (إن الرهبانية لم تكتب علينا)[1].

إذاً فلا رهبانية في الإسلام.. فالرهبانية هناك عند النصارى.. وخلف حصون بني المصطلق وقريظة وغيرهم من يهود.. تعالوا –وقبل أن ننتهي من قصة جابر وجمله – نزور حصون اليهود لنرى مدى علاقتهم بالمرأة في تلك الأيام.. تعالوا نزور:

زريبة للنساء

هذا هو أقل وصف أصف به أماكن تواجد المرأة اليهودية.. أمّا المرأة نفسها عند أولئك القوم فهي أقل رتبة من الحيوان.. أقل رتبة من الخنازير القذرة.. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء غير النكاح، فقالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً من أمرنا إلاّ خالفنا فيه)[2]، ها هو ﷺ مع زوجته أم سلمة رضي الله عنها نائمان فأصابها الدم.. فهل طردها ﷺ من بيته أو من فراشه.. لن أجيب.. أم سلمة ستجيب.. تقول رضي الله عنها:

---

(١) مر معنا.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم –الحيض وأبو داود (٢٣١).

(بينا أنا مع النبي ﷺ مضطجعة في خميصة إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضي، فقال ﷺ: أنفست؟ قلت: نعم. فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة)[1]. أما عائشة فتروي لنا أشياء تغيض اليهود حتى الموت.. فتقول رضي الله عنها: (كان النبي ﷺ يقرأ القرآن ورأسه في حجري، وأنا حائض)[2]، وتقول عائشة: (إنها كانت ترجل رسول الله ﷺ وهي حائض ورسول الله ﷺ حينئذ مجاور في المسجد، يدني لها رأسه وهي في حجرتها فترجله وهي حائض)[3] أي تسرّح شعره.. وناداها ذات يوم لتعطيه السجادة ليصلّي عليها وهو في المسجد وهي حائض.. تقول رضي الله عنها: (قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخمرة من المسجد.

فقلت: إني حائض. فقال رسول الله ﷺ: ليست حيضتك في يدك)[4].

إذاً فالطمث أذى يتخلّص منه جسم المرأة كما يتخلص جسمها وجسم الرجل من البول وغيره..

قد يقول قائل إن اليهود كانوا يعتقدون ذلك ومعهم النصارى.. لكنهم اليوم يدعون إلى تحرير المرأة.. وإلى إعطائها حقوقها كاملة.. فأقول:

لننسَ لدقائق كلام أنس بن مالك السابق.. ولننسَ ما كان يفعله اليهود والنصارى في السابق..

ولنقل إنهم يمثلون أنفسهم فقط ولا يمثلون الدين اليهودي

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٨). ومعنى أنفست: أي هل حضت.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٥٤٩).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (الحيض) والنسائي - (٣٧١).

والنصراني.. لننس ذلك ولنتوجه إلى يهود اليوم ونصارى اليوم الذين أزعجونا وأزعجوا نساءنا حول تحرير المرأة.. والمناداة بحقوقها.. ماذا يقول دينهم الآن.. ماذا يقول كتابهم المقدّس اليوم وبعد ألفي عام من المراجعة والتمحيص والدراسة.. ربما نجد سرّ هذا الضجيج.. أمامي الآن كتابهم المقدس وهو يتحدّث عن المرأة.. فيقول:

(وإذا كان بامرأة سيلان دم من جسدها كعادة النساء:

فسبعة أيام تكون في طمثها

وكل من لمسها يكون نجساً إلى المغيب

وجميع ما ترقد عليه أو تجلس عليه يكون نجساً

وكل من لمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بالماء ويكون نجساً إلى المغيب.

ومن لمس شيئاً مما تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بالماء، ويكون نجساً إلى المغيب.

إن كان فراشها أو ما هي جالسة عليه شيء: فمن لمسه يكون نجساً إلى المغيب.

إن ضاجعها رجل فأصابه شيء من دم الحيض - فكم تتوقعون مدة نجاسته؟ إلى المغيب؟ لا. الكتاب المقدس يقول:

يكون نجساً سبعة أيام.

وكل فراش يستلقي عليه يكون نجساً)[1]، إن معنى هذا الهراء أن الرجل يحيض أيضاً..

---

(١) الكتاب المقدس - اللاويين - شريعة ما يفرزه الجسد - ١٤.

أين هذا الهراء من قول عائشة رضي الله عنها: (كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد[1]، وأنا طامث حائض، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه، لم يعدُهُ[2]، وصلّى فيه، ثم يعود، فإن أصابه منه فعل مثل ذلك غسل مكانه لم يعدُهُ، وصلّى فيه)[3].

بل إن رسول الله ﷺ يصرّ على أن تأكل عائشة وتشرب قبله وهي حائض بل يقسم عليها.. ثم يقوم بحركة تتوهج منها الرقة والحب.. حركة تدخل السرور إلى قلبها ونفسها.. لقد جاء رجل فسأل عائشة رضي الله عنها: (هل تأكل المرأة مع زوجها وهي طامث؟ قالت: نعم، كان رسول الله ﷺ يدعوني فآكل معه وأنا عارك، كان يأخذ العَرْقَ[4]، فيقسم عليّ فيه، فأعترق منه[5]، ثم أضعه، فيأخذه، فيتعرق منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من العرق، ويدعو بالشراب، فيقسم عليّ فيه من قبل أن يشرب منه، فآخذه فأشرب منه، ثم أضعه، فيأخذه فيشرب منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من القدح)[6]، أين هذا من دين اليهود والنصارى الذي يعاملون المرأة كمخلوق من الدرجة العاشرة.. مخلوق نجس.. أنجس من النجاسة نفسها.. كل شيء تلمسه يتنجس.. كل شيء يلمسها يتنجس.. كل من لمس شيئاً لمسته ينجس.. أي أن المرأة لا يمكن أن تبقى في المترل وإلاّ أصبح المترل نجساً ملوّثاً تجوبه الآثام والشياطين.. لابدّ من وضع النساء اليهوديات والنصرانيات في زرائب خاصة نجسة.. حتى ينقطع دم الحيض عنهن..

(١) أي الثوب الذي يلاصق الجسم مباشرة.

(٢) أي يغسل مكان الدم فقط ولا يغسل ما حوله.

(٣) حديث صحيح - انظر صحيح أبي داود (١/٥١) والنسائي (١/١٢٥).

(٤) عظم في لحم.

(٥) آكل منه.

(٦) حديث صحيح.. صحيح سنن النسائي (١/٨٠) ورواه مسلم مختصراً.

لا.. حتى لو انقطع الطمث فانقطاعه لا يكفي للخروج من الزريبة.. لأن كتابهم المقدس يقول:

(وإذا طهرت من سيلانها فلتنتظر سبعة أيام ثم تطهر)[1]، هل يكفي هذا أيّها الكتاب المقدس؟ لا.. فالحيض ليس نجاسة فقط، بل هو ذنب ترتكبه المرأة ولابدّ من تكفيره.. كيف؟ يقول كتابهم المقدس:

(وفي اليوم الثامن تأخذ لها يمامتين أو فرخي حمام، وتجيء بهما إلى الكاهن «العالم المسؤول عن دار العبادة» فيذبح واحدة ويحرق الأخرى ويكفّر عنها الكاهن بعد ذلك أمام الرب سيلان نجاستها)[2]، ترى كم بقي للمرأة من أيام حياتها تعامل فيها كإنسان.. يبدو من كلامهم السابق أن المرأة قذفت من كوكب مليء بالشياطين والنفايات.. دعونا من اليهود والنصارى الآن.. سنعود لهم فيما بعد.. فالأيام حبلى بالمثير والجديد.. سنعود إلى جابر رضي الله عنه: الذي يخرج الآن من بيته قاصداً النبي ﷺ ليسلمه جمله الذي باعه عليه.. لكنه يمرّ على خاله ليسلّم عليه ويخبره ببيعه الجمل، يقول جابر: (فقدمت فأخبرت خالي ببيع الجمل.. فلامني، فأخبرته بإعياء الجمل.. وبالذي كان من النبي ﷺ ووكزه إياه)[3]، ثم توجه جابر نحو بيت رسول الله ﷺ وهو ملاصق للمسجد..

وصل جابر في وقت (دخل النبي ﷺ المسجد في طوائف أصحابه، فدخلت عليه، وعلقت الجمل في ناحية البلاط، فقلت له: هذا جملك)[4] (فقال ﷺ: صلّ ركعتين)[5] وبعد أن صلّى جابر ركعتين

---

(١) الكتاب المقدس -سفر اللاويين- شريعة ما يفرزه الجسد.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٦).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).

(٥) بث صحيح رواه البخاري (٤٤٣).

(خرج ﷺ فجعل يطيف بالجمل، ويقول: الجمل جملنا، فبعث النبي ﷺ أوقية من الذهب، فقال: أعطوها جابراً)[1] (فوزن لي بلالاً فأرجح في الميزان)[2] (قال ﷺ: يا بلال.. اقضه وزده، فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطاً. قال جابر: لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ. فلم يكن القيراط يفارق قراب جابر بن عبد الله)[3]، ثم قال ﷺ: (استوفيت الثمن؟ قلت: نعم)[4] (فانطلقت حتى وليت فقال: ادعوا لي جابراً. قلت: الآن يردّ عليّ الجمل ولم يكن شيء أبغض إليّ منه. قال: خذ جملك ولك ثمنه)[5] (الثمن والجمل لك)[6]، فانطلق جابر بالمال والجمل وحبّ النبي ﷺ.. وبشّر أخواته وزوجته بهذا اللطف والعطف الأبويّ عندما قال له النبي ﷺ: (يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك)[7].. وكما كان هذا الشاب في أوج فرحه اليوم.. فقد جاء إلى النبي ﷺ شاب يوشك أن يخسر زوجته.. اسمه زيد بن محمد

زيد بن محمد ليس زيد بن محمد

هو زيد بن حارثة رضي الله عنه.. اشتراه النبي ﷺ في مكة وأحبه فأعتقه.. وكان قد أخذ من قومه.. فلما علموا بمكانه جاء أخوه «جبلة» إلى النبي ﷺ مطالباً بتسليم أخيه إليه ليردّه إلى أمّه وأبيه وقومه.. يقول

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٠٩٧).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٩).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦٢).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٠٩٧).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).

(٧) هو حديث ابن إسحاق الصحيح السابق.

جبلة: (قدمت على رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، ابعث معي أخي زيداً. قال ﷺ:

هوذا.. فإن انطلق معك لم أمنعه. قال زيد:

يا رسول الله، والله لا أختار عليك)[1].

قال جبلة بعد أن سمع كلمات أخيه الشاب: (فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي)[2].

فبادل ﷺ حب زيد بحب يسير معه أينما سار.. ويُعرَّف به إذا ما رؤي.. لقد وهبه ﷺ اسمه وتبنّاه.. وسمّاه زيد بن محمد بن عبد الله.

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب:

(ما كنّا ندعو زيد بن الحارثة، إلاّ: زيد بن محمد)[3]، ثم زوّجه ﷺ امرأة حبشية صالحة تدعى: «أم أيمن» فولدت له حبيباً آخر لرسول الله ﷺ.. ولدت له: أسامة بن زيد بن محمد.. ذلك الطفل الأسمر العذب الذي دخل على النبي ﷺ ذات يوم وهو في بيت عائشة فـ(أراد النبي ﷺ أن ينحي مخاط أسامة. قالت عائشة:

دعني حتى أكون أنا الذي أفعل. قال ﷺ:

---

(١) سنده قوي رواه الترمذي (٣١٨٥) والحاكم (٣/٢٣٧) والطبراني (٢/٢٨٦) من طريق علي بن مسهر عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي عمرو الشيباني حدثني جبلة.. وأبو عمرو ثقة مخضرم واسمه سعد بن إياس وهو من رجال الستة - التقريب (١/٢٨٦) وإسماعيل تابعي صغير وثقة من رجال الستة - التقريب (١/٦٨) وعلي بن مسهر ثقة من رجال الستة أيضاً - التقريب (٢/٤٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٨٢) والترمذي واللفظ له.

يا عائشة أحبيه فإني أحبه)[1] ولا يكتفي ﷺ بمطالبة عائشة رضي الله عنها بأن تحبه.. بل إنه ﷺ يدعو ربّه أن يحبه.

يحدّثنا أسامة عن أحضانه ﷺ.. عن قبلاته ودعواته لـــه وهو طفل.. فيقول: (كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحســـن ابن علي على فخذه الآخر، ثم يضمّهما، ثم يقول:

اللّهمّ ارحمهما فإني أرحمهما)[2] (اللّهمّ أحبّهما فإني أحبـــهما)[3].. كان ذلك الطفل الأسمر عنبراً في ثياب النبي ﷺ.. إليك ما فعله ﷺ بأسامة بعد أن رأى الدم ينبع من جبهته السمراء الطاهرة..

ماذا فعل لعينيه البريئتين وهما تفيضان بالدمع.. بل

ماذا كان يفعل ﷺ بأسامة لو كان فتاةً

عائشة تجيب عن ذلك كلّه بقصة تأخذ بنياط القلـــب.. ذات يـــوم اشتاق أسامة إلى جدّه محمد ﷺ.. فتهادى إليه في بيت عائشة رضـــي الله عنها.. وعندما همت قدمه الصغيرة بالدخول (عثر أسامة بعتبـــة البـــاب، فشجّ وجهه. فقال رسول الله ﷺ:

أميطي عنه الأذى، فتقذرته. فجعل ﷺ يمصّ عنه الدم، ويمجه عـــن وجهه ثم قال:

لو كان أسامة جارية لحليته وكسوته حتى أنفقه)[4]. تعلمت عائشة الصغيرة الكثير من هذا المشهد.. وتشربت حب هذا الطفل البريء..

---

(١) حديث حسن صحيح الترمذي (٤٠٩٨) وابن حبان (٥٣٤/١٥).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٠٠٣).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٣٥).

(٤) حديث حسن انظر سلسلة الأحاديث للإمام الألباني (٢٠١٩).

أمّا والده زيد بن محمد.. فقد حلاه والده ﷺ بشي أنفس.. لقد زوّجه النبي ﷺ من ابنة عمّته أميمة بنت عبد المطلب واسمها: زينب بنت جحش.. فكان الزواج دليلاً على حبّ ﷺ لزيد.. وعلى تحطيمه ﷺ لقيود الجاهلية التي كانت تعيق وتشوّه تناغم المجتمع الإسلامي ومساواته وتآخيه.. فزيد في نظر المشركين لا يزال عبداً.. لكنه عند المسلمين ابن محمد ﷺ.. وهو في نظر الوثنيين لا يستحق الزواج بزينب.. لا يستحق الزواج إلاّ بأمة.. لكنه عند المؤمنين: حب رسول الله ﷺ.. وهو في عين النبي ﷺ أمير من أمراء الإسلام - وإن طعن من طعن في إمارته - قال ﷺ ذات يوم وهو يتحدث عن أسامة بن زيد: (كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده)(1).

هذا هو زيد في عالم الإسلام وميزانه.. أمّا أولئك الذين يرفضون ميزان الإسلام ويصرّون على التطاول بأنسابهم فقد بشّرهم ﷺ باحتقار شنيع لا يطيقونه.. قال ﷺ: (لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا -إنما هم فحم جهنم- أو ليكونّن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو: مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلّهم بنو آدم، وآدم خلق من التراب)(2) ولئن كان التراب أصلاً للجميع.. ولئن جعل الإسلام زيداً ابناً لمحمد ﷺ.. فقد توهج الإسلام حتى امحت فيه الفوارق.. كل الفوارق.. فكانت هذه القصة.. التي امحى فيها كل شيء بين النبي ﷺ وأحد الشباب الفقراء الذين لا يملكون مالاً ولا نسباً.. ذاب كل شيء بين النبي ﷺ وهذا

---

(1) حديث صحيح رواه البخاري (٤٤٦٩).

(2) حديث صحيح انظر: صحيح الترمذي (٣/٢٥٤).

الشاب حتى تحدث ﷺ عنه.. فظن الناس أنه يتحدث عن نفسه.. شاب ليس له سرير سوى سواعد محمد ﷺ وقلبه

شاب اسمه جليبيب

يتحدث عنه أنس بن مالك فيقول: (كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: جليبيب، في وجهه دمامة، فعرض عليه رسول الله ﷺ التزويج، فقال: إذا تجدني كاسداً، فقال: غير أنك عند الله لست بكاسد)[1].

كان جليبيب ظريفاً يهوى المزاح والدعابة.. لكنه لا يملك المال ولا الجاه ولا النسب.. لكن ذلك كله لا يهم ما دام النبي ﷺ يعتبره جزءاً منه.. ويتحدّث نيابة عنه.. ما دام يملك مساحة في قلب النبي ﷺ.. تحدّث عنها الصحابي الجليل أبو برزة الأسلمي.. فقال:

(إن جليبيباً كان امرأً يدخل على النساء يمرّ بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي:

لا يدخلن عليكم جليبيب، فإنه إن دخل عليكم لأفعلن.. ولأفعلن. وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم[2] لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا.

فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: زوجني ابنتك. فقال:

---

(١) سنده صحيح رواه أبو يعلى (٦/٨٩) حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا ديلم بن غزوان، حدثنا عن ثابت عن أنس.. وثابت تابعي ثقة سمع من أنس وتلميذه سمع منه وهو صدوق - التقريب (١/٢٣٦) وكذلك شيخ أبي يعلى فهو ثقة من رجال الشيخين - السابق (٢/١٤٨).

(٢) فتاة عزباء.

نعم وكرامة يا رسول الله، ونعم عيني. فقال ﷺ:

إني لست أريدها لنفسي، قال: فلمن يا رسول الله؟

قال ﷺ: لجليبيب.

فقال: يا رسول الله أشاور أمّها. فأتى أمّها، فقال رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. فقالت: نعم ونعم عيني. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب.

فقالت: أجليبيب ابنه؟ أجليبيب ابنه؟ أجليبيب ابنه؟ لا لعمر الله لا تزوّجه «ما وجد رسول الله ﷺ إلاّ جليبيباً وقد منعناها من فلان وفلان - والفتاة في سترها تسمع»، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ ليخبره بما قالت أمّها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟

فأخبرها أمّها، فقالت: أتردّون على رسول الله ﷺ أمره؟ «إن كان رضيه لكم فأنكحوه»، ادفعوني إليه فإنه لن يضيّعني «فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال ﷺ: فإني قد رضيته»، قال: شأنك بها، فزوّجها جليبياً)[1]، فزوّجها ﷺ من ذلك الشاب الفقير.. الذي اختارته هي واختاره لها النبي ﷺ.. وهي تعلم أنه لن يختار لها إلاّ ما يحبه الله ورسوله ﷺ.. ولن يختار لها إلاّ ما يسعدها.. واحتجّت تلك الفتاة على شروط أمّها وتحكماتها التي لا تمتّ للإسلام.. واقتنع الجميع رضي الله عنهم بخيار النبي ﷺ.

وأبحر الشابان في أيام بيضاء سعيدة.. حتى جاء ذلك اليوم الذي فزع فيه أهل المدينة واستعدّوا لمواجهة عدوّ.. عندها انسحب جليبيب من

---

(١) حديث صحيح انظر: ما بعده فهو باقيه.

ذراعي حبيبته إلى ذراعي المعركة.. وأخذ سيفه وانطلق خلف حبيبه ﷺ في معركة أحب أن أسميها:

معركة جليبيب

معركة انتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه.. وحاز فيها جليبيب على أشياء ثمينة.. غبطه كل من حوله وهو يحملها في سفره ذلك.. غبطه كل من حوله وهو بين ذراعي النبي ﷺ.. ليت شعري ما الذي أوصل جليبيباً إلى هذا الحب النبوي الجارف.. دعونا نتمشى بقلوبنا بين غنائم جليبيب في تلك المعركة.. يرينا إياها أبو برزة ويصفها فيقول:

(«ثم فزع أهل المدينة فركب جليبيب» فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له، فلما أفاء الله عليه، قال لأصحابه:

هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نفقد فلاناً.. ونفقد فلاناً.

قال ﷺ: انظروا هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا. قال ﷺ: لكني أفقد جليبيباً؟ فاطلبوه في القتلى. فطلبوه، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله.. هاهوذا إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه، فأتاه النبي ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة وقتلوه!

هذا مني وأنا منه.

هذا مني وأنا منه[1].

ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له.. ما له سرير إلاّ ساعدا رسول الله ﷺ، ثم وضعه في قبره)[2]، أمام أعين الصحابة

---

(١) قال الراوي: مرتين أو ثلاثاً.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٤/٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٥): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن

ودموعهم.. السواعد نعش لجليبيب.. والكلمات أكفان كالغمام: هذا مني وأنا منه.. لكني أفقد جليبيباً..

ما أسما هذا النبي وأعظمه.. ما أرقّ مشاعره.. يخطب باسم هذا الفقير الذي يموت في المعركة بعد أن فتك بسبعة.. ومع ذلك لا يأبه له أحد.. لا يذكر إذا ذكر الشهداء.. ولا يفقد إذا فقد الأبطال.. لكن أحضان النبي ﷺ وتجاويف قلبه تفتقده.. لأنه مسلم.. مهما كان نسبه.. مهما كان لونه.. حتى لو ارتحل عن هذه الدنيا دون أن يترك جاهاً أو مالاً..

هل يضر جليبيباً ذلك.. هل يضرّه أن لا يفتقده أحد إذا افتقده محمد ﷺ.. وحمله محمد ﷺ.. وجعل ساعديه له نعشاً وسريراً.. وتوجع بكنز تمنّاه كل من حوله عندما قال: هذا مني وأنا منه.. هذا مني وأنا منه.. أما فتاته التي أحبّته لأن الله ورسوله ﷺ يحبّانه.. لأن رسول الله ﷺ اختاره لها.. فقد بلغها الخبر والحزن.. وبلغ المدينة كلّها ما حدث لجليبيب فأصابها الحزن.. وافتقد بعض البيوت تلك الملاحة والظرف والضحكات التي يثيرها رحمه الله بدعاباته..

ذهب رضي الله عنه وترك لزوجته مجداً لا يبارى.. وجعلها ملء السمع والبصر في المدينة.. حتى قال أنس بن مالك رضي الله عنه بعد أن انتهت فترة حدادها على زوجها:

سلمة، عن ثابت عن كنانة بن نعيم عن أبي برزة وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.. وعفان وثابت من رجال الشيخين. وكنانة تابعي ثقة من رجال مسلم (التقريب – ١٣٧/٢): وحماد إمام معروف وثقة مشهور. من رجال مسلم.

(فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة)[1]، أي أن خطابها كثروا بعد جليبيب حتى صار بيت أهلها من أوائل البيوت التي يتهافت إليه الخطاب.. هذا ما جرى لجليبيب رضي الله عنه..

لكن ماذا عن زيد بن محمد.. فلنعد إلى زيد الذي تزوّج بذات النسب الرفيع زينب بنت جحش رضي الله عنها.. ها هو بيت زيد وزينب.. دخلناه فوجدنا الوجوم يخيّم عليه بعد فترة من الزمن.. القلوب في هذا المنزل الكريم على غير ما يحب رسول الله ﷺ.. لم يكن هناك توافق بين زيد وزينب.. وسبحان مقلّب القلوب والأبصار.. ولا أدري أيّهما الذي كان مباعداً للآخر بشعوره.. هل هو زيد أم زينب.. أم هما جميعاً.. لم يتحمل زيد ما يحدث في صدره وصدر زوجته.. فحمله إلى النبي ﷺ و(جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول:

اتق الله وأمسك عليك زوجك)[2]، قال النبي ﷺ تلك الكلمات والألم يسافر به.. والحرج يحاصره.. قال ﷺ تلك الكلمات بعد أن نزل عليه الوحي بشيء يخص زيداً وزينب ويخصّه هو بالدرجة الأولى.. فقد أخبره الوحي أن زينب زوجة ابنه زيد سوف تصبح زوجته وإحدى أمّهات المؤمنين.. فأخفى ﷺ ذلك الأمر على زيد خشية أن يتأثر ابنه.. خشية أن يلوك المنافقون وضعاف النفوس ذلك الحدث ثم يلفظونه قيحاً في طرقات المدينة وفتنةً في بيوتها.. أخفى ﷺ ذلك لأنه سيحدث لا محالة.. وانصرف زيد إلى زوجته وبيته.. لكن القلوب تسافر دون أن تستأذن أصحابها.. بقي الزوجان على غير وفاق حتى تفاقم الصدع

---

(١) هو جزء من الحديث الصحيح السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).

فأصبح أكبر منهما ومن مترلهما.. فكان الطلاق هو الحل الوحيد.. والمخرج الآمن لحياتهما ومعاناتهما.. فأطلق زيد زينب وطلّقها بعد أن شعر أن البقاء معها شبه مستحيل.. فالإسلام جعل الطلاق بيد الرجل لأنه المكلف بالمهر والنفقة والحماية والرعاية.. والرجل السويّ لا يقدم على الطلاق إلاّ بعد أن يستهلك كل وسائل البقاء الممكنة.. لكن ماذا عن المرأة المسكينة.. هل اضطهدها الإسلام لأنها لا تنفق ولا تدفع مهراً.. هل يرغمها على البقاء في بيت رجل لا تطيقه لهذا السبب فقط.. الجواب قصة هذه المرأة التي تطرق باب النبي ﷺ تبحث عن مخرج كمخرج زيد وزينب.. تطلب ذلك وهي زوجة سيد من سادات الأنصار.. وخطيب من أعظم خطبائهم وبلغائهم.. صاحب خلق ودين.. ليس بالبخيل ولا بالذليل.. اسمه ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري.. لكن زوجته فتّشت داخل قلبها عن مكان له فلم تجد.. لذلك ذهبت إلى النبي ﷺ تشكو ذلك الفراغ الذي يؤرقها مع ثابت.. فهل تستطيع تلك المرأة أن:

تطلق زوجها لأنها لا تحبه

ففي الظلام.. وعندما بدأ الفجر يمزق خيمة ليل ثقيل على امرأة اسمها: حبيبة بنت سهل.. عندما صدع بلال أسوار الليل بالأذان نهضت تلك المرأة من ليلها الطويل الشاحب.. توجّهت نحو الباب وفتحته ثم خرجت مثقلة بالهموم والشكوى.. تاركة البيت وصاحبه.. وبعد خطوات ثقيلة وحزينة توقفت أمام باب كالفرج.. أمام باب كالفجر.. أمام باب النبي ﷺ.. لم تطرق الباب.. بل مكثت تنتظره كي يبدّد ليلها

الطويل.. ثم (إن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح[1]، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس[2]، فقال رسول الله ﷺ: من هذه؟

فقالت: أنا حبيبة بنت سهل. قال: ما شأنك؟

قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس «يا رسول الله إني لا أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه. فقال رسول الله ﷺ: فتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم».

فلما جاء ثابت بن قيس، قال له ﷺ: هذه حبيبة بنت سهل — وذكرت ما شاء الله أن تذكر - وقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي. فقال رسول الله ﷺ لثابت: خذ منها. فأخذ منها، وجلست هي في أهلها «وأمره ﷺ يطلقها»)[3]، فطلقها ثابت رضي الله عنهما.. ولم يستطع إرغامها على العيش معه.. وانتزعت حبيبة حقها في الانفصال والخلع وحق غيرها من النساء من بعدها.. فالزواج ليس سجناً ولا إكراهاً.. إنه حب ومشاركة.. ألفة وود وتكامل.. فإن لم يكن كذلك فإن باب الطلاق وباب الخلع مفتوحان إلى يوم القيامة.. وهذا ما لا يعرفه النصارى حتى اليوم.. فالقسّ في الكنيسة يربط الزوجين برباط يسمّيه رباط الله المقدس.. ثم يقول: إن ما يربطه الله لا يفكّه ابن آدم.. أي أن الطلاق محرم.. والزواج حتى ولو كان فاشلاً لابدّ أن يكون مؤبداً.. وفي ذلك يقول كتابهم المقدس:

---

(١) أي صلاة الصبح.

(٢) أي الظلام.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٥٢٧٥ - ٥٢٧٤) وأبو داود (٢٢٢٧) واللفظ له والزوائد للبخاري.

(أما أنا فأقول لكم: من طلّق امرأته - إلاّ في حالة الزّنا - يجعلها تزني، ومن تزوّج مطلقة زنى)[1].

أي أن المطلقة تعتبر زانية.. ومن تزوّج امرأة مطلقة فهو أيضاً زان.. فلا غرابة أن نرى انتشار الزنا عند النصارى بشكل مخيف ومقزز.. وما دامت المطلقة المسكينة قد حكم عليها الزنا المؤبدّ فلن يغير من الأمر شيء أن تمارسه فعلاً..

أمّا محمد ﷺ فقد أحب المطلقة وتزوجها.. وزوَّجها.. وأفضل زوجاته خديجة تزوجت قبله أكثر من رجل.. وها هو الوحي يخبره بأنه سيتزوج مطلقة زيد.. فرق كبير جداً بين سماحة الإسلام وتطرّف النصارى.. الذين يرون الزواج بالمطلقة زنا.. بل يعتبرون الزواج بالبكر لا يليق بالنصراني المستقيم.. وفي ذلك كتابهم المقدس:

(أبناء هذه الدنيا يتزاوجون، أما الذين هم للحياة الأبدية والقيامة من بين الأموات فلا يتزاوجون، هم مثل الملائكة لا يموتون، وهم أبناء الله)[2].. لا أدري ما هو مصير البشر لو أخذوا بهذه المقولة المتطرّفة.. حقاً إن الدين ليثير السخرية متى ما عبث بكتبه ونصوصه العلماء والعباد.. فحرّفوا وبدّلوا وغيّروا ظناً منهم أنهم يخدمونه.. وهذا ما حدث للتوراة والإنجيل.. اللذين أصبحا مثار سخرية اليهود والنصارى أنفسهم.. الإسلام شرّع الزواج وأشرع أبوابه ونوافذه.. وجعله فسحة للمرأة والرجل ومسؤولية وتلبية لحاجة بشرية ملحة.. ولم يجعله قيداً وسجناً لا يستطيعان الفكاك منه والهرب.. ولكي يبقى الزواج سليماً من النغص

(١) الكتاب المقدس - متى - الطلاق.

(٢) الكتاب المقدس - لوقا - قيامة الأموات.

والنكد والأمراض الجسدية والاجتماعية.. أنزل الله على نبيّه ﷺ تحريم الزنا.. حتى تبقى ساحة الزواج نقيّة طاهرة.. بهذه الأحكام النقية.. وبهذا القرآن العذب والسنّة المطهّرة.. أعاد الإسلام للإنسان توازنه الذي اختلّ على أيدي اليهود والنصارى.. فاليهود حرّفوا التوراة.. فتحوا بين سطورها بيوتاً للدعارة.. والنصارى حاولوا إقفال تلك البيوت بأحكام تحرم الطلاق وتنهى عن الزواج أصلاً.. فبقي الإنسان محتاراً بين قريتين: قرية للرهبان.. وقرية للشيطان.. قد تتساءل فتقول:

كيف فتحت توراتهم بيوت الدعارة؟

افتح التوراة.. تجد الاتهامات القبيحة لأنقى من مشى على الأرض.. وهل هناك أطهر من نبي.. التوراة المحرّفة تقول لليهود.. تقول لشعب الله المختار:

إن إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام زنى بزواجه من أخته من أبيه سارة[١]..

إن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه وأنجب منهما[٢]

إن أحد الأسباط وأكبرهم -ابن يعقوب- واسمه رابين زنى بزوجة أبيه وأم أخوته.. ويطير صوابك عندما تقول التوراة إن يعقوب لما علم دعا لابنه رابين وباركه ومدحه وسماه بالفاضل في العزّ والرفعة[٣]..

إن يهوذا وهو أخٌ لرابين زنى بزوجة ابنه «لعير» واسمها «شامار»[٤]..

---

(١) سفر التكوين - (٢٠-١٢).

(٢) سفر التكوين (١٩ - ٣١).

(٣) سفر التكوين (٣٥ - ٥٥) (٤٩ - ٣).

(٤) سفر التكوين (١٩).

إن داود عليه السلام رأى زوجة جاره الجميلة فناداها وزنى بها[1]..

إن ابن داود زنى بأخته[2].. وغيرهم.. وغيرهم..

أمّا كتابهم التلمود.. فيبيح لليهودي كل شيء خاصة مع المرأة غير اليهودية.. لأنها عبارة عن حيوان.. بل وحثّ الزوجة اليهودية على عدم الغيرة من المرأة غير اليهودية.. لأن الأخرى حيوان لا كرامة له.. فماذا تتوقع من شعب هكذا يُصوَّر له أنبياؤه -في كتابهم المقدس- وعندما جاء النصارى رأوا اليهود في حالة تثير الاشمئزاز والقرف.. فابتدعوا الرهبانية كرد فعل على إباحية اليهود.. فكرهوا الزواج ونهوا عنه.. وحرّموا الطلاق وجعلوا المطلّقة زانية والمتزوج منها أيضاً زان.

وبهذا أصبح اليهود والنصارى بين جحيمين.. فجاء الإسلام راحة ورحمة للإنسان يتقلّب فيها.. عامله لا كملاك ولا كشيطان.. بل إنسان يسعى نحو الأفضل.. لكنه في سعيه ذلك يتعرّض للعثرات والسقوط لأنه بشر.. لكن الإسلام يدفعه لمقاومة ذلك السقوط والنهوض من جديد.. ولذلك قال ﷺ:

(والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[3].

جاء أحد الصحابة يستفسر عن حالة التغيّر عند المسلم عندما يغادر المسجد وقد تأثّر بكلمة أو موعظة أو محاضرة.. فإذا ذهب إلى بيته أو دكانه خفّ تأثره ذلك.. فأجاب ﷺ عن هذا التساؤل الذي يطرأ على

---

(١) الكتاب المقدس - صموئيل الثاني - ١١.

(٢) الكتاب المقدس - صموئيل الثاني - ١٣.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٤٩).

المسلم.. وعلى ذلك الصحابي المدعوّ حنظلة بقوله ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو كنتم تكونون في بيوتكم على الحالة التي تكونون عليها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولأظلّتكم بأجنحتها، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة)[1].

وعندما حاول ذلك الصحابي العظيم عثمان بن مظعون.. أن يمحو الساعة الثانية ويبقى في ساعة عبادة ممتدة من النوم إلى النوم أوقفه ﷺ وأعاده إلى سنّته.. إلى بشريّته.. فلا رهبانية في الإسلام ولا تطرّف.. تقول عائشة رضي الله عنها:

(دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك. قالت: ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه، فقال: يا عثمان بن مظعون.. أما لك بي أسوة؟ فقال: بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال ﷺ: تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل. قال ﷺ: «يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا.. أما لك فيّ أسوة؟ أما والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا» فأتتهن بعد ذلك وهي عطرة كأنها عروس، فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)[2].. لم تشتك تلك المرأة الفاضلة من بخل ولا قلّة مال.. لم تشتك حتى من زوجها.. لكنها بثّت ما بصدرها لنساء النبي ﷺ.. عبرت عن حاجة المرأة إلى وصال الزوج وحبّه.. وإلاّ فإنها ستذبل.. وذبول المرأة يعرف بعدم اهتمامها بنفسها وأناقتها وأنوثتها.. أعاد النبي ﷺ ذلك الرجل النقي التقي إلى أجواء

(١) حديث صحيح - صحيح الجامع (١١٩٠/٢) وهما عند مسلم.

(٢) حديث صحيح مر معنا. ورواه عبد الرزاق بسند صحيح (١٦٧/٦) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة.

الإسلام البيضاء الرحبة.. يحلّق فيها طائراً أبيض بالحب والإيمان.. ثم يعود إلى عشّ حبيبته الجميل.. كما يعود النبي ﷺ إلى بيته محمـــلاً بالشـــوق والحب.. وإذا كانت الحياة الزوجية تقتضي ذلك.. فإن الحيـــاة بكرامـــة إسلامية تقتضي أن يعود عثمان بن مظعون ورفاقه مع رسول الله ﷺ إلى أرض بدر مرة أخرى بعد أن فرض الشرك ذلك عليهم متحدياً.. معركة حددها أبو سفيان.. حدد موعدها.. ومكانها.. أما الموعد فهو بعد عـــام من غزوة أُحُد.. أي الآن.. وأمّا المكان.. فعلى أرض بدر وفي موسم بدر المشهور بالشعر والفخر والتجارة..

الفهرس